كلام جرايد

منصور محمد الخريجي

ⓒ منصور محمد الخريجي، ١٤٢٦هـ

فهرسة مكتبة الملك فهد الوطنية أثناء النشر

الأ

ردمك: ٠ رقم الإيداع:

الطبعة الأولى

١٤٢٦هـ/ ٢٠٠٥م

حقوق الطباعة محفوظة للمؤلف

بسم الله الرحمن الرحيم

الفهرس

الموضوع | الصفحة

الموضوع	الصفحة
المقدمة	٩
خطاب إلى صاحب السمو الملكي الأمير سلمان بن عبدالعزيز	١٧
دلوي مع الدلاء	٢١
الكاتب وموضوعه	٢٥
زملائي الكتاب (١ - ٢)	٢٧
زملائي الكتاب (٢ - ٢)	٣١
محمد شكري (١ - ٢)	٣٥
محمد شكري (٢ - ٢)	٣٩
صراعي مع النوم والطيران	٤١
حصيلة الأفكار	٤٥
رسالة إلى رئيس البلدية	٤٧
أدب القيادة	٤٩
التسوق عبر الشبابيك	٥٣
المرور (١)	٥٧
المرور (٢)	٦١
سر في حياتي	٦٥
ليست (مزايدة) لكنه بكاء العاجزين	٦٩

الماء: آخر أسباب الصراع بين الشعوب ٧٣
الأمية الثانية ٧٩
راتب التقاعد لموظفي الدولة ٨٣
الزائرة الثقيلة ٨٧
الواسطة ٩١
من سيئات العصر الحديث ٩٥
نزهة وأخواتها ١٠١
هموم ما بعد الثانوية ١٠٧
التنصير: الغزو المسيحي الغربي للعالم ١١٣
نزهة على الطريقة السعودية ١٢١
موسم الهجرة إلى الشمال وكل الجهات ١٢٧
موسوعة الأدب العربي السعودي الحديث هل هو نقد أم مهاترة؟ ١٣٣
حول دراسة الدكتور عبدالله العثيمين ١٤٣
رحلة المجلة العربية في أعماقي ١٤٩
خمسون في خمسين مجلة اليمامة ١٥٧
في ثقافة اليوم: جريدة الرياض ١٦٥
مقابلة في جريدة عكاظ ١٧٣
مقابلة في جريدة الاقتصادية ١٨٣
مقالات مترجمة ٢١١
مقدمة ٢١٣
المحكومون بالإعدام ٢١٥

أيام العار (١-٣) ـــــــ ٢٣٣
أيام العار (٢-٣) ـــــــ ٢٤٣
أيام العار (٣-٣) ـــــــ ٢٥٣
أيرما: أب يتذكر (١-٢) ـــــــ ٢٦١
أيرما: أب يتذكر (٢-٢) ـــــــ ٢٨٣
الكابوس المرعب... على أرض الواقع ـــــــ ٣٠٥
تحت الحذاء ـــــــ ٣١٣
قصص قصيرة ـــــــ ٣٢٥
الحرب ـــــــ ٣٢٧
بعد تسعة أشهر ـــــــ ٣٣٥

مقدمة

يصف المنجد الكتاب على أنه «ما يكتب فيه، سمي بذلك لجمع أبوابه وفصوله ومسائله» بينما تصف موسوعة كولومبيا الأمريكية الكتاب بأنه: «عمل مكتوب إما طباعة أو مسوَّدة يتميز بحجم معين».

كان لابد أن آتي بالتعريفين السابقين لأبرر إقدامي على إخراج هذا الكتاب الذي هو ليس أكثر من مجموعة مقالات كنت كتبتها ونشرتها على مدى سنين في بعض صحفنا المحلية. هناك أيضاً بعض المقالات التي ترجمتها عن الإنجليزية من بعض المجلات الغربية والتي رأيت أنها تستحق الجهد الذي بذل في ترجمتها، خاصة عندما كانت المواضيع التي تتعرض لها ما تزال حارة حية وموجعة أيضاً.

لكن لايزال السؤال قائماً: وهو لماذا أقدم على جمع مقالاتي في كتاب بعد أن نشرت في الجرائد؟ هل المسألة كلها نوع من الأنانية أمارسها لوضع اسمي على كتاب لا جديد فيه سوى ربما هذه المقدمة؟ خاصة وأنا أعرف وغيري يعرف أن كل ما كتبته ودعوت له لم يغير من دنيانا شعرة واحدة، ولم أجد له أي صدى مهما كان ضعيفاً. أستطيع أن أضيف هنا أنه ليس من المنطق أو الضروري أو المعقول أن يهبَّ الناس سراعاً لتنفيذ ما يراه واحد منهم حتى لو ادعى أنه من أساطين تقويم العيوب، وأنه عنتر زمانه. كل هذا صحيح، وصحيح أيضاً أن كل من يتحامل على نفسه ويكتب شيئاً في فترات متباعدة لا يجوز أن

يتوقع أن الناس جالسون وأيديهم على ذقونهم ينتظرون فقط من حضرة الكاتب النحرير أن يحرك قلمه حتى يتهافت الجميع على انتهاب ما نثره من در يجمعونه ويجعلونه عقوداً على صدورهم.

وعلى الرغم من ذلك ها أنذا أجمع مقالاتي في كتاب لعلي أحظى ولو بقارئ واحد من القادرين على اتخاذ قرار يعيد النظر فيما طرحت في مقالاتي من أفكار عندما نشرت في الصحف.

هناك أشياء عديدة يتعرض لها كاتب المقالة ويدلي فيها برأيه ويقترح الحل أو الحلول التي يراها تعالج الحالة التي يتصدى لها. ولدينا اليوم عشرات إن لم يكن مئات من الكتاب الذين يكتبون ويكتبون ولا يملون من رفع أصواتهم بما يرونه يحتاج إلى تنبيه أو لفت نظر من بيدهم الحل والربط. وهؤلاء ندعو لهم بأن يزيد الله من قدراتهم على الصبر والمثابرة. وخاصة كتّاب الأعمدة اليومية الذين أغبطهم - ولا أقول أحسدهم - على معين أفكارهم السيال، ومثابرتهم، وكذلك على هرش رؤوسهم دوماً لإيجاد شيء جديد كل يوم يكتبون عنه؛ ليستريحوا فقط أو ليستريح بعضهم في نهايات الأسابيع أو عندما يجيبون على رسائل القراء!

أعود مرة ثانية إلى موضوع إعادة طبع مقالاتي التي ظهرت في صحفنا الوطنية. سوف أجني أنا كاتبها من وراء إعادة طبعها فائدتين: الأولى هي أن أحتفظ بها في كتاب واحد، والثانية وهي الأهم جداً أن هناك أمراً معيناً يأخذ علي كل تفكيري ويسبب لي

إحباطاً وأسى كلما ذكرته، وأنا مجبر على تذكره في كل ساعات النهار والليل تقريباً بحكم طبيعته: ذلك الأمر، والذي سبق وكتبت إحدى مقالاتي حوله، هو تشجير مدننا.. نعم فأنا سوف أبقى بحول الله وقوته أدعو إلى زراعة الأشجار في مدننا وأراضينا. والموضوع كما ترون ليس جديداً أبداً؛ فالأشجار والتشجير أمر وجد منذ أن وجد الإنسان على الأرض - إلا أن ما أقصده هنا هو أن بيئة صحراوية مثل بيئتنا تحتاج إلى جهود مضاعفة واهتمام فائق وعناية خاصة ودراسات جادة؛ لإيجاد أنجح الوسائل لنشر الخضرة في بلادنا الصحراوية الحارة. أكرر أن هذا ليس بالأمر الجديد، ولكن الجديد أننا لا نقوم بالجهود الكافية المطلوبة لنشر التشجير في بلادنا. لقد اتسعت بلداننا ونمت مدننا بشكل سريع لم نعتده من قبل؛ مما جعل من الصعب إعطاء الأولوية للتشجير على حساب إنشاء المرافق الأخرى الحيوية للمناطق السكنية الجديدة. ولكن لا بأس في ذلك، ولا يتوقع أن تتم كل مناحي التطوير من أساسية وبيئية وجمالية بين يوم وليلة.

إن ما أقصده من كلامي هو أننا في قلب مدننا القديمة أهملنا حكاية التشجير، وأنا هنا أستأذن هيئة الحفاظ على البيئة وكل الهيئات والدوائر الحكومية المختصة في لفت نظرها إلى مسألة حساسة كهذه. أعدنا تخطيط شوارعنا وشققنا شوارع جديدة فسيحة؛ وأقمنا على جوانبها العمارات الأنيقة وأعمدة الكهرباء الشاهقة، لكننا أهملنا غرس الأشجار. قد يقول قائل: إن الشوارع توجد بها أشجار. وأجيب: كلا لا توجد أشجار بل بعض شجيرات

متفرقة على أشكال تثير السخرية و الأسف. وإلا هل من المعقول والمنطق أن تسير في بعض شوارع الرياض مثلاً لمسافة قد تزيد على العشرة كيلو مترات ولا ترى شجرة واحدة تركت لتنمو كما أراد الله لها أن تنمو. انظر حولك في معظم شوارع جدة أو الرياض وستصعق عندما ترى الشجيرات شذبت على شكل مبخرة أو هلال أو أشياء مكومة منبعجة تتكرر مئات المرات، ولا ترى شجرة واحدة طبيعية ! هل نحن أصبحنا فجأة شعباً شديد الشغف بالناحية الجمالية - نذوب رقة من فرط إحساسنا بحلاوة الدلة فنغتال شجراتنا لنجعل منها دلة قهوة تتكرر بشكل سمج لعدة كيلو مترات.

كيف نجرؤ على أعمال كهذه ونحن نعيش في صحراء تبلغ درجة الحرارة في صيفها فوق الأربعين درجة! ما الذي يجعلنا نصر على الاعتداء على الشجرة ونمنعها من النمو لنشكل منها شيئاً سخيفاً يتكرر بشكل تمجه النفس السوية؟!.

إن بلاداً مثل بلادنا وهي صحراء قاحلة قليلة الأمطار - هكذا اختار الله تعالى لبلادنا أن تكون - نحتاج فيها إلى كل عرق وغصن أخضر. ولم أكن لأظن أن المسؤولين عن شؤون مدننا يحتاجون إلى من ينبههم إلى هذه الحقيقة، لا يجوز مطلقاً أن يسير الإنسان في أكبر شوارع مدننا ولا يجد شجرة واحدة تركت لتنمو وترسل بظلها وأكسجينها على المارة. صحيح نحن نتنقل بالسيارات معظم الأوقات، ولكن لا أحد منا يستغني عن السير أحياناً في الشوارع، ثم لماذا لا نجعل من شوارعنا أماكن يحلو السير فيها، كلنا نعرف أنه توجد هناك

الآن أماكن في الرياض وجدة خصصت للمشي فقط، ولكن ما أريده هو تشجير كل شوارع بلادنا. الشجرة أياً كانت تعطي الحياة وإن لم تثمر، فهي تعطي الظلال والأكسجين، والأهم من هذا تعطي الجمال الطبيعي، ولأيم الله إن شجرة تركت لتنمو كما يريد الله تعالى لها لهي أجمل ألف مرة من الأشكال الأنتيكا التي نأتي بالعمال من جنوب شرق آسيا وندفع لهم ليحرمونا بقصها من الجمال والظلال والأكسجين.

لا أشك أن معظم المسؤولين عندنا سواء من البلديات أو هيئة الحياة الفطرية - أقول لا أشك - أنهم سافروا وساحوا في الأقطار والبلدان، فهل شاهد أحد منهم شوارع بأكملها وعلى جانبي الرصيف وأحياناً في الجزيرة التي تتوسط الشارع هل شاهدوا مثل ما لدينا من شجيرات حرمت نعمة النمو الطبيعية، وشكلت الأشكال المضحكة التي برعنا فيها ؟ في كل دول العالم تترك الأشجار لتصبح عملاقة تتعانق على جانبي الطريق لتخلق منظراً جميلاً آخاذاً يشرح النفس ويريحها. وإن كانوا هناك يشكلون بعض الشجيرات أشكالاً جمالية فلأن لديهم من الأشجار الطبيعية ما يكفي.

أرجو أن يقرأ هذه المقالة أحد ممن بيدهم السلطه على علاج هذه الظاهرة التي أتحدث عنها - ظاهرة العداء للشجرة الكاملة النمو - كما أرجو أن يكون بعضهم في زياراتهم لبلدان العالم قد زاروا بعض المنتزهات الطبيعية التي تفخر معظم بلاد العالم بوجودها والعناية الفائقة بها.

وأنا أرشح للمتنزهين منهم خارج المملكة أن يزوروا مثلاً حدائق كيو جاردن وهو منتزه ضخم قريب من لندن حوى من الأشجار الغريبة والعملاقة أروعها وأجملها والتي تذكِّر في كل لحظة من مشاهدتها بعظمة الخالق سبحانه وتعالى.

أستطيع قبل أن أختم هذه المقدمه أن أقول إنني تكلمت مع مسؤولي بلديات مدننا الكبيرة حول حكاية التشجير، لكنني لم ألاحظ أي تغيير في الشوارع التي أمر بها في تلك المدن. أسكن في الرياض قريباً من شارع العروبة وهو مثل غيره، وعلى امتداده الذي لا يقل عن ثمانية كيلو مترات أو حولها غرست في وسطه شجيرات الفيكس، وقصت طبعاً على شكل كرات، ثم لاحظت بعد نشر مقالي السابق عن الموضوع نفسه أن الشجيرات تركت لتنمو وتباشرت خيراً، إلا أن أملي خاب، إذ بعد أن كانت الشجيرات مدورة جعلوها مربعة!!

الساحات المحيطة بالحرم النبوي الشريف لا تقل مساحة واتساعاً عن المباني المغطاة بعد التوسعه. والناس أصبحوا الآن يملؤون هذه الساحات حتى بغير أوقات مواسم الحج ورمضان. تصور عندما تكتظ تلك الساحات المفتوحة في فصل الصيف بالمصلين وخاصة أيام الجمع. لا توجد أي ظلال في كل تلك الساحات. فلماذا لا تزرع الأشجار المناسبة ذات الظلال الكثيف لتقي الناس حرارة الشمس الملتهبة التي كلنا نعرف كم تبلغ حرارتها في أشهر الصيف ؟ كثير منا يذكرون أن الرملة التي كانت في وسط المسجد النبوي قبل التوسعه كانت بها أشجار، فلماذا لا نرى الآن عوداً أخضر واحداً في كل

ساحات الحرم الشاسعة. لا أحتاج أخيراً أن أعدد فضائل الأشجار فكلنا يعرفها، إلا أنني لا أنفك أعجب من إهمالنا للشجرة في وقت كان يجب أن يزداد اهتمامنا بها مع الامتداد العمراني السريع لمدننا، وخاصة أن هناك الآن من وسائل التقنية الحديثة ما يسهل علينا اختيار أنواع الأشجار التي تعيش في بيئتنا. يمكن في هذه الحالة أن نذكر بالشوط الكبير نحو التشجير الذي قطعته أبوظبي، والتي بيئتها الصحراوية جزء من بيئتنا. هناك مناطق الآن في أبوظبي تذكر بكثافة أشجارها بالمناطق الاستوائية. وكل ما نحتاج إليه لنصل إلى مثل ما وصلوا إليه هو توجيه جهودنا الوجهة الصحيحة.

هناك الآن حديث عن مشروع إقامة مظلات ضخمة في ساحات الحرم المدني، ولكن حتى بوجود مثل هذه المظلات فإن الجو الصحراوي عندنا يتطلب وبلا شك كل ما نستطيع عمله من زراعة الأشجار والعناية بها.

أخيراً أحب أن أذكر من وصل إلى هذا الحد من القراءة أن امرأة إفريقية من نيجيريا حصلت العام الماضي على جائزة نوبل لأنها تبنت زراعة الشجر في بلدها التي هي على الأقل ليست مثل بلدنا صحراء وجفاف. أتمنى كما أننا نخصص يوماً للمرور مثلاً أن نخصص يوماً للشجرة يتكرر كل عام، نشجع الناس فيه على غرس الأشجار، ونقدم للمجتهد منهم المكافآت. وهذه ربما تبقى مهمة وزارة الزراعة والهيئة الوطنية لحماية الحياة الفطرية.

ومرة أخرى، أخيراً لا آخراً؛ لقد تحدثت قبل مدة مع صاحب السمو الملكي الأمير سلمان بن عبدالعزيز أمير منطقة الرياض الذي لا يكل ولا يمل - أعانه الله - على جعل الرياض بلداً تتمتع بكل مزايا البلدان الجميلة، وعلى رأس ذلك الجمال جمال الطبيعة. ثم أليس اسم الرياض نفسه دليلاً على أنها اكتسبت الاسم من صفة الروضة؟ وربما لم تكن روضة واحدة بل روضات. وبهمم الرجال وعلى رأسهم أميرها سوف تعود - إن شاء الله - رياضاً غناء كما كانت في السابق. تحدثت مع سموه حول موضوع التشجير وطلب مني أن أكتب له خطاباً أشرح فيه ما أريد قوله. وقد كتبت الخطاب المذكور وهو الذي أفتتح به هذا الكتاب. والله ولي التوفيق.

أحب أخيراً أن ألفت نظر القارئ إلى الترجمات الموجودة في الكتاب والتي تخص الحرب الأهلية التي حدثت في أوائل التسعينات من القرن الماضي في البوسنة والهرسك، والتي اقترف فيها علوج الصرب أفدح وأقذع وأشرس أنواع الجرائم الوحشية ضد مواطنيهم من مسلمي البوسنة والهرسك. عندما نسمع ما حدث تهتز أبداننا رعباً وترتجف قلوبنا حزناً على أناس مسالمين طيبين أبيدوا دون ذنب جنوه سوى أنهم يدينون بعقيدة غير تلك التي يدين بها جزاروهم. هذا عندما تقرأ وتشاهد الأخبار بصفة عامة، ولكن عندما يقتحم عليك كاتب محايد لقصة معينة من قصص المآسي التي حدثت والتي راح ضحيتها نساء وأطفال أبرياء تشعر كأن ما يحدث يحدث لك أو لأهلك وأطفالك، ويتم تلاحم الشخصيات ولا تعود تعرف إن كانت المرأة والطفلة اللتان قتلتهما قنبلة مجنونة هما زوجتك وابنتك أم زوجة وابنة رجل غيرك .. اللهم الطف بنا. ■

المؤلف

صاحب السمو الملكي الأمير
سلمان بن عبدالعزيز

أمير منطقة الرياض يحفظه الله

السلام عليكم ورحمة الله وبركاته ..

سيدي:

كنت قد أثرت مع سموكم الكريم -حفظكم الله- موضوع تشجير شوارعنا الرئيسة في مدننا الكبيرة. وقد ذكرت لسموكم أن الشوارع في معظم المدن الكبيرة توجد بها أشجار، لكن للأسف دأب القائمون على هذا العمل على قص الأشجار وتهذيبها؛ لتأخذ أشكالاً معينة بغرض أن تبدو جميلة، أو هكذا يظنون. وهم يحرصون في عملهم ذلك على أن لا تنمو الشجرة عن حجم وطول معين، وأن لا يكون لها بالتالي أي مفعول بيئي على الإطلاق. فالأشجار في معظم شوارع مدننا تبقى قزمة آخذة أشكالاً غريبة موحدة تمتد بطول الشارع حتى ولو كان ذلك لبضعة كيلو مترات.

إن من السهل - أطال الله عمرك - أن ندرك أن قصقصة الأشجار على هذا النحو ولعدد كبير منها يبعث على الملل، هذا لو كانت بلادنا غنية بالأشجار الطبيعية - ولكن كون بلادنا صحراوية تلتهب أشعة الشمس فيها أشهر الصيف فإن من المضحك المبكي أن

نلجأ إلى تهذيب الشجيرات بدعوى الجمال بينما من يسير في شوارع الرياض أو جدة أو المدينة وغيرها من بلادنا في أشهر الصيف يعاني من شواظ لهيب الشمس وكأنها سياط تلسعه .

يا صاحب السمو، كلنا جبلنا على حب الجمال، ولكن لا مناص من أننا في الحال التي أتحدث عنها من أن نعتبر هذا النوع من الجمال ترفاً لا نقدر عليه. إننا بحاجة إلى أشجار كثيفة باسقة؛ تنشر ظلالها وفيأها على العباد، أشجار تعيش وتترعرع في بيئتنا الصحراوية وتقوم بعمل مكيفات صحراوية طبيعية. جرّب يا سيدي أن تسير على قدميك في فصل الصيف بالقرب من حديقة أو أية واحة بها أشجار وستشعر بالهواء البارد يهب عليك وكأنك ولجت إلى مكان مكيف.

أنا لا أقول أن نحارب تجميل الأشجار القزمة كلية، ولكن هذه من الممكن أن تتخلل المسافات بين الأشجار الكبيرة، وأعتقد وقتها أن منظرها سيكون معقولاً. ثم إنني أعتقد جازماً - يا صاحب السمو - أن الشجرة التي تترك لتنمو كما أراد الله تعالى لها أن تنمو هي أجمل ألف مرة من شجيرات تقزّم ثم تشكّل بأشكال بعضها يدعو للسخرية.

إن من المحزن أن نسير في بعض شوارع الرياض لعدة كيلو مترات ولا نرى شجرة واحدة تركت لتنمو كما أراد الله تعالى لها أن تنمو. وإن قال قائل: إن الشجيرات التي تشذّب لتأخذ أشكالها الغريبة أنها لا تصلح للنمو فلتهمل وتستبدل بشجرة تنمو وتكبر؛ لترسل

نسماتها العليلة في أشهر الصيف القائظة على أولئك الذين ينشدون ظلالها.

أود أيضاً - طالما وجهت سموكم أن أكتب لكم عن موضوع التشجير - أود أن أشير إلى ما تم إنجازه من إعادة ترتيب بعض أرصفة الشوارع الرئيسة مثل: شارع الأمير عبدالله، أو ذلك الجزء منه الذي صار مثالياً للتريض فيه . هناك شوارع كثيرة - يا سيدي - تحتاج إلى مثل ذلك أو بعضه، ومنها شارع العروبة مثلاً الذي يجد السائر فيه أن رصيفه يتشكل بشكل مختلف أمام كل دكان . ولعل هذا الشارع بحاجة ماسة إلى إعادة النظر في أرصفته حيث صار من الشوارع التجارية الرئيسة في العاصمة ■

وفقكم الله وحفظكم من كل سوء ..

وتقبلوا سموكم الكريم فائق تحياتي،،

منصور بن محمد الخريجي

دلوي مع الدلاء(*) (١)

هذه هي المرة الأولى منذ أكثر من ثلاثين سنة التي أمسك بها قلماً لأكتب شيئاً أنشره بجريدة. والسؤال هو: ماذا سأكتب وما هو الهدف الذي أتطلع مثلاً إلى تحقيقه؟ الحقيقة الوحيدة التي أقررها هنا هي أنني لن أنصِّب نفسي باحثاً ولا معلماً ولا محللاً، فهذه كلها لها أناسها. يبقى الجواب عن سؤالي وهو سيتضح أو لعله يتضح مع الأيام إذا اتسع صدر الأخ قينان الغامدي لعدد معقول من مقالاتي «أو حلقاتي الركنية» نسبة إلى الركن أو الزاوية أو العمود. وإذا لم يستطع قينان صبراً على كتاباتي «فذنبه على جنبه»؛ لأنه هو الذي ألح علي وما زال يلاحقني حتى اعتقدت أنني فعلاً كاتب بارع. ولقد ترددت كثيراً في الاستجابه «لنق» قينان؛ أولاً لأنني لم يسبق لي أن التزمت مع أية جريدة أو مجلة؛ لأن الالتزام في أمر كهذا عظيم المسؤولية خاصة لو أعطي الكاتب القدرة على كتابة شيء يستحق القراءة. في مثل هذه الحالة يصبح لزاماً عليه أن يحافظ على علاقته الكتابيه مع قرائه. أما إذا كان ما يكتبه لا يحرك جناح بعوضة فهذا حاله سيان إن بقي أو رحل؛ لأن لا أحد يشعر بوجوده. وفي كلا الحالين أجدني أفزع هلعاً، وأنا الآن أتكلم جاداً؛ فإن فشلت في بناء جسر يصلني بالقراء فهي طبعاً كارثة يقشعر لها بدني؛ لأن

(*) هذه سلسلة مقالات ظهرت تتابعاً في جريدة البلاد الغراء، وهي المقالات الستة التالية.

(١) نشرت في جريدة البلاد في ١٥ / ٨ / ١٤١٨هـ، الموافق: ١٥ / ١٢ / ١٩٩٧م.

الفشل محزن ومأساوي لمن يجربه. أما إذا نجحت فيصبح لزاماً علي أن أبقي على العلاقة وأن أقدم شيئاً يرضون عنه، وهي مسألة قد تكون أصعب من الأولى؛ لسبب بسيط، هو كيف تجد - ولو كل أسبوع - شيئاً تكتب عنه ويحظى بانتباه القراء؟

إن فكرة الكتابة عن موضوع كل أسبوع تخيفني، ولا أحتاج إلى القول إن الكتابة اليومية شيء أكبر بكثير مما أستطيعه. علاوة على ذلك فأنا لا أستطيع أن أواظب على عمل شيء واحد يتكرر كل يوم أو كل أسبوع، وهذه حقيقة قد يعرفها عني بعض أصدقائي. طبعاً هذه الحقيقة لا تشمل الوظيفة الرسمية التي لازلت أؤديها منذ أكثر من ثلاثين سنة!.. أتحمس لشيء ما حماساً قوياً، ثم لا يمر بعض الوقت - تعتمد مدة الوقت على أهمية الموضوع - حتى أسأمه أو حتى أندم أحياناً على فعله أو الانتصار له. وقد يشاركني كثير من الناس هذه الصفة التي يبدو أنها من بقايا خصال الطفوله، إذ المعروف أن الطفل يريد الآن شيئاً ويبكي إن لم يحصل عليه، وبعد دقيقة واحدة يبكي لو فرضت عليه الشيء نفسه الذي أراده قبل دقيقة!.. ولطالما ذكّرت نفسي أنني في المرات القادمة ينبغي علي أن أتروى قبل أن ألتزم بشيء أو أوافق على عمل ما، ولكن الحماس أو أي عامل آخر مثل التعاطف مع موقف ما أو شخص ما، لا يلبث أن ينسيني كل التأكيدات التي قطعتها على نفسي، وأنساق مع الموقف بسهولة يحسدني عليها الأطفال. كما حدث مثلاً ذات مرة عندما أتاني أحدهم يقترض مبلغاً

من المال وقد شرح لي أزمته أو أزماتة العديده بلسان فصيح وصوت متهدج جريح جعلني أعبر له عن امتناني لأنه خصني أنا من دون الناس جميعاً بطلب المساعدة على الخروج من محنته المتأزمه.

أسرعت ودفعت إليه ما طلب لأكتشف بعد أيام أنني إنما كنت الأخير من بين عدد من معارفه الذين راحوا ضحايا مثلي، حيث لم يسترد أي منا ما دفعه له. ولو كنت قمت بمكالمة هاتفية واحدة لبقيت دراهمي في جيبي. ولا أود أن أسرد المزيد من مثل هذه الحكايات التي إنما تدل على مدى قصر نظري - مجازاً كما هو بالمناسبة حقيقة - وعلى نوع من السذاجة، حتى لا أسميها اسماً آخر أسوأ!..

أعود إلى قضية الكتابة بجريدة البلاد استجابة لرئيس تحريرها الذي يهدف على ما أظن أن يستكتب كل من يعرف فك الخط، أو بالأحرى ربطه طالما نحن نتكلم عن الكتابة. لدى قينان الآن أكبر عدد من كتاب الأعمدة؛ هناك على الأقل كاتبان لكل صفحة من صفحات البلاد. وبمناسبة الكلام عن الزوايا فإن أطرف عنوان قرأته لزاوية هو «زاوية حاده» ولا أذكر في أي جريدة قرأته. ولقد ذكَّرني ذلك العنوان بسنوات الدراسة الثانوية عندما كنا نعاني من ألغاز الزوايا بأنواعها ومعها المستطيلات والمربعات والمعينات وأشباه المنحرفات قبل أن ينحرفن كلية. طالما حمدت الله أن هناك كليات تنأى بنفسها عن تعقيدات الجبر والهندسة وغيرها من تلك التي تصيب إنساناً مثلي بالإحباط.

كل الذي أرجوه أن لا يستولي قينان بواسطة كتّاب الأعمدة على المساحة المخصصة للإعلانات وغيرها من الموضوعات الثابتة. ولكي أحتفظ لنفسي بخط الرجعة، إذ يستحيل عليَّ أن أطلع كل يوم بشيء أقوله. قررت بالاتفاق معه أن يكون عمودي أسبوعياً أو ربما حسب التساهيل!... بقيت حكاية العنوان ـ إذ كلما فكرت بعنوان مبتكر يهز كل أركان الجريدة وليس ركني فقط، وجدت عشرة كتاب سبقوني إليه!.. صار العثور على عنوان لزاوية في جريدة أصعب من العثور على اسم لمؤسسة تجارية والتي أصبحت هي الأخرى من الكثرة والتنوع بحيث لو حركت لسانك الآن بأية أصوات لا معنى لها لوجدت مؤسسة ما يتكون اسمها من الأصوات نفسها التي أطلقها لسانك! ■

الكاتب وموضوعه [1]

لا يحتاج الكاتب في الحقيقة أن يسأل نفسه لماذا يكتب؟ لأن الجواب واضح، وهو أن لديه شيئاً يريد إيصاله للناس، أو هكذا على الأقل يعتقد. ولا أشك أن كثيراً من الكتاب إن لم يكن كلهم قد سألوا أنفسهم هذا السؤال يوماً، وبعضهم صرح به علناً مثل الكاتبة الدكتورة ثريا العريض التي بدأت سطورها في حلقتها (بيننا كلمة) التي تنشرها في جريدة الجزيرة تحت عنوان (سطور في الماء)؟ (٣ رمضان ١٤١٧هـ) حيث تساءلت في صدر مقالتها عن ماهية الكتابة: (كيف هي الكتابة)؟ وقد حاولت أن تجيب عن سؤالها مستخدمة أحياناً ما يسمى (بالأسلوب الحداثي) الذي لا أفهمه إطلاقاً مثل شرحها للكتابة بأنها «محاولة التنفس في الماء» فذكرتني بأغنية عبدالحليم حافظ: إني أتنفس تحت الماء، إني أغرق أغرق!!.. وعلى الرغم من أنني لا أحسن التنفس تحت الماء - أحمد الله أني أستطيع التنفس فوق الماء - إلا أنني قرأت باقي مقال الدكتورة وفهمته؛ لأنها لحسن الحظ عادت إلى استخدام الأسلوب الذي أفهمه، وقدرت لها أنها أحست أن هناك أناساً مثلي يحتاجون إلى من يأخذ بيدهم ويقودهم خطوة خطوة مع الشرح الوافي، فعادت تقول: «إذا كتبت لغيرك لا يجب أن تنسى حدود وجوده الفكري حتى لو ضحيت ببعض بريق لغتك، وبعض حدة رؤاك».

(١) نشرت في جريدة البلاد في ٢٢ / ٨ / ١٤١٨هـ، الموافق: ٢٢ / ١٢ / ١٩٩٧م.

أخيراً تقرر الدكتورة ثريا أن هناك أسباباً لا تحصى للكتابة؛ لأن كل إنسان يتصدى لمهنة القلم لديه من الأسباب لذلك أكثر مما يحتاجه. وإن لم تكن لديه أية أسباب فيكفيه أن «يحتفظ بحقه في التحليق المنفرد». وأزعم أنا أن معظم من يكتبون أو ربما جميعهم يحلقون منفردين عندما يكتبون. فالكتابة جهد شخصي ونتاج فكر واحد، وعلى من يبحر في خضمها أن يدرك أنه إنما يخوض أمواجها منفرداً. تبقى بعد كل هذا (المادة) ولا أقول (الرسالة) التي يسيل بها قلم الكاتب. هناك مليون موضوع - توقفت عن العد بعد المليون - يمكن للكاتب أن يختار منها. ولا أدعي أنني أو غيري لدينا المقدرة على الحكم الصحيح على كل ما نقرأ؛ لأن وجهات النظر تتفاوت من شخص لآخر. والحديث عن مواضيع الكتابة يحتاج إلى مجلدات وليس مقالاً مختصراً مثل هذا، ولا يشترط في الكتابة أن تكون دائماً لطرح موضوع معين أو أن تتوخى التعليم والإرشاد، فهذه لها مجالاتها المعروفة. وقد يكفي لتبرير مقالة أو عمود أو حتى بضعة أسطر أن تنتهي منها بابتسامة أو تنهيدة مريحة خاصة في زماننا هذا الذي صار الإقبال فيه على الحبوب المضادة للكآبة يثير دهشة حتى مالك الحزين. أما لماذا أقدمت على المغامرة في ميدان له فرسانه العديدون المهرة؟ فالجواب أنه حتى لو لم يكن لدي شيء مختلف عما لدى الآخرين فإنني أدعي أن ما عندي سوف أقوله بطريقة مختلفة، وهو سبب أرجو أن يرقى إلى تبرير إقدامي على الإمساك بقلمي. وإن لم يكف تبريري هذا فإنني أعود مرة أخرى إلى الادعاء أن ضغط رئيس التحرير وإلحاحه دفعاني إلى مغامرة يتحمل هو نتائجها■

زملائي الكتَّاب [1]

١-٢

لأنني سأصبح أو ربما أصبحت (زميلاً) لكتَّاب الزوايا فقد خطر لي قبل أن (أخوض) في المواضيع التي سأكتب عنها أن أسجل بعض ملاحظاتي عن (الزملاء) كتاب الزوايا:

عبدالله أبو السمح: الكاتب المشاكس، فهو يختار مواضيعه من بين تلك التي لا يتفق عليها اثنان، أو التي يعرف أنها ستثير على الأقل اعتراضات لأسباب مختلفة. وعبدالله هو هو لم يتغير، فمنذ أن زاملته في مدرسة تحضير البعثات وهو يثير مواضيع لا يتفق بشأنها أحد. كان زميلي وأجدني ملزماً أن أدعي أنني أصغر منه سناً - وهذا فقط على طريقة كل الإخوان الذين يكتبون عن زملاء لهم رافقوهم في مراحل التعليم المختلفة - إذ لم أقرأ لكاتب واحد اعترف أنه في مثل سن زميله الذي يكتب عنه، بل دائماً أجد الكاتب أصغر سناً!!. ولكن بغض النظر عن عمر أبو السمح فلا بد أن أسجل هنا إعجابي بالمواضيع التي يتطرق إليها عبدالله، فحسه النقدي يجعله يتصدى لقضايا حساسة وجادة قد لا يجرؤ غيره على الخوض فيها أو قد لا تخطر للآخرين على بال.

(١) نشرت في جريدة البلاد في ٢٩ / ٨ / ١٤١٨هـ، الموافق: ٢٩ / ١٢ / ١٩٩٧م.

عبدالله خياط: أتخيله يقرأ كتاباً أو عملاً ما ثم يتركه لغيره، وتمضي أيام وربما أسابيع على ما قرأ، ثم ولسبب ما لا نعرفه ينزوي في مكتبه عند الفجر ويأخذ في (عصر) رأسه ليسترجع شيئاً مما علق في ذاكرته. وما على عبدالله إلا أن يرتب ساعات فجره لتتفق مع الكتب والمواضيع التي يعالجها بمقدرة تشهد له بها الساحة الأدبية.

تركي السديري: كاتب تُرفع له القبعات - لو كنا نلبسها - فهو الأستاذ الذي تقرأ له وكأنك تجلس أمامه في فصل دراسي وتستمع إلى محاضرته. دون فترة راحة، خاصة وأن السديري لا يبتسم أبداً في محاضراته، أعني مقالاته.

وعلى ذكر الابتسامات هناك مشعل السديري الذي أصبح فجأة كاتباً ساخراً وكنا نقرأ له منذ زمن دون أن نلاحظ موهبته هذه. وهي موهبة جديرة بالعناية بها وصقلها وتطويرها، خاصة وأننا في هذه البلاد عموماً نتمتع بكَمٍّ من المرح أقل حتى مما عند باقي الشعوب العربية التي هي عامة تنتمي إلى ذلك الجنس من البشر الذين يوصف مرحهم وفكاهتهم بأنها جافة. كم من مرة رأينا أحداً من رجالنا يبتسم في مقابلة تلفزيونية أو ندوة أو أي اجتماع عام؟ أدعو القراء ممن يعرفون السر وراء تلك الظاهرة المميزة أن يكشفوها لنا لعلنا نساهم بإيجاد العلاج ولو باستخدام حبوب السعادة!..

كثيرون هم كتَّاب الزوايا ـ الحقيقة أصبحوا أكثر من الهم على القلب ـ كما يقول التعبير الدارج. ولكننا لكي نبقي الموضوع تحت

سيطرة قلمنا فإننا نركز على البارزين منهم. يأتي في مقدمة هؤلاء جميعاً... الأخ الأستاذ عبدالله الجفري. عبدالله أصبح الآن ينشر مقالاته في أكثر من جريدة وهذا يحسب له. وليس هذا فحسب، بل صار الآن يقول شيئاً ذا معنى! تسألني كيف ذلك!.. حسناً، أنا أعرف أن عبدالله رجل سمح الأخلاق كريم النفس، وهو أيضاً صديقي ولن يغضب مني. لقد مكث عبدالله يكتب لأكثر من عشرين سنة دون أن يقول شيئاً له معنى!. وهذا بحد ذاته عبقرية، إذ كيف تستطيع أن تنتقي كل تلك الكلمات الجميلة ذات الرنين المتناغم والحس الرومانسي المرهف، والتي تشبه الصوت الذي يصدره تهشم طبقة جليد رقيقة ضغطت عليها بأصبعك برفق، ومع ذلك تبقى مجرد كلمات لها صوت تكسُّر طبقة جليد رقيقة؟! لكن يبدو أن عبدالله استيقظ ذات صباح وقرر أن الوقت أزف ليقول شيئاً له معنى، وهكذا كان.

من كتاب الأعمدة الذين أبحث عن زواياهم قبل قراءة أي شيء آخر بالجريدة جهاد الخازن[1]، فهو بالإضافة إلى رئاسة التحرير يكتب يومياً عموداً يأخذ أحياناً طول جريدة الحياة نفسها. وليس أي عمود ذلك الذي يكتبه جهاد، فهذا الرجل يتمتع بحق بميزة فريدة في الكتابة، وهو أسلوبه الساخر الفكاهي الذي ينوء بالوقت نفسه بحمل ثقيل من الموضوعات الجادة دائماً والحزينة أحياناً، عندما يتناول مثلاً قضية فلسطين والتعنت الإسرائيلي وسفالة نتنياهو. وأجدني في

(١) كان جهاد الخازن ما زال رئيس تحرير جريدة الحياة عندما ظهرت هذه المقالة.

الحقيقة عاجزاً أن أجد ثغرة في عموده أنفذ من خلالها لعلي أجد بعض المآخذ عليه. هناك شيء واحد فقط ولا أجزم فيه برأي، هو كيف تمكن جهاد الخازن أن يبقى على علاقة طيبة مع كل الحكام العرب؟ فهو قد يكون الوحيد بين كتَّاب الأعمدة الذي يخصص معظم يومياته للشؤون السياسية العربية، ومع ذلك أظنه لازال على علاقة سلمية مع كل الحكام العرب!.. لعل سفراته المتعدده إلى الدول العربية وراء تلك العلاقة المميزة التي تربطه بالجميع.

عمر العمودي: تعجبني زاويته «حديث الأربعاء». لقد برع العمودي باختيار موضوعاته الأربعائية لدرجة أن القارئ لها لا يتردد في الاتفاق مع الكاتب أن هذا هو الموضوع الذي يجب أن يطرح للبحث فعلاً. ولا أشك إلا أن الأخ عمر يقضي وقتاً طويلاً بقية الأسبوع يختار من بين المواضيع التي يراها جديرة بالكتابة عنها، ويختار الأكثر جدارة منها. أشعر فقط أنه على عجلة من أمره، وأن لديه مهمات أخرى كثيرة تنتظر دورها في جدول أيامه، بما فيها يوم الأربعاء ■

زملائي الكتَّاب [(١)]

٢ - ٢

قررت أن أخصص حلقة هذا الأسبوع أيضاً لاستكمال ملاحظاتي عن كتَّاب الزوايا في صحفنا.

رضا لاري: يكتب في موضوعات سياسية تحليلية دسمة ومعقدة. أعترف أنني لا أكمل قراءة معظم مقالاته؛ لأنني لم أحب السياسة يوماً؛ ولأن ما أشاهده وأسمعه من أخبار وتحليلات في محطات التلفزيون التي أصبحت لا تحصى كفيلٌ بأن يهد جبلاً أشم وليس ظهري المصاب بالدسك. (أرجو ممن قد سمع خبراً ساراً عن حال العرب في تاريخهم الحاضر أن ينبئني به على عنواني في جريدة البلاد!) زيادة على ذلك أنا أفضِّل أن أستمع إلى رضا لاري يتحدث بدلاً من أن أقرأ له. السبب أن رضا يتكلم بسخرية وصراحة ممزوجة بنكاته وقفشاته الحاضرة دائماً، مما يجعل ما يريد إيصاله إلى ذهن السامع أشبه بحبة دواء شديدة المرارة ولكنها مغلفة بطبقة سكرية تجعل ابتلاعها سهلاً.

أحب أن أقرأ للصديق الأستاذ عبدالعزيز السالم. وأسرع لأنصح القارئ أنه إذا أراد أن يقرأ لهذا الرجل أن يدخل غرفة مكتبه المنزلي - أو أي غرفة يستطيع أن يقفل بابها وراءه - لأن، عبدالعزيز له مزاج

(١) نشرت في جريدة البلاد في ٧ / ٩ / ١٤١٨هـ، الموافق: ٥ / ١ / ١٩٩٨م.

خاص للكتابة: فهو يكتب بانسجام كامل مع موضوعاته ولذة وتأن تستشعرهما وأنت تقرأ، بحيث يقف أمام كل كلمة يزنها ويصرفها قبل أن يضعها على الورق. وهو شديد الاهتمام بالتفاصيل الدقيقة، حتى إن القارئ - أو أنا على الأقل - أنظر حولي، فإذا لم يكن هناك أحد يراقبني - هل ذكرت أن باب المكتب يكون مقفلاً؟ - أقفز بضعة أسطر ثم أستأنف القراءة. أشعر وأنا أقرأ لأبي عصام أنني أتجول داخل حديقة تهبُّ بين أرجائها نسمات هواء خفيفة لا تكاد تحرك أوراق أشجارها، وبين فترة وأخرى أسمع تغريد عصفور لا أعرف نوعه أو أرى فراشة ملونة لا أعرف فصيلتها تطير بين زهور لا أعرف أنواعها أيضاً. إلا أنني أنتهي من القراءة وقد التهمت وجبة متوازنة من غذاء فكري أشعر بعدها بالرضى عن نفسي، وأسترخي ما بقي لي من وقت قبل أن يقتحم علي خلوتي أحفادي بعد أن يكونوا قد فقدوا صبرهم لطول احتجازهم بعيداً عن جدهم.

أصل الآن إلى الصديق الأستاذ عبدالرحمن السدحان الذي ألاحظ الآن أنه كثف نشاطاته الكتابية العمودية بعد أن سقط - مثل غيره وأنا منهم - ضحية لضغوط الصديق النشط الأستاذ قينان الغامدي رئيس تحرير جريدة البلاد الذي يبدو أنه يسعى جاهداً لاستقطاب كل من يستطيع أن يخط حرفاً يستكتبه لجريدته. فالأخ عبدالرحمن يكتب لجريدتيْ الجزيرة والبلاد. يكتب للبلاد عموداً كل يوم إثنين بعنوان (غصن زيتون) وهو تسمية لا يمكن إلا أن يكون صاحبها (حبيبنا) - كما اعتاد هو أن يدعوني - عبدالرحمن، الإنسان

الذي يلقاك دائماً مبتسماً ودائماً متفائلاً بحيث تعديك كلماته الرقيقة وأسلوبه السلس الأنيق، فتجد نفسك تلتهمها بسهولة ما بعدها سهولة، تنساب داخل كيانك وتدخل مباشرة إلى شرايينك دون أن تمر على المعدة. وتتمنى بعد أن تقرأها أنك أنت الذي كتبتها. ملاحظتي الوحيدة على عبدالرحمن أن غصنه الزيتوني يتخطى أحياناً تكوينه الطبيعي، فينقلب إلى زيت زيتون يتسلل بشفافيته ونقائه إلى داخلك، فلا تعي نفسك إلا وقد ابتلعته، ثم تبدأ تتساءل كيف استطاع هذا الأخ أن (يخمني) بكل هذه السهولة ويقنعني هكذا بوجهة نظره بينما هناك نقاط أختلف فيها معه؟ وتقرأ العمود مرة أخرى ومرة أخرى تكاد أيضاً (تتخم) لكنك تقف عند نقاط الخلاف وتشير إليها بشيء من الثقة. آه.. هذه لا أتفق فيها مع عبدالرحمن.. «ولكن الوقت يكون قد فات ولا تجد من تضع عليه اللوم إلا زيت الزيتون، أقصد غصن الزيتون».

لدينا طبعاً سيدات فاضلات أصبح لهن شأن في جولات الأقلام ولمعت أسماء بعضهن بكتابات أدبية ونقدية جريئة. لكنني أتردد في الكتابة عن أي منهن لسببين: الأول: هو أن كل الذين جاء ذكرهم من الكتَّاب هم إما أصدقاء أو أعرفهم وسوف يأخذون كلامي عندما لا يعجبهم على مجال الهذر غير الضار، والثاني: أن النساء عموماً يتميزن بشيء من الحساسية فيما يوجه إليهن من نقد، ولا ألومهن على ذلك أبداً؛ لأن المرأة قضت الخمس مئة ألف سنة الأخيرة خاضعه للرجل. وهناك أيضاً عامل آخر أجد من حق الكاتبات أن أطلعهن عليه، وهو أنني نادراً ما أقرأ كتابات لنساء. وأعترف بشيء

آخر أيضاً، وهو أنني عندما فكَّرت في الكتابة عن كتَّاب الأعمدة - وكانت الفكرة أصلاً محاضرة ألقيها في النادي الأدبي بالرياض بناء على دعوة الصديق الدكتور منصور الحازمي - أقول عندما بدأت الفكرة جمعت بعض قصاصات جرائد بها أعمدة لكتاب وكاتبات من جرائدنا المختلفة. إلا أنني عندما عدت إليها الآن بعد أن عزمت على الكتابة قرأت القصاصات التي كنت اخترتها وأعدت قراءتها ثانية وثالثة ولم أعرف السبب الذي جعلني أحتفظ بها، ولا أعلم إلى الآن ما هي النقاط البارزة فيها التي كانت قد أثارت اهتمامي وعزمت على الكتابة عنها. وياللأسف ■

محمد شكري [١]

١ - ٢

وقع في يدي منذ فترة قصيرة كتاب الأستاذ محمد شكري بجزأيه: (الخبز الحافي) و(الشطار). والكتاب سيرة ذاتية لرجل ولد في بيئة فقيرة بائسة لأب لم يكن يرغب في وجوده وأم مغلوبة على أمرها تعيش حياة الذل مع زوج قاس متسلط لا يعرف قلبه الرحمة، يعيش حياته ليومه يأكل ويسكر ويضرب زوجته وأبناءه بسبب ودون سبب، حتى إنه قتل واحداً من أولاده حسب ما يقص علينا ابنه صاحب السيرة.

الجزء الأول من السيرة (الخبز الحافي) يغطي السنوات من ١٩٣٥ إلى ١٩٥٦ ميلادية، والنسخة التي بين يدي هي الطبعة الثالثة ويرجع تاريخها إلى العام ١٩٩٣م. من خلال السيرة نعرف أن محمد شكري تعلم الكتابة والقراءة بعدما بلغ عمره عشرين سنة، ومثل باقي مراحل حياته فقد عانى أيضاً وكافح لكي يجد مكاناً يتعلم فيه أو أحداً يقبل أن يعلمه شيئاً. والسبب الذي جعلني أكتب عن سيرة محمد شكري هو لجوؤه كلية إلى منهج الأدب الواقعي. لا أعرف أحداً في العالم العربي قبل هذا الرجل كتب بتلك الصراحة والوضوح والواقعية، ولا أعرف أحداً قبله جرؤ على النزول إلى أعمق نفق في قاع المدينة وصور حاناتها وخماراتها وبغيها بالطريقة التي صورها هذا الكاتب.

(١) نشرت في جريدة البلاد في ١٤ / ٩ / ١٤١٨هـ، الموافق: ١٢ / ١ / ١٩٩٧م.

تحدث عن طفولته المعذبة وتشرده ومعاناة أمه وإخوته بأسلوب يجعل القارئ يشعر وكأنه يشاركه معايشته، فهو يمسك بيدنا ويقودنا ولا نملك إلا أن نترك له العنان يتجول بنا في أماكن الرذيلة وحانات تطوان ووهران وسبتة وطنجة، وكأنه يتجول في دهاليز منزل يعرف مداخله ومخارجه. إن هذا هو عالمه الذي ولد ونشأ فيه وتعاهد معه على الإخلاص والولاء. وجد فيه الأحضان الدافئة التي احتوته دون تحفظ. هناك في ذلك العالم وجد محمد نفسه، وهناك وجد أولاداً في مثل سنه لجؤوا هم أيضاً مثله إلى ذلك العالم السفلي الذي اتسع لهم جميعاً. شربوا معاً، وسرقوا معاً، واقترفوا الرذيلة معاً؛ وفي كل ذلك كان الكاتب يذكرنا أن التربة التي نشأ فيها لا يمكن إلا أن تنبت غرسة مثل تلك التي ازدهرت داخله وألجأته إلى أن يجيز لنفسه كل شيء وأي شيء ليبقى على قيد الحياة. كان يعود أحياناً إلى عائلته فيجد كل شيء على ما تركه إن لم يكن أسوأ. فقد ازدادت شراسة الأب وازدادت قسوته على الأم وأولادها الصغار الذين كانوا يأنون تحت وطأة عنف رجل لا يصحى من سكره إلا ليعود إليه ثانية.

والسؤال الذي يبرز في رأس كل من يقرأ كتاب محمد شكري هو: متى تنتفي صفة الأدب عن عمل ما ويصبح شيئاً آخر؟!

الذين قرؤوا هذا العمل أخذوا ولا شك بالصراحة والبساطة التي يسرد فيها المؤلف حياته التي تركزت حول الأزقة الضيقة في البلدان التي عاش بها والحانات والبغايا. يتكلم عن عالمه ذاك وكأنه يسرد

شيئاً عادياً لا يرتفع له حاجب قارئ، والحقيقة أنه برأي كاتب هذه المقالة لا يوجد سبب لارتفاع حاجب، إذ إن محمد شكري كتب عن عالمه ذاك ولكنه لم ينتصر له، عاشه ولكنه كان في كل كلمة يحذرنا من الوقوع في مثل تجربته. كانت كلماته تنزل على رؤوسنا وكأنها مطارق تحذرنا من الاقتراب من مسالك الرذيلة. كان يقول لنا: إن نشأته قذفت به إلى مواخير البلد، وكان في كل كلمة ينبه القارئ أن العالم الذي يحكي عنه عالم رذيلة وعلينا تجنبه. لجأ بكل قوته إلى الأسلوب الواقعي القاسي الذي يسمي الأشياء بأسمائها والتي تثير الغثيان لدى القارئ بدلاً من أن تثير شهوته الحسية؟! لم نتمن ولو لمرة واحدة أننا كنا في مكانه، عندما كان يتكلم عن النساء اللائي عاشرهن أو الأماكن التي ارتادها. كان يقول لنا إنه وجد نفسه في ذلك العالم؛ لأن قسوة الأب وخلو المنزل من الترابط العائلي كانا أشد أيلاماً عليه من حصير عار ينام فوقه وبجانبه عاهرة.

ومن خلال حديثه عن البغايا اللائي كان يعاشرهن كان محمد شكري لا ينسى أن يقص علينا حكاياتهن أيضاً. لم تكن حكايات عن جاه وعز وحياة مترفة، بل كانت قصصاً تفيض بمآس لا تقل عما قاساه هو، ولعل ذلك ما جعله يتوحد مع النساء اللائي كان يقابلهن. كان سرعان ما يجد نفسه متوحداً معهن عندما تحكي له واحدة منهن ظروفها التي يتأكد من صدقها بعد أن يقوم ببعض الاستقصاءات. وأكثر ما كان يؤلمه عندما يكون لدى واحدة من تلكم النساء طفل أو طفلة تحتاج إلى بعض العناية والرعاية، خاصة إذا حدث وكانت

الطفلة أو كان الطفل مريضاً عندها، لا يتردد محمد شكري بأن يقوم بدور الأب الراعي، يجلب الدواء وإن أمكنه يحضر الطبيب، بمعنى آخر يقوم بالدور المثالي للأب الذي حرم هو منه.

إن عنوان الجزء الأول من السيرة (الخبز الحافي) يصدمنا بمغزاه الفريد، حيث يصرخ مستغيثاً، إن أي انحدار أعمق مما وصل إليه معناه الموت والفناء. إن القارئ ينتهي من الجزء الأول من الكتاب ليس بإحساس من كان يتنزه في حديقة للعري ومشاهد جنسية يسيل لها اللعاب، بل إنه ليخرج من الأتون الذي قذفه الكاتب إلى داخله وقد تفصد جبينه عرقاً وهو يلهث وينظر حوله خشية أن يكون قد علق بأثوابه بعض القذى الذي غطى الطريق الذي قذفه إليه المؤلف ■.

محمد شكري [1]

٢ - ٢

كتب محمد شكري الجزء الثاني من سيرته (الشطار) بعد عشرين سنة من كتابة الجزء الأول، وقد نشر (الخبز الحافي) في طبعات إنجليزية وفرنسية قبل أن ينشر بالعربية بعشر سنوات، ثم بعد عشر سنوات أخرى كتب الجزء الثاني (الشطار). والقارئ يلاحظ بسهولة الفتى الطائش المتهور الذي لم يكن قد بلغ العشرين عاماً في الجزء الأول قد أصبح رجلاً ناضجاً واختفت عنه نزعة الطيش واللامبالاة اللاتي اتصف بهما في صباه. (الشطار) عنوان اختاره المؤلف ربما عن قصد، حيث يعيد إلى الأذهان حياة الصعاليك من العرب القدماء، وحيث يذكرنا أيضاً بفلسفة الشطارية التي نشأت في وقت ما بالهند، وكان روادها يتطلعون إلى تقديس (الأنا) أو النفس التي كانت في نظرهم هي القاعدة التي بني عليها العالم بأسره. ولا أظن أن محمد شكري قد ذهب مذهبهم عندما اختار الجزء الثاني من سيرته، ولكنه أراد - كما أظن - أن يعلن للقارئ أن الفتى الطائش الذي عاش حياة بوهيمية انغمس فيها بكل ما تقدمه قيعان المدينة، هذا الفتى نفسه هو الذي يطالعنا في (الشطار) رجلاً أصبح باستطاعته وبوعي كامل أن يحدثنا عن حياة القهر والمطحونين من

(١) نشرت في جريدة البلاد في ٢١ / ٩ / ١٤١٨هـ، الموافق: ١٩ / ١ / ١٩٩٨م.

أبناء بلده، وبمحاولته هو وباقي أبناء وطنه الخروج من حياة القهر والعبودية - على المستويين الشخصي والقومي - إلى حياة حرة كريمة. ولقد أعطانا في الجزء الأول من الكتاب إشارات إلى ما سوف يأتي مستقبلاً، إذ من بين الأوقات التي يخرج فيها الفتى من الحانات والمواخير كان يصور لنا صور القهر والإذلال اللذين يعاني منهما وطنه المحتل. فنحن هنا أمام شخصيتين رئيستين هما محمد شكري والمغرب، بلده التي كانت تعاني الاحتلال؛ وكلا الشخصيتين تكافح للحصول على حريتها. ومن أكثر أجزاء الكتاب تأثيراً منظر الشارع المغربي وقد امتلأ بالمدافعين عن حريتهم من المغاربة لا يبالون بالرصاص الذي يحصدهم دون تمييز.

عندما طلب صديق إنجليزي من محمد شكري أن يكتب قصة حياته أجاب بأنه كتبها فعلاً!.. وعلى الرغم من أنه لم يكن قد خط حرفاً واحداً منها إلا أنه كان صادقاً فيما قال. فالسيرة كانت مكتوبة في وجدانه ولم يكن عليه إلا أن يسجلها على الورق وكأنه يستمع إلى شريط مسجل. كانت السيرة تسجل ذاتياً مع حياته، وكان هو يتلقاها دون تدخل منه. إن قصة محمد شكري ملحمة ذات أبعاد إنسانية جريئة ـ وتأثيرها العميق يأتي من صراحتها التي تصفع القارئ عند كل منحنى، وصدقها الذي يظهر في كل سطر منها ■

صراعي مع النوم والطيران [1]

هناك في حياتي شيئان يجلبان لي الحيرة دائماً والتعاسة أحياناً، مع أن كلا الشيئين عاديان جداً ومن النعم الكبيرة التي أنعم الله بها على الإنسان. هذان الشيئان هما النوم والطيران. وقبل أن ترتفع حواجب القارئ استغراباً ويدخل في متاهة التخمين عن صلة النوم بالطيران أسرع فأقول: إنه لا صلة مباشرة بينهما، فأنا أتكلم عن صلة كل منهما بي. معروف أن النوم نعمة أنعم الله بها على عباده ﴿وَجَعَلْنَا نَوْمَكُمْ سُبَاتًا﴾ ويكفي أن الإنسان عندما يسلم نفسه لذلك العالم السري الغامض يهرب ولو مؤقتاً من مصائب العالم المستيقظ، أما الطيران فهو واحد من أهم الإنجازات الإنسانية، ولن أحاول أن أعدد مزاياه التي يعرفها الجميع.

أما ما الذي دفع بي إلى الكتابة عن النوم والطيران فهو أنني من القلائل في هذا العالم المليء بالبشر الذي يتعذب بسببهما. وتسألني كيف؟ ولعلك مخمن الجواب عن علاقتي بالأول وهو النوم؛ فأنا مصاب بالأرق الدائم!.. أصبت بهذا - ولا أدري ماذا أطلق على الأرق - الداء؟... عندما كنت في السنة النهائية من الدراسة الثانوية. لا أدري لماذا أصبح النوم يستعصي علي بينما ينام كل الزملاء الآخرين. كنا نحن طلبة المدينة المنورة ندرس للسنة التوجيهية بمكة المكرمة بمدرسة تحضير

(١) نشرت في جريدة البلاد في ٢٨ / ٩ / ١٤١٨هـ، الموافق: ٢٦ / ١ / ١٩٩٨م.

البعثات العريقة، وكان ذلك في عام ١٣٧٣هـ. مضت الأشهر الأولى من الدراسة على ما يرام، ثم فجأة صرت لا أنام. (كان ذلك طبعاً قبل أن يكتب إحسان عبدالقدوس روايته التي تحمل عنوان «لا أنام».

جربت كل السبل التي كانت متاحة لي، ولم تكن كثيرة في ذلك الوقت، دون جدوى. هربت من الغرفة التي تكدسنا بها ستة أشخاص، وكان منهم من يبقي (الأتريك) مضاء إلى وقت متأخر، هربت إلى سطح مبنى قلعة جبل هندي حيث كنا نسكن، لعلي أحظى بقليل من الهدوء بعيداً عن المجموعة، إلا أن بعض الزملاء ظنوا أنني وجدت الحل لأزمة الزحام في الغرفة فحذوا حذوي وأفسدوا عليَّ وحدتي!.. مشكلتي إلى يومنا هذا - أو بعد أن بلغت من العمر ما بلغت - أن عملية النوم لا تزال عندي لغزاً محيراً. كيف يدخل الإنسان إلى عالم النوم؟

هذا السؤال ما زال يلح علي ويحيرني بل ويعذبني عذاباً شديداً تقريباً كل يوم في حياتي.؟ لا أكاد أضع رأسي على المخدة إلا ويقفز السؤال اللعين إلى رأسي: كيف يأتي النوم إلى الإنسان؟ وأبقى متمدداً أنتظره ولا يأتي. لم أتعلم طوال سنوات عمري أن النوم يأتي دون انتظار. المشكلة أنني أعرف أن النوم يأتي إذا تجاهلته، إلا أنني أتجاهل كل شيء في الدنيا عندما آوي إلى فراشي ولا أفكر إلا في النوم.

وبعد، هل أحسد الأستاذ علي العمير أو أغبطه فقط على نوبات نوم التي تستمر أحياناً إلى ثلاثة أيام كما يقول ولا يصحو منها إلا ليتشاجر مع محرري جريدة عكاظ والمشرفين على التصحيح فيها

على ما يقترفون من أخطاء كثيرة في مقالاته المطبوعة ثم يعود مرة أخرى إلى نوبة جديدة من السبات العميق تستمر ثلاثة أيام أخرى وهكذا، والشيء الذي (يؤرقني) عندما لا أنام هو أنني أجد نفسي أكره كل أحد وكل شيء. وأسرع فأقول: إنني أحمد الله أن ذلك الشعور لا يلبث أن يتلاشى عندما يأتي الصباح حتى لو لم أنم، وإلا أصبحت كارثة. فأنا والحمدالله أحب الناس، وأحب عائلتي الصغيرة والكبيرة، ويشهد لي بذلك أصدقائي.

أما عذابي الآخر أو اللغز الآخر الذي استعصى علي أن أفك طلاسمه فهو مسألة الطيران. ما من مرة سافرت بطائرة إلا ووقفت ثواني على أعلى السلم الموصل للكابينة أنظر إلى هيكل الطائرة الضخم وأتعجب كيف يمكن لكل هذه الكتلة العملاقة من المعادن والحديد والتي شحنت عن آخرها بالناس والمتاع، كيف يمكن لها أن تطير!.. وأدخل في جوف الطائرة قاصداً مقعدي وأنا أتمتم بما أحفظه من آيات من القرآن الكريم والدعوات. ولا أكاد أجلس وتتحرك الطائرة حتى تتيبس كفاي على حافتي المقعد، ويتصلب جسمي، ويأخذ العرق يتصبب من جبهتي وأماكن أخرى من جسمي. وتطير الطائرة، وإذا كانت المسافة طويلة قد أستطيع أن أشغل نفسي بقراءة شيء إلا أنني فجأة أتذكر أنني في الطائرة فتصبح كلمات ما أقرأ خطوطاً مستقيمة لا معنى لها.

ذات مرة لاحظ جاري المسافر في المقعد المجاور الحالة التي كنت عليها، فحاول أن يسري عني بشرح بعض خصائص الطائرات، وكيف

صممت لتتحمل كذا وكذا، وإن الحوادث في عالم الطيران أقل بكثير من الحوادث التي تحصل على الأرض. وأجبته صادقاً أنني أعرف كل ما يقوله بل أكثر منه؛ لأنني أحاول دائماً أن أعرف كل ما يمكنني معرفته من أسرار الطيران، ولكنني أضفت قائلاً: «إلا أن كل الذي أعرفه يتلاشى فجأة عند أول اهتزاز لجسم الطائرة». وعلى كل فقد كان ذلك المسافر أكثر رأفة بي من ذلك الآخر الذي كان يجلس بجانبي في رحلة من جدة إلى الرياض، وحدث أن حصل شيء بسيط يخص الضغط، فاضطر الكابتن أن يطير على انخفاض أقل من المعتاد. كان كل شيء عادياً، بل لا أذكر رحلة كانت أهدأ من تلك الرحلة. إلا أن ذلك الأخ المعتل نفسياً استمر طوال الرحلة وهو يتحدث بلهجة الخبير بشؤون الطيران، أن الوضع خطير جداً، وأن أبسط شيء يمكن أن يحدث هو أن يفقد الطيار ومساعده توازنهما بسبب تغيير الضغط، لم أسأل وجه البوم عن الشيء الأسوأ من فقدان الطيار ومساعده توازنهما. ومكث يردد أن احتمال وصولنا سالمين إلى الرياض سوف لن يزيد على كذا في المئة. ولم أجد بداً مع تكرار هرائه الفارغ ذلك إلا أن أسكته محذراً إياه أن يفتح فمه بكلمة!.. الله لا يعيد وجه ذلك الغراب!..

هذه بعض أسراري أبوح بها لهذه الصفحة من الجريدة أرجو ممن يقرأها أن يحتفظ بها لنفسه؛ لأن الأسرار أمانة! ■

حصيلة الأفكار [1]

من المفروض أن أي واحد يتصدى لصنعة الأدب يعرف جيداً أنه لا بد وأن يتعرض للنقد، سواء أكان ذلك النقد مدحاً أم قدحاً. والنقد باللغة التي يفهمها مشتغلو الأدب هي إظهار حسنات عمل ما إن كانت موجودة وتبيان سيئاته إن كانت موجودة أيضاً. وعلى هذا لا يعد الناقد متدخلاً فيما لا يعنيه؛ لأن كل من يؤدي عملاً علنياً يهم الناس لا بد وأن يتقبل حكمهم على عمله، فإن أحسن امتدحوه وشكروه، وإن أساء بينوا له خطأه. وأنا عندما كتبت ما كتبت عن بعض كتاب الأعمدة عندنا لم آت ببدعة جديدة، ولم أخرج عن كوني ناقداً قرأت ما كتبوه وسجلت رأيي حوله، هكذا يفعل الناس في كل مكان، إلا أن الأخ عبدالله الجفري سامحه الله اعتبرني متدخلاً بما لا يعنيني ومتطاولاً عليه، وأنني نصبت من نفسي حكماً على أعماله.

والسؤال الآن هو: هل كانت كتاباتي عن الإخوة ونقدي لأعمالهم عملاً صحيحاً مشروعاً أم لا؟

لنفرض أن أياً منهم جمع مقالاته في كتاب وطبعها، هل في تلك الحالة يحتج على من ينقدها؟ إن ما فعلته لم يزد على ذلك، وأنا لا أكتب هذا اعتذاراً ولكن لأوضح فقط لمن ساءه عملي ورآه تدخلاً أو انتقاصاً في حقه أنه لم يكن كذلك. أنا رجل أقرأ ما أختار قراءته بشيء من

(١) نشرت في جريدة البلاد في ٥ / ١٠ / ١٤١٨هـ، الموافق: ٢ / ٢ / ١٩٩٨م.

التمعن والنقد في الوقت نفسه، والنتيجة أنه أصبحت لدي حصيلة من الأفكار كونتها عن الناس الذين قرأت لهم ووضعتها على الورق. لم أتعرض لأشخاصهم ذاتها؛ لأنني أعرف أصول وقواعد النقد الصحيح.

لقد أبرزت في معظم ما قلت حسنات كل واحد من الأخوة الكتاب، وإن كانت لي أية ملاحظات سلبية فقد سقتها على سبيل الهذر الذي يدغدغ ولا يؤلم.. والذي كان على أي حال العنصر الغالب على مقالتي. لكن الآخ عبدالله لم يعجبه ما قلت، فأطلق صيحة الحرب ضدي. لم تكن في الواقع صيحة حرب بالمعنى الصحيح الذي عرفناه عن أجدادنا العرب عندما كانوا يخوضون المعارك وينتصرون.

بل كانت من تلك التي نسمعها في مقاهي باب الشعرية بمصر، والتي لا تناسب المقام ولا المقال ولا حتى مطلقها، فهي عادة تصدر عن المعلمين الأشداء الذين يخضعون القهوة والحي كله لنفوذهم.

ولأن كل معلم من أولئك له صبيان ينتظرون دوماً إشارة المعركة فقد أطلق عبدالله صبيانه عليّ وجلس ينتظر أخبار هزيمتي. وكأننا نخوض حرباً معلنة. وهكذا تكون المساجلات الأدبية!.

ما أعرفه عن الأخ عبدالله أنه إنسان رقيق مثل كتاباته، ولم أتوقع منه أبداً أن يكون رد فعله - وهو الكاتب الذي يقول إنه حصل على جوائز عديدة - مقابلتي بذلك الهجوم، وهو لو فكر قليلاً لشكرني؛ لأنني أتحت له أن يذكّر الناس بكل الجوائز التي حصل عليها، وكل عام والجميع بخير ■

رسالة إلى رئيس البلدية[1]

خبراً قرأته في الصفحة الأخيرة من جريدة الاقتصادية الصادرة أمس الثلاثاء ١٧ رجب ١٤٢٣هـ. يقول الخبر: إنه تمت إحالة ٤ موظفين للقضاء ولفت نظر رئيس البلدية. والبلدية المعنية هي بلدية رابغ، والقضية أن طفلة تعرضت للصعق الكهربائي بسبب الإهمال الفاضح في الصيانة. ليس هذا فقط، فقد سبق أن صعق اثنان آخران وماتا قبل وفاة الطفلة. وكلها صعقاً بالكهرباء من جراء الأسلاك العارية الملقاة على قارعة الطريق: إنها بالاختصار مصيدة موت. ثم ماذا؟ يقول الخبر: إنه تم لفت نظر رئيس البلدية!! يا للعجب؛ تزهق ثلاثة أرواح ثم يكتفى بلفت نظر رئيس البلدية!! هل هانت أرواح الناس إلى هذا الحد؟! ثم كيف لفت نظر رئيس البلدية؟ هل أرسلَ له خطابٌ مؤدبٌ يخبره بما حصل في بلده؟

إن الموت قدر مكتوب لا يستطيع أحد الفرار منه، ولكننا أمرنا أن لا نرمي بأنفسنا إلى التهلكة. إن ما حدث في رابغ حسبما جاء في الاقتصادية جريمة بكل المعايير يجب أن يعاقب كل متسبب فيها. وأهيب هنا بصاحب السمو الملكي الأمير عبدالمجيد بن عبدالعزيز وهو الحريص على التصدي لمثل هذا العبث وهذا التسيب، وكذلك معالي وزير البلديات أن يتخذا كل الإجراءات المطلوبة والصارمة لعقاب المتسبب في الفواجع هذه؛ ليكون المعاقب عبرة لغيره. والله المستعان ■

---

(١) نشرت في جريدة عكاظ.

أدب القيادة[1]

وأعني به قيادة السيارة، أنا رجل أحب الرسوم المتحركة (الكرتون). ذلك شيء أقر به دونما إحراج، فمشاهدة أفلام الكرتون تسعدني وتريحيني علاوة على أن كثيراً منها يحكي للمشاهد درساً أو يعلمه حكمة. أذكر مرة أنني شاهدت واحداً من أفلام الكرتون هذه يصور رجلاً يعيش في منطقة راقية في بلد ما. كان الرجل دائماً مؤدباً لطيفاً رقيقاً يحيي جيرانه عندما يقابلهم ويداعب الأطفال ويساعد على حل مشاكلهم. لكن ذلك الرجل الرقيق نفسه ما إن يدخل سيارته ويجلس خلف المقود حتى ينقلب إلى ذئب. ولأن الفلم صور متحركة فالرجل ينقلب حقيقة لا مجازاً إلى ذئب بأذنين طويلتين عريضتين وأنياب حادة وعيون حمراء كبيرة مخيفة. وبدلاً من الكلام اللطيف الذي يخاطب به جيرانه وهو على قدميه يأخذ بعد أن يصبح ذئباً بنهرهم وشتمهم وتهديدهم. الحكمة وراء ذلك الفيلم الكرتوني هي: الإنسان العادي والجار الطيب ما إن يجد نفسه داخل سيارته إلا ويصبح مخلوقاً آخر.

ولم يأت ذلك التصور من فراغ؛ فالإنسان السوي ينسى نفسه وينسى طيبته ومجاملاته عندما يقود سيارة. لماذا يا ترى؟ لا أظن أنه يوجد جواب واحد محدد على هذا التحول. هناك تفسيرات عدة؛ قد يكون أولها أن مساحة السيارة عموماً صغيرة وضيقة يشعر فيها

(١) نشرت في جريدة عكاظ.

الإنسـان أنه شبـه مسـجون. وثانيـاً أننا عندمـا نقـود سـياراتنـا فنحن بالضرورة نقصد مكاناً ما نريد الوصول إليه، وأن أي عقبات تعترض طريقنا نرفضها وننظر إليها على أنها قصد بها منعنا من الوصول إلى غاياتنا. هناك أسباب كثيرة أخرى ولعل أهمها هو ذلك العامل النفسي الذي عـبـر عنه فيلم الكرتون والذي أعـتـبـره السـبب الرئيس وراء العدوانية الطارئة. فنحن عندما نقود سياراتنا وخاصة إذا كنا بمفردنا تتتابنا عوامل نفسية خفية لا نحس بها توحي لنا أننا أصبحنا فجأة أعلى درجة من باقي الناس، أو على الأقل أكثر أهمية مما كنا ونحن نسير على أقدامنا. ولأننا لا ندرك أن الآخرين الذي يقودون سياراتهم ينتابهم أيضاً الإحساس الخفي نفسه فنحن نشتاط غضباً ونجاهر بعدوانيتنا كل من (يعترض) طريقنا. وحيث إنه لا بد من اعتراض الطريق لأنه توجد سيارات أخرى غير سياراتنا تسير بالطرقات فبالتالي نلجأ إلى الصياح والشتائم وأحياناً التماسك بالأيدي؛ لأن أحداً منعنا - كما تخيلنا - من الوصول إلى المكان الذي نقصده.

كم مرة رأيت إنساناً منطلقاً بسيارته كسهم لا يراعي أبسط مبادئ السلامة، وتنظر إليه وهو يمرق بسرعة لتكتشف أنه ذلك الإنسان الرقيق المؤدب الذي صلى بجانبك منذ ساعة في مسجد الحي! ماذا دعاه وهو الذي يذوب رقة وأدباً، ولماذا تحوَّل هكذا إلى سهم آدمي بسيارته وكأن حياته نفسها تتوقف على تخطي كل سيارات البلد!...

أنا لا أشك أن الإنسان السعودي مهذب مجامل يعرف الأصول، ولا زال حتى الشباب يقدرون الكبار ويوقرونهم. ولكن إذا خطر لك

يومـاً أن تنصح شـاباً يقـود سـيـارته باسـتـهـتـار وبلا مـبـالاة فـأغلب الاحتمال أنه سـوف يشتمك أو على الأقل يطلب منك بصلف ووقاحة أن تمشـي في سـبـيلك ولا دخل لك به. ثم مـاذا يدور برأس السـائق الذي يرى امرأة وأطفالاً مثلاً يحاولون عبور الشارع فيسرع ليمنعهم من العبـور بدلاً من أن يقف لهم. الأمـثلة على فوضى القيادة كثيرة، ونحن نجتهد فقط في توخي أسبابها وقد نصيب أو نخطئ، ولكن يبقى شيء واحد قد يكون الأخذ به بداية العلاج، ألا وهو إدخال مادة دراسية في مدارسنا نطلق عليها: (فن وآداب قيادة السيارة)، هذا هو السبيل السهل المتاح، أما العلاج النفسي فيحتاج إلى مجهود أكبر ووقت أطول ودعوات مخلصة ■

التسوق عبر الشبابيك[1]

هناك تعبير باللغة الإنجليزية لو ترجم حرفياً لجاء: (التسوق عبر الشبابيك) (Window Shopping) ولكن إذا أردنا معناه فهو يعني الفرجة على واجهات المحلات التجارية دون شراء شيء. وهو كما ترى تسوق رخيص جداً، بل إنه مجاناً، فأنت تستطيع أن تتسوق كيفما تشاء إذا كان ذلك عبر التفرج على البضائع المعروضة وأنت في الشارع. ولا أظن أن في ذلك حرجاً؛ لأن مجرد السير في الأسواق والتمتع بمشاهدة الدكاكين والمحلات التجارية لا غبار عليه، ويندرج تحت المسموح به من التسلية. إلا أننا في معظم المدن لا تتوفر لنا هذه الميزة. والسبب الشوارع.

فعلى الرغم من كل ما تحقق لنا من تطور في مدننا، وعلى الرغم من كل الطرقات الحديثة السريعة منها وغير السريعة التي أصبحت تشق المدن، إلا أننا لم ندرس بعناية كل متطلبات الشوارع والأدوار التي تؤديها في حياة الناس. ربما فكرنا بشكل عام أن الطرق الحديثة وجدت لتسير عليها السيارات فقط. وهذا ليس صحيحاً تماماً، خاصة عندما نتذكر أن الشوارع هي شرايين المدينة تسير فوقها السيارات ويسير على جوانبها الناس. لا أحد ينكر طبعاً أن كثيراً من الشوارع الحديثة أخذ بالحسبان عند بنائها أن تكون لها أرصفة عريضة جميلة يسير عليها من يريد، ولكن ذلك ليس صحيحاً في كل الشوارع، خاصة تلك التي وجدت ووجد على جوانبها مبان قبل أن

(١) نشرت في جريدة عكاظ.

تعبَّد. فأنت ترى العجب في تلك الشوارع والطرقات. وأذكر مثلاً على ذلك شارع العروبة بالرياض، وشارع فلسطين في جدة، وطريق قباء بالمدينة المنورة. هذه الشوارع الثلاثة تعتبر من أهم وأكبر الشوارع التجارية في المدن الثلاثة. ولكن حاول أن تقوم برحلة تسوق حقيقي وليس شبابيكي – انظر المقدمة – وسترى أن كل محل أو دكان أمامه قطعة رصيف تختلف عن الذي قبله أو بعده. شارع العروبة بالرياض مثلاً بتنوع أرصفته وغرابة الأشكال التي تفتقت عنها أذهان أصحاب المحلات أو ملاك العمارات ورسموها أمام محلاتهم، يشبه لوحة سريالية رسمها سريالي مستعجل. فأنت ترى انخفاضاً هنا وانخفاضاً أشد هناك ثم ارتفاعاً ودرجات أعلى بعده، علاوة على تنوع المواد التي بنيت بها المساحات المذكورة، فمنها ما هو رخام ثمين، وبجانبه بلاط رخيص، وثالث من الإسمنت العاري غير المسلح وهكذا.

وشيء آخر طالما عجزت أن أجد له تفسيراً: وهو لماذا إذا كان هناك رصيف معقول تصر أمانة المدينة على غرس أشجارها في منتصف الرصيف تماماً فلا تترك على جانبي الشجرة فراغاً يكفي لسير إنسان عليه. ولا أدرى لماذا لم تزرع الأمانة أشجارها على طرف الرصيف وتترك الوسط للغرض الذي بني الرصيف من أجله.

إنني أدرك تماماً أننا عندما خضنا معارك البناء الأساسية التي كان من ضمن ثمارها اتساع مدننا وامتدادها حققنا والحمد لله نجاجاً أصبح نموذجاً يحتذى. ولكنني أشبه البنية الأساسية للمدن بمنزل شُيِّد هيكله فقط وبقي اكتمال أعمال التشطيب والديكور. ولقد

أدرك المسؤولون تلك الحقيقة، وكانت النتيجة ما أنجز من أعمال جمالية في مدننا تباهي أحسن ما هو موجود في أي بلد في العالم، وأعني بها منطقة وسط الرياض المحيطة بقصر الحكم، فهي بحق مما يفخر به، وكذلك بعض المناطق في مدينة جدة مثل كورنيشها المشهور. الذي أرجوه – ويتطلع إليه لا شك الكثيرون – هو أن تطال عمليات التجميل هذه أجزاء مدننا الأخرى.

لدي أخيراً اقتراح أرجو أن لا يضيق به أصحاب المحلات والمتاجر، وهو لماذا لا يبادر هؤلاء مجتمعين إلى تجميل شوارعهم كل حسب مقدرته، أو على الأقل إلى المساهمة في تكاليف تجميلها خاصة وهم المستفيدون الأوائل من إصلاحها عندما يصبح التسوق متعتين، هما التسوق الفعلي، وذلك المقتصر على الواجهات ■

المــرور

(١ - ٢)[1]

تنعي العائلة الفلانية فقيدها الشاب فلان الفلاني الذي وافاه الأجل إثر حادث مرور أليم.. آل فلان ينعون بمزيد الأسى ولدهم الشاب الذي راح ضحية حادث مرور..

كم من مرة طالعتنا، ولا تزال تطالعنا مثل هذه (الإعلانات) المفجعة والحزينة على صفحات جرائدنا، وكم من مرة فجعنا بصفة خاصة، عندما نقرأ اسماً لشاب نعرفه أو نعرف عائلته، وكم تألمنا ولازلنا نتألم من هذا الذي يحدث في بلدنا دون أن يبدو له في الأفق القريب أو البعيد مؤشر على انخفاضه؟

قرأت منذ مدة قريبة في جريدة عكاظ في غرة شهر رجب ١٤١٨هـ خبراً أخذته الجريدة عن أشخاص آخرين يصابون بحوادث مرورية متفاوتة كل ساعتين!!.. هل يعقل هذا؟ هل نحن نخوض حرباً غير معلنة ونقاتل عدواً شرساً يتربض بنا الدوائر؟ يبدو أن الإجابة نعم.

إن ما يحدث عندنا لهو أشد فتكاً بالأرواح من أشرس حرب. وما يزيد الوضع حزناً أن شباباً تزهق أرواحهم هدراً ودون أي مبرر. ليتهم على الأقل قدموا حياتهم في سبيل أي هدف نبيل يؤدون فيه خدمة لبلادهم أو حتى لأنفسهم. لكن لا هذا ولا ذاك. إنهم يموتون غالباً؛

(١) نشرت في جريدة عكاظ.

لأنهم في لحظة معينة اختاروا أن يلغوا عقولهم، ويلغوا معها وجودهم كله. إنهم في معظم الحالات شباب باعوا أنفسهم في لحظة طيش دون ثمن. لم يفكروا على الأقل بأم ثكلى يتركوها وراءهم، ولا بأب مكلوم يتجرع غصة الفجيعة ما عاش. إنهم أناس عميت أبصارهم وبصائرهم فاستهتروا بقيم السلوك السوي، وضربوا بعرض الحائط بالتقاليد الموروثة التي تحثّ على التأدّب وعلى الأخلاق الفاضلة. وقد يتساءل البعض عن العلاقة بين التأدب وقيادة السيارات، والجواب أن قيادة السيارات ليست إلا مظهراً من مظاهر السلوك الاجتماعي. ولا أظنني أبالغ إذا قلت: إن المرء يتستطيع في أيامنا هذه أن يحكم على مدى تحضر شعب ما وسلوكه من قيادته للسيارة التي أصبحت جزءاً من شخصية المجتمعات المختلفة.

لقد كُتب وقيل الكثير عن مآسي المرور عندنا وخاصة في الأيام الأخيرة بعد انعقاد مؤتمر المرور الذي رعاه صاحب السمو الملكي الأمير نايف بن عبدالعزيز وزير الداخلية. ومن الصعب عليّ الآن أن آتي بجديد حول الموضوع، وكل الذي أطمح إليه هو أن أساهم على الأقل بآهة ألم أضمها إلى كل آهات الذين تألموا ويتألمون لفقد عزيز راح في لحظة غاب فيها العقل. ولكن لأن الآهات لا تعالج مشكلة عويصة مثل مشكلة المرور في هذه البلاد فإنني أود هنا أن أتقدم ببعض الأفكار حول مشاكل المرور أرفعها بكل تواضع إلى صاحب السمو الملكي الأمير نايف بن عبدالعزيز؛ لعله يجد فيها ما يستحق الدراسة:

❖ دراسة أنظمة المرور في البلاد المشهود لها بالوعي المروري وبقلة الحوادث.

❖ إنشاء جيل جديد من رجال المرور في المملكة من الشباب المثقف خريجي الجامعات والمشهود لهم بالاتزان والاستقامة، على أن لا ننسى الجانب الجسماني؛ لأن العقل السليم في الجسم السليم؛ ولأن رجل المرور الذي يأمل أن يقوم بمهمته على أكمل وجه يجب أن يكون أقوى جسدياً من أي أحمق يجعل من الشوارع ميادين لاستهتاره. وما علينا إلا أن نتذكر رجال المرور العمالقة الذين نراهم في أوروبا وأمريكا الذين يجعلون السائق يفكر ألف مرة قبل أن يقترف مخالفة مرورية. إذا تم اختيار مثل أولئك الشباب تكون الخطوة التالية هي ابتعاثهم إلى أحسن المعاهد والكليات التي تدرس أنظمة المرور ومشاكله.

❖ يوضع نظام مروري جديد شامل يشترك في وضعه أناس من ذوي الاختصاص والخبرة.

❖ إعداد كتيبات إرشادية عن قواعد المرور وأنظمتها، ولا ينال الشخص رخصة قيادة إلا بعد أن ينجح في اجتيازها. إضافة طبعاً إلى اجتياز الاختبار في القيادة العملية.

❖ والبند الذي يتوقف نجاح كل البنود السابقة على تطبيقه وهو: تطبيق النظام على الجميع حرفياً دون أي تمييز بين إنسان وآخر؛ لأن القضية هنا ليست أمراً يحدث دون أن يلتفت أحد إليه، بل هي مسألة حياة أو موت حرفياً.

ولقد كانت هناك محاولات كثيرة طبعاً للحد من كوارث المرور، منها على سبيل المثال: تكليف بعض عقلاء الناس القيام بمراقبة مخالفات السائقين والتبليغ عنها، وكنت واحداً من أولئك الذين اختيروا لذلك، إلا أن التجربة للأسف لم تأت بالنتائج التي توقعتها إدارة المرور. ولا يتسع المجال لأحكي ما حدث لي شخصياً عندما كنت أحياناً أتبع سيارة مخالفة أو أنصح شاباً بمراعاة قواعد السير. وعلى أي حال لقد اتضح بعد التجربة أنها لم تكن ناجحة؛ مما جعل سمو وزير الداخلية يأمر بإلغائها. ولا شك أن تلك التجربة أثبتت أن النصح والإرشاد والكلام الرقيق لا ينفع للأسف مع بعض الناس، وأنه لا بد وأن تطبق العقوبات الرادعة التي ترغم السائق على التقيد بالنظام المروري مثلما يفعل عندما يقود سيارة خارج بلده ■

المرور
(٢ - ٢)[١]

بعض الكُتَّاب عندنا وخاصة منهم بعض محرري الصحف - ولا أقول جميعهم - يميلون في كتاباتهم ومقالاتهم وتقاريرهم الصحفية إلى استخدام كلمات يعتبرونها مؤثرة وهي فعلاً كذلك. وهي أيضاً ذات رنين جميل ورقيق ورومانسية إلخ. ولا غبار على استخدامها في مجالات التشبيه. إلا أن المشكلة هي أن أولئك الكتاب والمحررين ينسون شيئاً فشيئاً الاسم الحقيقي للشيء الذي يتحدثون عنه، ويحلون اسم التشبيه محله. فهم عندما يتحدثون مثلاً عن فتاة صغيرة يكنونها بالزهرة، ثم شيئاً فشيئاً تصبح الفتاة زهرة ويختفي لفظ الفتاة. راحت الزهرة، وجاءت الزهرة، ومرضت الزهرة. يهملون الاسم الحقيقي لدرجة أنك تعتقد أنهم يتكلمون عن زهرة حقيقية وليس مجازاً لفتاة. وإذا كان الحديث عن طفل فلأنه مذكر، ولا يمكن إطلاق اسم الوردة أو الزهرة عليه فإنه يصبح (برعماً). البرعم يقف بالشارع بين السيارات، البرعم يسير إلى المدرسة على قدميه على الرغم من برودة الجو.. وهكذا.

وعلى هذا المنوال نقرأ أن فلاناً يرقد على (السرير الأبيض). لا أذكر أنني قرأت في جريدة أو مجلة من صحفنا أن فلاناً مرض

(١) نشرت في جريدة عكاظ.

وأدخل المستشفى للعلاج، بل دائماً أقرأ أنه على السرير الأبيض، ومهما طال الحديث عنه إذا كان شخصاً مهماً فلا نقرأ أبداً أنه في المستشفى للعلاج بل هو دائماً على السرير الأبيض. أسأل نفسي أحياناً ماذا لو كان لون السرير غير أبيض، ماذا سيقول التقرير أو الخبر؟ هل يقول مثلاً إن فلاناً يرقد على السرير الكحلي أو الرمادي؟ أعرف طبعاً أن أناساً سوف ينبرون للدفاع عن التعبيرات التي أشير إليها وهذا متوقع ومقبول، وأعرف أيضاً أن التشبيه والمجاز من محسنات اللغة العربية، ولكن أن يلغي كلية الاسم أو الصفة الحقيقية للشيء نفسه يصبح سخفاً ما بعده سخف، وخاصة عندما لا يتحقق الكاتب جيداً مما يقول، مثل ذلك الذي رأى (برعماً) يقف عند إشارة مرور منتهزاً فرصة وقوف السيارات عندها ليبيع شيئاً أو ربما ليشحذ. وأغلب ظني أن هذا البرعم إنما هو برعم أجنبي دخيل جاء مع أمه (غصون) إلى هذه البلاد بطريقة غير قانونية، وأنها أرسلته هو وأخته (الزهرة) ليتسولا قرب إشارات المرور.

ولكن كل شيء يهون إلا حكاية (العروس). فأنا لا أكاد أذكر متى قرأت في صحفنا أن جدة اسمها فعلاً جدة وليس العروس. يمسك أحدهم القلم ويرص كل الكلمات التي يعرفها عن الجمال والسحر بحيث يقصر عن وصفه كل ما قيل في أوصاف الأميرة الراحلة ديانا عندما زفت إلى ولي عهد بريطانيا. ولو اختار القارئ أن يبدأ قراءته من منتصف المادة المكتوبة مثلاً لاعتقد فعلاً أن الكاتب يتحدث عن عروسة جميلة ليلة عرسها وليس عن مدينة. نحن لا نمانع أبداً بأن

توصف جدة بالعروس، بل نحن نريدها كذلك، ولكن أن تنقلب إلى عروس فعلاً فهذا أسلوب غير معقول في الكتابة، ويعطي عكس النتيجة المرجوة. ثم إن جدة وخاصة الآن وفي السنين الأخيرة إذا كانت عروساً فعلاً فهي تتمتع بكمية ضئيلة متواضعة من صفات العروس. لقد اكتسبت بعض صفات الفتاة الحسناء واستحقت اللقب عندما كان المهندس الدكتور محمد سعيد فارسي فارسها. أما بعد الفارسي فقد مرت على «العروس» سنين عجاف أصبحت خلالها عجوزاً شمطاء في كثير من «ملامحها». والأمل الآن بعد توفيق الله هو أن يعيد الأمين الجديد «للعروس» الدكتور نزيه نصيف، جمالها الحقيقي وليس مجرد أصباغ لا تلبث أن تزول بعد أول زخة مطر■

سر في حياتي[١]

عناية الأخ الدكتور/ هاشم عبده هاشم سلمه الله

كنا مجموعة من الأصدقاء مدعوين على غداء عند صديق لنا، وكان بين الحاضرين الأخ الصديق د. هاشم عبده هاشم رئيس تحرير جريدة عكاظ. وجرى الحديث بالحاضرين هنا وهناك إلى أن حكى أحدهم قصة ذكرتني بحادثة مشابهة وقعت لي، وأنا أقول حادثة لأنني لا أريد أن أطلق عليها سراً، وهو ما يفترض أن ينشر في هذا الباب. ولا أريد أن أناقش الدكتور هاشم حول تسمية الباب «سر في حياتي» لأنني لا أود هنا أن أقدم تعريفاً للسر، فهو شيء لا يحتاج إلى تعريف. ولكنني أقول: إنه ربما لو كشفنا أسرارنا بالحديث عنها بالصحف لما كانت أسراراً أو لما بقيت أسراراً.

علي أي حال أرجو أن يكون من قد شرع في قراءة ما أنا بصدد كتابته - وأقول أرجو - أن لا يكون ملَّ من المقدمة، وأنتقل إلى باب آخر في الجريدة قبل أن يصل إلى فحوى «السر» الذي سأحكيه.

كان ذلك منذ عدد من السنين كانت ابنتي يومها لا تزال في المدرسة الابتدائية، وقبيل نهاية العام الدراسي أرادت أن تدعو زميلاتها إلى المنزل؛ ليحتفلن معاً بقرب نهاية الدراسة وتعب المذاكرة

(١) نشرت في جريدة عكاظ.

ويقضين وقتاً سعيداً مرحاً هن خير من يعرفن كيف يقضينه عندما يكن مجتمعات.

وجاءتني ابنتي عندما حددت مع زميلاتها اليوم والساعة. واجتمع مجلس العائلة - أمها وهي وأنا واستبعدنا ابني نزاراً من الاجتماع؛ لأنه لم يكن قد وصل السن التي تؤهله للمشاركة في اجتماع هام مثل هذا. وقررنا ما سوف ينبغي تحضيره وإعداده. والحقيقة أن دوري في حضور الاجتماع اقتصر على الشيء ذاته الذي يجعل من هذه الحكاية كلها مبرراً لتدخل ضمن هذا الباب الجديد في عكاظ.

فقد عُهد إليّ أن أقوم بإعداد خريطة توضح طريق الوصول إلى منزلنا. فعندما قالت صغيرتي: إن زميلاتها لا يعرفن المنزل شعرت بالثقة والأهمية إذ سوف أساهم بشيء مهم وهو إعداد الخريطة، خاصة وأن مدرس الجغرافيا بالمدينة المنورة يرحمه الله كان يمتدح رسمي للخرائط، وهذه حقيقة وليست من النوع الذي يقوله كل أب لابنه!!

شمرت عن ساعد الجد - كما يقولون - وجئت بالأدوات اللازمة ورسمت خريطة شعرت أنها أعادت لي بعض أمجادي القديمة، ولم أنس أن أذيلها بملاحظة، أنه يمكن الاحتفاظ بها لمناسبات قادمة. وطبعت منها العدد الكافي لتوزيعه على التلميذات. وأخذت ابنتي النسخ إلى المدرسة وهي بها سعيدة ووزعتها على زميلاتها.

وجاء اليوم الموعود وقد تم الإعداد للقاء وطفلتنا لا تسعها الدنيا، فهي في قمة السعادة، وبعد قليل ستشارك فرحتها زميلاتها، وجاء

الوقت ولم يصل أحـد، قلنا: إن الـوقت لا زال مـبكراً - وانـتظرنـا ولم يصل أحد. وخـرجت إلـى الباب أتطلع في الشـارع يميناً وشـمالاً ولكن لم تتوقف أي من السيارات المارة أمام دارنا.

دلفت إلى داخل المنزل وأنا أتحـاشى النـظر إلى عـيون ابنـتي التي بدأت علامات القنوط تغطي وجهها.

وللمـرة العـاشـرة أسـألهـا إن كـانت قـد قـامت بتـوزيع الـرسم التخطيطي الذي أعددته، وللمرة الحادية عشرة تؤكد أنها وزعته على كل واحدة من المدعوات. وامتد الوقت وطال ولم يصل أحد. ولم تعد الصـغيرة تحـتمل أكثر من ذلك، فانخـرطت في بكاء حزين تتخلله همهمات وتمتمات لم أفهم منها شيئاً.

ووقفت أنا وأمها نتبادل النظرات وعرفت دون حاجة للكلام ما يدور بعقل زوجتي فقلت على الفور:

الخريطة صح مئة في المئة. ورن جرس التليفون فأخذته زوجتي وردت باقتضاب بشيء لم أسمعه وتوالى رنين التليفون وكل مرة أسمع زوجتي ترد بشيء مثل: أبداً مكان البيت واضح وحتى دون خرائط، أو: خيرها بغيرها وهكذا، عندها فقط أدركت ما حدث. لم يستطع أي من أولياء أمور الفتيات الوصول إلى منزلي باتباع الرسم التوضيحي الذي أعددته. واضطروا بعد السير الطويل والتخبط بالطرقات أن يعودوا إلى منازلهم وأصوات البكاء والعويل من صغيراتهم تتجاوب مع بكاء ابنتي وخيبة أملها.

كان هناك مستفيد وحيد من ذلك الموقف الحزين، ذلكم هو نزار الذي انتهز فرصة خلو المائدة من أي أحد فأخذ يمتع نفسه بما أعد للصغيرات من أطايب، ولم تضيّع أخته أيضاً وقتاً طويلاً فيما لا طائل تحته فانضمت إليه ولم تمض دقائق حتى تعالت ضحكاتهما وكأن شيئاً لم يكن.

هناك إضافة أخيرة لهذه الحكاية، وهي أنه بعد أن أكل نزار وشرب ما طاب له، جاء يعاتبني ولكن بشيء من شماتة. قال: إنه لو كان سُمح له بحضور الاجتماع العائلي لدلني على طريقة تجعل أي شخص يصل إلى بيتنا بسهولة ولو كان مغمض العينين. ولكن ما هي الطريقة التي اقترحها نزار؟ إن هذا ما سوف أبقيه سراً ولن أبوح به ■

ليست (مزايدة) لكنه بكاء العاجزين[1]

قرأت للأخ عبدالله أبو السمح عموداً له في جريدة عكاظ تحت عنوان (المزايدون) ينحي فيه باللائمة على الكتَّاب والمعلقين العرب الذين بدوا له وكأنهم في دفاعهم عن الشعب العراقي ضد الهجمة الاستعمارية الجديدة التي يتعرض له القطر الشقيق، إنما يدافعون عن الرئيس العراقي وبطانته المتربعة على كراسي الحكم طيلة العقود الثلاثة الماضية. ولقد سال قلم الأخ أبو السمح سلساً سهلاً يصف الفظائع التي ارتكبها صدام حسين ضد شعبه وجيرانه، ويصور جبروته وتخبطه ومهاراته الفائقة في جعل العراق والعراقيين أفقر البلاد العربية وأفقر العرب - بهذا الترتيب.

لقد اشتهر عن عبدالله أبو السمح أنه - ومنذ أن كنا طلاباً في مدرسة تحضير البعثات - في أية مناقشة في الفصل ومهما كان موضوعها، أنه ينتظر إلى أن يدلي كل منا بدلوه ثم يأتي هو في النهاية بقول يخالف فيه الجميع. ولا أقول أن هذا اتجاه غير صحي أو غير مطلوب في النقاشات العادية، وأنها لا تثير حمية النقاش وصراع الآراء، إن ميل عبدالله أبو السمح هذا إلى تنكب طريق الأغلبية قاده في حياته فيما بعد إلى التطرق لموضوعات اتسمت بالجرأة والصراحة التي قد يحجم بعض الكتاب عن الخوض فيها،

(١) نشرت في جريدة البلاد في ١ / ٢ / ١٤٢٤هـ.

وقد كنت ولا أزال أبحث عن مقالة أبو السمح في جريدة عكاظ. والناس عادة يتقبلون اختلاف الرأي في موضوعات تعالج شؤوناً داخلية وتتصدى لمشاكل اجتماعية تمس حياة الناس فيما بينهم، لكن هناك مبادئ ومسلَّمات تقوم عليها كياناتنا كأمة عربية مسلمة لا نستطيع أن نعبث بها، ومنها مثلاً أن نرى شعباً من لحمنا ودمنا يباد على أيدي غزاة غربيين ثم ندعي أن كل ذلك يهون إذا كان الثمن هو رأس صدام حسين.

من المؤسف حقيقة أن يسمي أبو السمح الكتَّاب والمعلقين الذين لا يملكون أكثر من أقلامهم يعبرون بها عن حزنهم وأسفهم للمأساة التي يتعرض لها شعب عربي شقيق، أقول من المؤسف أن يسميهم أبو السمح (مزايدون) يتهمهم بأنهم يكادون يدافعون عن صدام حسين وزبانيته. لا أحد يزايد على مساندة نظام صدام حسين، بل معظم أولئك يبكون العجز العربي والذل العربي اللذين شاء حظنا البائس - نحن أبناء هذا الزمن الصعب - أن نعيشه ونقاسي فيه ذل الانكسار والهوان على الآخرين، لا أحد يزايد، ولكننا كلنا نبكي كالنساء؛ نبكي بغداد والعراق، ونذرف الدمع السخين على إخوان لنا يبادون أمام أعيننا بينما نحن فقدنا كل إحساس بالغيرة وكأن ما يجري أمامنا على شاشات التلفزيونات ليس أكثر من فلم السهرة نشاهده ثم نخلد للنوم لا يشغلنا شاغل. إن أقل ما يمكن أن نعمله هو أن نبكي - وهذا من أضعف الإيمان - على رجال ونساء وأطفال أبرياء وعائلات تباد في غمضة عين بصاروخ أطلقه رجل أو امرأة ليس بينه وبين أولئك البؤساء أدنى معرفة، دعك من عداوة. هل استمع أبو السمح إلى ذلك

الصبي الذي اختلط كلامه ببكائه وهو يحكي لنا كيف اندلعت مصارين أخته الصغيرة من جوفها على أثر سقوط صاروخ - ربما عن قصد - على سوق شعبي في وضح النهار؟ وهل استمع الأخ عبدالله إلى السيد رامسفيلد وهو بوجهه الكالح يهدد سوريا وإيران بمصير العراق نفسه، أو وهو يحتج على معاملة الأسرى الأمريكيين الذين وقعوا في أيدي العراقيين وأنهم كيف يجب أن يعاملوهم كأسرى حسب اتفاقية جنيف؟ لقد نسي رامسفيلد سجناء جوانتانامو الذين يرسفون في الأغلال وقد وضعوا في أقفاص كأنهم حيوانات متوحشة دون محاكمة ودون أن يثبت على أي منهم أي جرم. ثم هل تساءلنا عن من هو العدو الذي يطلقه الجنود الأمريكيون والإنجليز ومراسلو قنواتهم الفضائية على أهل العراق عموماً؟ وهل اعتدى أحد من العراقيين على أحد من أولئك الغزاة الذين جاؤوا لمحاربة العراقيين واحتلال بلدهم؟

يعرف الأخ أبو السمح ونعرف نحن ويعرف الجميع أن صدام حسين زعيم عصابة بدرجة رئيس جمهورية، وأنه مع عصابته أذاقوا الشعب العراقي الويلات والذل، وجلبوا لهم المصائب في حروب غبية استنزفت ثروات البلاد، وجاءت بالخراب والدمار على أهل العراق، ولكن من طلب من بوش وتابعه بلير التطوع لإنقاذ العراقيين؟ قد يقول قائل: إن الطلب جاء من جماعات المعارضة العراقية المنتشرين في أوروبا وأمريكا. لكن حتى لو سلّمنا جدلاً أن هذا صحيح، ألم يكن الأجدر بالولايات المتحدة أن تسلح أولئك المعارضين وتساعدهم على تنظيم صفوفهم، ثم إن كانوا جادين يذهبون هم وينقذون أهلهم وبلدهم من براثن صدام.

ولكن السؤال الأهم هو: هل يعتقد عاقل أن أمريكا أو إنجلترا تقبل أن تفقد جندياً واحداً من جنودها لأجل سواد عيون العراقيين أو غير العراقيين؟ إن ما يحصل في العراق وما قد يتبعه في دول عربية أخرى هو استعمار جديد بعد أن خلعت أمريكا وحلفاؤها الغربيون برقع الحياء وكشروا عن أنيابهم. إنهم وراء ثروة العراق، ووراء تحطيم قوة العراق وتطوره النسبي بين الدول العربية. كان العراق هو البلد العربي الوحيد المرشح لو تسنى له حاكم عاقل وإدارة واعية للتصدي لعدوان إسرائيل واستهتارها بالدول العربية. ولا أخالني إلا وهناك عرس شامل في الدولة اليهودية هذه الأيام، وليذهب العراق وأهله والعرب جميعاً إلى الجحيم.

إن كل الشعوب تدافع عن أوطانها في حالة تعرضها لغزو خارجي بغض النظر عن من يحكمها، ولا أظن أن بديهية كهذه تفوت على الأخ أبو السمح، وإلا ما معنى أن كل العراقيين الموجودين مثلاً في الأردن وبدلاً من أن يلجؤوا إلى الخيام التي أعدتها الحكومة الأردنية طلبوا شاحنات يعودون بها إلى بلادهم ليدافعوا عنها ضد الغزاة! لا تجد عاقلاً يبكي على صدام وزمرته، لكننا نبكي جميعاً الشعب العراقي، ونبكي بغداد والبصرة والموصل وكل المدن وقرى العراق التي تدكها طائرات وصواريخ الغزاة، ونبكي الأبرياء من أبناء الشعب العراقي الذين تحصدهم نار الصواريخ وبنادق الغزاة، وتباد جموعهم في إخراج تلفزيوني على الهواء مباشرة ■

الماء: آخر أسباب الصراع بين الشعوب(١)

يعيش اليوم فوق كوكب الأرض ستة بلايين إنسان، وكل هذه البلايين زائداً آلاف الملايين من المخلوقات الحيّة الأخرى بحاجة إلى الماء؛ لتبقى على قيد الحياة. ﴿وَجَعَلْنَا مِنَ الْمَاءِ كُلَّ شَيْءٍ حَيٍّ﴾ «صدق الله العظيم». لا بد من الماء للحياة، فهو أساسها كما أخبرنا ربنا سبحانه وتعالى في كتابه المبين. إن الماء يغطي حوالي ٧١٪ من الكرة الأرضية، ولكن ٣٪ فقط من تلك الكمية مياه عذبة، وواحد في المئة من هذه الثلاثة يصل إلى جميع المخلوقات التي تعيش فوق هذا الكوكب - وبطبيعة الحال فإن هناك دائماً فئة من البشر أقل حظاً من غيرها، ومن ثم فهي لا تجد سبيلاً إلى الوصول إلى المياه الصالحة للشرب. فحسب الإحصاءات التي قامت بها هيئات مختصة فإن حوالي ألف مليون إنسان لا يصلون إلى مياه نظيفة، كما أن ألفين وأربع مئة مليون يشربون مياهاً ملوثة، والأكثر مأساوية أنه في كل سنة يموت حوالي ثلاثة ملايين ونصف المليون إنسان من العطش!!.

على ماذا تدل كل هذه الحقائق؟

أولاً: إن الماء هو عصب الحياة، وهو أهم من أي شيء آخر - أهم من البترول مثلاً؛ لأن العلم الحديث قد يستطيع تطوير بديل للبترول - ولو أننا لا نتمنى أن يحدث ذلك قبل أن نكون مستعدين له -.

---

(١) نشرت في جريدة عكاظ.

وثانياً: إن الحروب القادمة بين الأمم سيكون سببها الاقتتال على المياه.

لقد خلق الله تعالى هذا الكوكب ووزع فيه الأنهار ومصادر المياه بحيث تكون في معظم بقاع الأرض حتى ما نسميه صحراوات؛ فنجد فيها عيوناً وواحات ومياهاً جوفية. ولكن العالم الآن أخذ يتطور ويتقدم بسرعة مذهلة، ويزداد الطلب على الماء شراسة بين الأمم. وقد بدأت المشاحنات تظهر بين الدول المشتركة في مياه واحدة مصدرها أنهار أو بحيرات، وبدأت تظهر السدود والاستعمال الجائر للمياه من الجانب الأقوى الذي تتطلبه الصناعات الحديثة، وبدأت هذه الدول القوية تستأثر بمصادر المياه وتأخذ أكثر من حصتها، وبدأنا نسمع عن مشاريع تحويل مجاري الأنهار لجعلها تسير وتصب في غير ما يسره الله لها في بداية خلقها.

أتيت بهذه المقدمة لأدلل ليس على أن الماء أساس لكل شيء حي، فهذا يعرفه كل الناس، ولكن لأقول إن هذا العنصر الأساسي والحيوي يجب أن ينال النصيب الأوفى من تخطيط وتفكير وإعداد ودراسة وعمل كل من بيده المقدرة والسلطة على ذلك - كما يجب أن ينال كل الاهتمام به وصيانته والحفاظ عليه ووضعه في أوليات الاهتمامات لكل الباقين منا. إن هدر نقطة ماء واحدة في غير مكانها ودون حاجة لها يجب أن تحسب من قبيل اقتراف الذنب - ولا أشك في كونه ذنباً -

إذ نهى الله تعالى عن الإسراف في الأكل والشرب، وقال تعالى: ﴿وكلوا واشربوا ولا تسرفوا﴾.

إن بلادنا صحراوية قد خلت من الأنهار الجارية والبحيرات العذبة، وما كان في بعض مناطقها من عيون جارية وينابيع قد جف معظمه من سوء الاستعمال ومن التصحر الذي يغزو مناطق كثيرة من العالم اليوم للأسف الشديد. لقد مرت فترة قصيرة جداً في عمر الشعوب حيث هجمنا هجمة شرسة على مخزون صحارينا من المياه الجوفية التي تجمعت على مدى ملايين السنين، ولم نحصل في المقابل على ثمن يساوي قيمة المياه المهدورة. وكل الذي علينا أن نعمله الآن هو أن نحافظ على ما تبقى في جوف أرضنا من مياه كما نحافظ على حياتنا؛ لأن وجود الماء مسألة حياة أو موت.

وقد سعدت كما سعد كل الناس بإنشاء وزارة للمياه التي هي بحق أشد ما نكون حاجة إليها، وخاصة في بلد مثل بلدنا، نحن والحمد لله لدينا الإمكانات المادية التي استخدمناها في بناء محطات تحلية، بحيث أصبحنا أكبر بلد ينتج ماء محلى، ولكن أن نبقى فقط مستهلكين لا يكفي. إنني أقترح على الوزارة الناشئة أن يكون على رأس أولوياتها البحث عن المصادر الجوفية للمياه في كل ركن من أركان بلادنا الواسعة، ودراسة المياه الجوفية دراسة وافية جيدة لمعرفة نوعيتها، ثم حفر آبار في المناطق المختلفة التي تتوفر فيها المياه وإقفالها وحراستها لتكون جاهزة للاستعمال عند حدوث أي طارئ يعطل أي محطة تحلية في أي مكان في المملكة لا سمح

الله. كما أقترح أن تكون لدى الوزارة الجديدة مجموعة من الشباب السعوديين يدربون على جميع مراحل عمليات التحلية - ولا أدري كم هي نسبة السعودة الآن - لأن مثل هذا المرفق الحيوي لا بد وأن يكون كل شخص فيه سعودياً أباً عن جد. وقد أطمع إلى أكثر من هذا من الوزارة الجديدة؛ فأطلب أن تبدأ بالتدريج مثلاً في بناء مراكز - ولا أقول مصانع - ملحقة بمحطات التحلية تنتج على الأقل بعض قطع غيار المعدات والآلات المستخدمة في عمليات التنقية، وعلى أن تتطور هذه المراكز تدريجياً، ومع مرور الزمن يصبح بمقدورها أن تصبح مصانع مستقلة تنتج أجهزة التحلية. وأرجو أن لا يبتسم أحدكم استخفافاً باقتراحي هذا.. فمسيرة الألف ميل تبدأ بخطوة. ولم يعد صعباً إنشاء المصانع بعد أن أصبح التنافس بين معظم دول العالم على أشده في إنتاج كل ما يخطر وما لا يخطر على البال. وأرجو أن يصحح معلوماتي أو اقتراحاتي هذه من يستطيع ذلك من ذوي الشأن القائمين على شؤون التحلية إن كان شيء مما اقترحته موجوداً فعلاً. هناك شيء آخر وليس أخيراً أود أن أذكره وهو أن حملات التوعية التي قامت بها وزارة الزراعة والمياه في السابق لم تكن ذات فعالية ملموسة بل كانت ضعيفة متخاذلة وكأنها لم تكن هي نفسها تؤمن بجدواها. أو لعل الأصح أن نقول: إن الحملة لم تصاحبها متابعة ومراقبة ولو على الأقل مدة الحملة لرؤية مدى تجاوب الناس معها. وهنا لا بد وأن أذكر أيضاً أن معظمنا لا يأبه بما يسمع من توصيات وإرشادات تعمل من أجل مصلحة المواطن. وليس من المستغرب أن

يهمل بعض الناس لأسابيع وأشهر إصلاح حنفيات معطوبة تسرب المياه ليلاً ونهاراً. وفي رأيي أن السبيل الوحيد لعلاج مثل هذا الأمر هو أن يجبر المتسبب على دفع كل قرش ذهب ماؤه هدراً. وفي كل زمان ومكان وفي كل العصور لا يردع معظم الناس إلا القوانين الصارمة التي تنفذ ضد مرتكبي الأخطاء الموجبة للعقاب ■

الأمية الثانية [1]

وهي أمية التقنية. وأتكلم هنا عن أميتي أنا - وهي أمية حقيقية للأسف وليست ادعاء ولا مبالغة. أما لماذا أكتب موضوعاً كهذا وأكشف جهلي للخلائق؟ فالجواب: أن كل من يقرأ هذا الموضوع سيشعر بشيء من السرور ورضا النفس. السبب؟ أن الناس كلهم ينقسمون إلى فئتين: واحدة مثلي لا تعرف شيئاً عن الكومبيوتر والتقنية المتعلقة بهذا الجهاز العجيب، والثانية تعرف.

فالفئة الأولى سوف تشعر بالرضا؛ لأنها ستجد أن هناك أناساً مثلها عجزوا عن الدخول في عالم الألكترونيات عموماً، والثانية ستشعر بالرضا عن نفسها؛ لأنها نجحت فيما فشل فيه الآخرون.

عندما تخرجنا من الجامعة حمدنا الله تعالى على العلم الذي وفقنا إليه، والذي استوعبنا منه ما استطعنا، ولو أننا اكتشفنا بعد ذلك - يعني بعد التخرج من الجامعة - أن ما حصلنا عليه من العلم ليس إلا نقطة في بحر. وليت المسألة توقفت أو اكتفت بهذا، بل وجدنا ونحن ماضون في تثقيف أنفسنا على الطريقة التقليدية الموروثة أن هناك قادماً جديداً مندفعاً بقوة وثقه إلى دنيا الناس، مهدداً بإزاحة ما نشأنا عليه من موروثات. ذلك هو التقنية الحديثة،

(١) نشرت في جريدة الجزيرة في ١٥ / ٤ / ١٤٢١هـ، الموافق: ١٧ / ٧ / ٢٠٠٠م.

وبالأخص الكومبيوتر وما تبعه بعد ذلك من الدخول في عالم الإنترنت وشبكات المعلومات الرهيبة التي تجتاح العالم اليوم وتطلع علينا كل ساعة بجديدها؛ مما يعصف بعقول أمثالي ممن وقف بهم الطريق عند الكلمة المكتوبة فوق الورق.

سمعت بكلمة (كومبيوتر) لأول مرة عندما كنت في جامعة ليدز في إنجلترا وكان ذلك عام ١٩٦٠م، جاء المحاضر ليتكلم عن اختراع جديد اسمه الكومبيوتر، ويتنبأ بالثورة العلمية التي سيحدثها هذا القادم الجديد. كنت والأخ الدكتور عزت خطاب في الفصل نفسه، ولم يكن أي منا قد سمع قبلاً بهذا المخترَع الجديد. وتجرأ عزت وسأل المحاضر عن معنى كلمة كومبيوتر. لم أعد أذكر إن كان الدكتور أبدى استغراباً على جهل عزت وجهلي أنا باختراع باهر مثل الكومبيوتر، وإن كان شعر بداخله بالاستغراب فهو لم يتفوه به. على كل حال لم يتورع ذلك الدكتور من إبداء استغرابه عندما واجه لأول مرة طالبين عربيين سعوديين خريجي قسم اللغة الإنجليزية من جامعة القاهرة ولكن دون أن يكونا قادرين على الإتيان بجملة إنجليزيه واحده صحيحة عندما يطلب منهما ذلك. وهذا ما كناه فعلاً عزت وأنا، وأرجو أن لا يغضب مني عزت فهو الآن الأستاذ المرموق في الأدب الإنجليزي في جامعة الملك سعود. حتى أنا أصبحت لدي القدرة فيما بعد على التحدث والكتابة باللغة الإنجليزية.

المهم شرح الأستاذ الأنجليزي ما هو الكومبيوتر. والذي أذكره أنني لم أفهم حينئذ شيئاً على الإطلاق من شرحه، ولا أزال

- ويالـلأسف والحزن العميقين - لا أفهم عن الكومبيوتر شيئاً بالمرة. ولا أقـول هذا ادعـاء أو مـبـاهـاة - خـاصـة وأنه لا مـبـاهـاة في جـهـل - ولكن هناك حقيقة عداء مستحكم بيني وبين هذا الجهاز الساحر. أنظر له في وجل وخوف ولا أحاول أن ألمسه. حتى بعد أن أقنعني أولادي بشراء جهاز واشتريته فعلاً وجلس على مكتبي أشهر دون أن أفتحه. وكيف يمكنني أن أتعرض لجهاز جاء ومعه خمسة أو ستة كتيبات تحوي التعليمات الأولية فقط!. من أين أبدأ؟ وإلى أين أتجه؟ وجاؤوني بشخص قالوا إن بإمكانه أن يعلمني أسرار الكومبيوتر بجلسة واحدة، - وحاول المسكين أن يقول شيئاً ولكن عندما رأى منظري الذي سيطر عليه الخوف والبؤس استخار وغادر دون رجعة. وربض الكومبيوتر لأسابيع وأشهر فوق مكتبي وأنا لا أقوى فعلاً حتى على فتحه. كنت أنظر له وينتابني الخوف، إلى أن طلبت من ابني نزار أن يزيحه من المكتب.

لا أدري سبب هذه العداوة القائمة بيني وبين وسائل التقنية الحديثة، فأنا بالنسبة لها أمي من الطراز الأول. مازال يسعدني أن أمسك الكتاب التقليدي الذي توطدت أواصر الصداقة بيني وبينه منذ أن وعيت - ولا أزال أكتب بالطريقة التي تعلمتها في البداية. حتى عندما أهداني معالي الدكتور عبدالعزيز الخويطر مشكوراً جهازاً صغيراً من تلك التي تسجل فيها أرقام التلفونات، وهي خفيفة سهلة الاستعمال، لا تحتاج عند طلب الرقم المطلوب إلا أن تضغط زراً بالحرف الأول من الاسم فيظهر الاسم والرقم المطلوبين. وقد استخدمت سلطتي على أبنائي في برمجة المفكرة الإلكترونية إياها.

لكنني وبعد أن أتوني بها مبرمجة جاهزة وضعتها على مكتبي ولم أفتحها ولو مرة واحدة، وبالأحرى لم أحملها معي. وفي الغالب الأعم سوف يكون مصيرها مصير الكومبيوتر نفسه، وستبقى عديمة الفائدة لأي واحد آخر بعد أن مُلئت بأرقام تلفونات لا تخص غيري. وأرجو ممن وصل بقراءة هذه المقالة إلى هذا الحد أن لا يبلِّغ الدكتور عبدالعزيز الخويطر بمصير هديته لي ■

راتب التقاعد لموظفي الدولة [1]

أطرق اليوم موضوعاً ليس بجديد، فقد تطرق إليه وكتب عنه الكثيرون، كما ناقشته لجنة مختصة في مجلس الشورى - ذلك هو راتب التقاعد لموظفي الدولة. وبدهي أن يكتب عن أمر حيوي مثل مرتب التقاعد الكثيرون؛ لأنه بعد العمل بل الصراع الطويل مع الوظيفة وأجوائها الرسمية والروتينية - نتنبه فجأة إلى أن النهاية - وأعني بها نهاية العمل الوظيفي على الأقل - قد قربت. عندها يبدأ التفكير في التقاعد وما بعد التقاعد، التفكير بما سيحل بالمتقاعد وعائلته أو ما بقي من عائلته تحت جناحه وفي حماه. وهناك في الواقع أكثر من جانب لمشكلة رواتب المتقاعدين. يمكن لنا أن نبدأ برواتب تلك الفئة من المتقاعدين الذين تركوا الخدمة العامة عندما كانت المرتبات متواضعة والذين ما يزالوا يعيشون بين ظهرانينا. إن بعض مرتبات أولئك المتقاعدين لا تتجاوز الألفين أو الثلاثة آلاف ريال. لقد أدى أولئك الناس واجب خدمة بلادهم وكانت مرتباتهم الأساسية أصلاً بسيطة، ولا يلام أحد على ذلك؛ لأن مستوى المعيشة والتضخم ومتطلبات الحياة كلها تغيرت اليوم عما كانت عليه بالأمس. ولكن اللوم هو أن يترك مثل أولئك الناس أو من بقي منهم أو ممن يعولونهم شرعاً حياً، أن يتركوا يعانون من الفاقة والعوز.

---

(١) نشرت في جريدة الجزيرة في ٢٩ / ٣ / ١٤٢١هـ، الموافق: ١ / ٧ / ١٩٩٧م.

ثم هناك الفئة الأخرى وهم الذين تقاعدوا أو يتقاعدون بعد أن أصبحت الرواتب على ما هي عليه الآن. فهؤلاء حسب النظام يحصلون على مئة في المئة من مرتباتهم التي كانوا يتقاضونها قبل تقاعدهم في حال إكمالهم مدة الخدمة المقررة. لكن المشكلة التي من أجلها تصديت أصلاً للكتابة في الموضوع كله هي أن الرجل عندما يحال للتقاعد يكون على الأغلب قد تخطى سن الستين، وهو السن الذي يحلو فيه وبعده الخلود إلى الدعة والسكينة والقراءة ومشاهدة التلفزيون، وقبل ذلك كله وبعده الشعور بالاطمئنان والأمان من العوز وغوائل الأيام. وليس فقط الاطمئنان والأمان على نفسه ولنفسه بل لمن يعولهم أيضاً. الأعمار طبعاً بيد الله تعالى، والموت نهاية كل حي، والمتقاعد الذي يحصل على كل مرتبه أو معظمه ويعيل أهل بيته - هذا المتقاعد عندما يتوفى حسبما أعرفه - وأرجو من يعرف أنني مخطئ أن يصحح ما أقول - تقيم مصلحة معاشات التقاعد من نفسها وريثاً على راتبه، بمعنى ما إن يتوفى صاحب المعاش حتى يتوقف صرف راتبه عدا ما يحق لأرملته منه. وحيث إن من المفترض أن يكون أولاد وبنات المتوفى أو معظمهم قد خرجوا عن رعايته ففي أغلب الأحيان تكون زوجته - التي أصبحت بوفاته أرملة - تكون هي الوحيدة التي يحق لها الحصول على جزء من مرتبه التقاعدي. وما أعرفه أن ما تحصل عليه الأرملة هو جزء يسير من معاش التقاعد، حيث تحسب النسبة طبقاً لحقها الشرعي من إرث زوجها. وهكذا قد تجد هذه المرأة نفسها فجأة تنحدر من مستوى معيشي تعودت عليه طيلة حياتها مع زوجها إلى مستوى قد لا تتوفر لها فيه حتى ضرورات

الحياة الكريمة في أواخر عمرها. والسؤال هنا: هل راتب التقاعد الذي اكتسبه الموظف بعمله والذي كان يقتطع أصلاً من رواتبه طيلة حياته الوظيفية - هل هذا الراتب حقاً له أم هو صدقة مثلاً تعطى له ثم تسحب منه عندما يتوفى، بغض النظر عمن يكون يستحق الراتب ممن تركهم المتوفى من أرملة أو أولاد قُصَّر؟ وما هي مسوغات مصلحة المعاشات والتقاعد بقطع الجزء الأكبر من معاش المتقاعد بعد وفاة صاحبه؟ وإذا افترضنا أن ما يُقتطع من رواتب الموظف طيلة حياته الوظيفية لا يصل إلى مستوى أن يُصرف راتبُه التقاعدي كاملاً بعد فاته إلى ذويه - ألا يحق لنا أن نتساءل أن ما يُقتطع من رواتب الموظفين يعمل وينمو في مشروعات مصلحة المعاشات والتقاعد مما يمكنها من استمرار صرف رواتب المتقاعدين المتوفين كاملة لذويهم وخاصة لأراملهم ولمن يرثونهم شرعاً - ولو لمدد تحدد بعد دراسة متأنية واعية بحيث تحفظ لأسر المتقاعدين حقوقهم وكرامتهم دون أن يكون ذلك منّة أو صدقة.

ولا يجب أن نفترض أن أرملة وورثة موظف الحكومة المتقاعد يستطيعون بسهولة أن يستغنوا عن راتب عائلهم التقاعدي؛ ففي أغلب الأحوال يكون ذلك الراتب هو كل ما يملكونه في دنياهم، وهذا لسوء حظهم، إذ إن عائلهم الذي كان لم يكن في مهارة بعض الآخرين الذين خططوا جيداً لمستقبلهم ووضعوا القرش مع القرش وتمكنوا في النهاية - من مرتباتهم فقط - أن يمتلكوا القصور والضياع، وأن يشيدوا المراكز التجارية والشركات في الداخل والخارج، وأن يجوبوا بحار العالم ومنتجعاته الحالمة بيخوتهم الفارهة. وكل ذلك من مرتباتهم، لأنهم عرفوا كيف يتعاملون مع الوظيفة! ■

الزائرة الثقيلة (١)

من أجمل وألطف قصائد أبي الطيب المتنبي تلك التي يقول فيها:

وزائرتي كأن بها حياء
فليس تزور إلا في الظلام
بسطت لها المطارف والحشايا
فعافتها وباتت في عظامي

فهو هنا طبعاً يقصد الأنفلونزا، ولا أدري ماذا كان اسمها في أيام المتنبي. وبيتا الشعر هذان هما من بقايا ما كنا نحفظ من أبيات شعر وقصائد عندما كنا في المدارس، وعندما كان التعليم تعليماً بحق، وعندما كنا ونحن صبياناً نكتب بلغة راقية وأسلوب سليم قد لا يجيدهما الآن خريج الجامعة. ولا أقول هذا من قبيل التباهي ولكنها الحقيقة التي يوافقني عليها أبناء جيلي ومعظم من أتى بعدنا من أجيال. وفي الواقع إنني أنا شخصياً لم أطور أسلوبي ولم أعمل على الرقي بقدراتي الكتابية - هذا إن وجدت -؛ وذلك لأسباب عديدة، منها أن ما أشاهده اليوم من كتابات تصيبني بالإحباط، وعلى قدر ما أحاول أن أفهمها إلا أنني أبوء بالفشل الذريع وأرتد منكمشاً على نفسي أندب حظي الذي قصَّر بي عن اللحاق بركب الحداثة أو كما يسمونها. السبب الآخر لعدم تطور أسلوب كتابتي هو أنني أخذت بعد الدراسة الثانوية - كما يعرف معظم الذين سيقرؤون هذه المقالة لأنني أعرف أن من يقرأ لي معظمهم من أصدقائي وهم يفعلونها من باب المجاملة - أو من قبيل حقوق الصداقة؛ لأنني أنا

(١) نشرت في جريدة الجزيرة في ٢٩ / ٤ / ١٤٢١هـ، الموافق: ٣١ / ٧ / ٢٠٠٠م.

نفسي في معظم الأحيان أقرأ لأناس أعتبر معظمهم أصدقاء كي أتمكن من أن أهاتفهم وأناقش معهم ما كتبوا.

كنت أقول: إنني عندما التحقت بقسم اللغة الإنجليزية أصبحت - حتى بعد تخرجي في ذلك القسم وعمل بعض الدراسات العليا - أصبحت مثل الغراب الذي قيل في المثل إنه حاول تقليد الحمامة في مشيتها فلم يفلح ثم أراد أن يعود إلى مشيته الأصلية فلم ينجح أيضاً. لا أنا أتقنت الكتابة بالإنجليزية ولا استطعت أن أطور أسلوباً راقياً خاصاً بي بلغتي الأم - ويالأسفي.

المهم ماذا كنت أقول - ولماذا بدأت هذه البداية. آه نعم أريد أن أتكلم عن الأنفلونزا التي غزت المتنبي واستقرت داخل عظامه. لا أدري ماذا كان شكل أنفلونزا المتنبي وكم كانت تقسو على ضحاياها. من شكوى الشاعر ندرك أنها تمكنت منه واحتلت جسمه وعبثت به. إلا أنني لا أشك للحظة واحدة أن الشيخ المتنبي لو جرب الأنفلونزا التي تهاجمنا هذه الأيام لكانت استغاثته على شكل آهات وونات وتأوهات تخرج من أعماق الصدر وليس على شكل أبيات شعرية. لقد طور هذا الوباء اللعين نفسه حيث يأتينا كل يوم على شكل جديد وبفيروسات شرسة مكشرة عن أنيابها تنهش أجهزتنا التنفسية وتنفذ منها إلى ما هو أكثر وأشمل من الأجهزة التنفسية. تصاب بهذه الزائرة الثقيلة فما إن تدخل جسمك وتتغلغل في أعصابك وتجري في عروقك الدموية حتى تحس وكأن مئة عملاق جبار قد انهالوا عليك بهراوات يدقون بها الجسم الضحية ليل نهار دون كلل أو ملل،

وتستنجد بالدكتور وبنصيحة الأصدقاء وتجرب كل دواء متاح. وتخضع طبعاً مجبراً إلى تناول كل أنواع الأدوية الشعبية وغير الشعبية التي تأتيك بها زوجتك والتي لا تجرؤ على رفضها؛ لأن الزوجة لا تقبل (لا) لأوامرها. شربت من الأدوية والتركيبات التي أتت لي بها أم نزار بناء على نصيحة من خالة أو عمة أو أخت ما يثير غثياني حتى وأنا أكتب عنها الآن. لكن كما قلت لم يكن لي خيار الرفض. ومع كل ما سبق تسمع أخيراً من يخبرك أن الفيروسة جديدة، أو هي قد كيفت نفسها بحيث لم يعد ينفع معها إلا أن تستنجد بها أن تتركك وشأنك. ولكن هيهات.

كنا نعرف أن شدة أيام الأنفلونزا ثلاثة أيام، أما الآن فقد امتدت حتى وصلت إلى عشرة أيام ونصف شهر، وإن آثار الإرهاق والتعب منها أصبحت تزيد على ذلك.

لكن دعوني أقول أخيراً: لماذا أخذت هذا الموضوع المزعج مادة لمقالة هذا الأسبوع. السبب أنه بعد أن قاسيت أشد القسوة من أشرس أنفلونزا احتلت جسمي لأكثر من أسبوعين كاملين تركتني أخيراً بعد أن سلبت مني جوهرتين عزيزتين من الجواهر التي أودعها الله تعالى فينا والتي نأخذها كقضية مسلمة يضعها الله تعالى في أجسامنا مع غيرها من نعمه على الإنسان عندما يولد. هاتان الجوهرتان هما حاستي الشم والتذوق. غادرتني الأنفلونزا الغادرة لكنها تركت بصمات شديدة الوطأة وشديدة العذاب علي. لم أعد أشم ولم أعد أتذوق الطعام. ولا أحتاج لأن أقول كم هي هذه الحواس هامة وحيوية وأساسية لحياة طبيعية. أستيقظ كل يوم وأسرع إلى قزازة

الكولونيا أو أي عطر آخر - وقبل أن أتناول الطعام أحاول أن أشم رائحة ما أفضله منه - ولكن يأبى الأنف ويأبى اللسان وجهاز التذوق أن يعملا. لقد سلبتني الأنفلونزا هاتين الحاستين وأنا حزين جداً لفقدهما - لكنني لم ولن أفقد أملي بالله تعالى أن يعود فينعم علي بواسع فضله الذي لا نحصيه ولو جهدنا. ولقد عاد إلي بعض الأمل في الشفاء إن شاء الله بعد أن راجعت بعض الأطباء في مستشفى الملك فيصل التخصصي بجدة - وأخص بالذكر الدكتور الشاب سعد المحياوي الذي راجعته مرتين، وفي كلتا المرتين طمأنني أن مثل حالتي هذه ليست نادرة الحدوث، وأن الحاستين المفقودتين سوف تعودان وإن بعد بعض الوقت. لقد أعاد إلي الدكتور سعد بلباقته واهتمامه ونبرات صوته الواثقة - وكذلك الدواء الذي وصفه لي - أعاد إلي الأمل بأن ما أخذته الأنفلونزا مني ظلماً وعدواناً سوف بإذن الله أسترده لو بعد حين.

ولكن إلى كتابة هذه الكلمات لازلت آمل أن أستيقظ يوماً لأجد أنني أشم عطري المفضل - أو لعله لا يوجد لدي عطر مفضل - ولكن أشم أي عطر أو أية رائحة جميلة، وأتذوق الأكلات التي تعرف أم نزار أنني أفضلها والتي أصبحت تضعها أمامي الآن بشيء من الحذر القلق وهي تنظر إلي من طرف خفي لترى رد فعلي. وإلى الآن وزوجتي الغالية صامته فهي تنظر إلى وجهي ولا تسأل أسئلتها المعتادة التي اعتادت أن تسألنيها عن مدى لذة الطعام وإعجابي به حتى قبل أن أبدأ بمضغ أول لقمة ■

الواسطة [1]

لقد كتب الكتَّابُ وتكلم المتكلمون وناظر المنظرون حول الواسطة. اختلفت الآراء وتباينت وتضاربت وجهات النظر عن هذه الظاهرة أو الداء كما قد يطلق عليها بعض المتشددين. ولتعريف الواسطة نقول: هي طلب العون والمساعدة في إنجاز شيء يقوم به إنسان ذو نفوذ لدى من بيده قرار العون والمساعدة على تحقيق المطلوب لإنسان لا يستطيع أن يحقق مطلوبه بجهوده الذاتية. وفي الحقيقة لابد لمن يتصدى لمعالجة موضوع كهذا - يحمل أكثر من معنى وأكثر من تفسير - أن يحدد بالضبط ماذا يعني له أولاً كي يستطيع أن يضع وجهة نظره للآخرين. وقد بينت في جملة سابقة تفسيري للواسطة - ولكنني أدرك أن مفهوم الكلمة يحمل من الدلالات والمعاني والتداعيات أكثر من تعريف واحد محدد. وفي رأيى أنه من السهولة بمكان أن دلالاتها المرفوضة تتعدى إلى أن تصيب أهدافها الطيبة برذاذها. حقاً لقد اكتسبت كلمة الواسطة سمعة سيئة بسبب سوء استخدامها. وسمعتها السيئة أتت من مفهوم قد يكون مبالغاً فيه، وهو أن من يسعون لطلب العون من الآخرين على تحقيق هدف أو أداء خدمة هم على سبيل الإطلاق لا يستحقون العون والمساعدة، وأنهم يحصلون على شيء غيرهم أحق به منهم. فإذا كانت الحالة هكذا فلا شك تصبح

(١) نشرت في جريدة الجزيرة في ٢٢ / ٤ / ١٤٢١هـ.

الواسطة عملاً سيئاً، وعلى المجتمع الواعي أن يرفضه ويحاربه. ولا شك أيضاً أن من يسعى للحصول على كسب أو منصب أو ميزات معينة لإنسان لا يستحقها إنما يقترف ذنباً؛ لأنه بهذا يحرم منها من هو أحق بها. من ناحية أخرى تصبح الواسطة واجباً اجتماعياً إنسانياً وعملاً فاضلاً إذا استخدمت في طرقها الشرعية. وما هي هذه الطرق الشرعية؟ هي مساعدة كل محتاج للوصول إلى هدف مشروع من حقه أن يحصل عليه، لكنه لا يملك الوسائل التي توصله إليه. قد يعترض معترض على هذا التعريف من منطلق أن مساعدة من هذا النوع لا تدخل في نطاق الواسطة، بل هي مجرد مساعدة لمن هو محتاج إليها ولا يستطيع الحصول عليها. وردي أنها تدخل قطعاً ضمن المعاني الكثيرة للواسطة، وهي بهذا تدخل ضمن الجائز منها.

كيف تستطيع مثلاً أن ترد إنساناً يستنجد بك لإدخال عزيز عليه مريض إلى إحدى المستشفيات المتخصصة؟ وكيف ترفض طلباً لامرأة سعودية اختفى زوجها الأجنبي وتركها مع أولادها منه وقد أعياها السعي للحصول على الأوراق والوثائق اللازمة لإدخال أبنائها إلى المدارس وغيرها مما تتطلبه هموم المعيشة؟ بل كيف ترد امرأة سعودية هجرها زوجها السعودي وتخلى عن أبنائه وتركهم يخوضون معترك الحياة دون سند لهم، والأم وأبناؤها يحتاجون إلى ألف نوع ونوع من متطلبات الحياة التي لا يعرفون ولا يستطيعون دون مساعدة خارجية تحقيقها؟ ثم كيف يستطيع صاحب أي قلب ينبض بحس إنساني كيف يستطيع أن يصم أذنيه ويتجاهل عشرات بل ومئات الطلبات من شبان

وشابات يسعون ويسعين إلى إيجاد فرصة عمل بعد أن أنهوا دراساتهم الجامعية وفرحوا وفرح أهلوهم بالشهادة التي تعبوا للحصول عليها؟ أليس جائزاً ومشروعاً أن يتوسط من يستطيع الواسطة لهؤلاء الشباب للحصول على عمل؟ أعرف شباباً مضى على تخرجهم من الجامعات والكليات سنين ولم يجدوا أعمالاً بعد. وكم يؤلمني أن أسمع شكاواهم وذويهم ولا قدرة لي على مساعدتهم. يمكننا أن نعدد حالات كثيرة مثل هذه والكل يعرفها، وأكثر من يعرفها هم الأناس الطيبون أصحاب القلوب الرحيمة الذين يطيرون فرحاً وسعادة عندما يساعدون الناس على قضاء حاجاتهم. هناك فئة من الناس جعل الله في أفئدتهم كماً كبيراً من الرحمة والشفقة بحيث لا تراهم في أوج سعادتهم ولا تراهم تملأ الابتسامة وجوههم إلا عندما يقضون للناس المحتاجين حاجاتهم على أي شكل كانت. قال صلى الله عليه وسلم: «**من فرَّج عن مؤمن كربة من كرب الدنيا فرَّج الله عنه كربة من كرب يوم يوم القيامة**». أو كما جاء في الحديث.

ولا أريد هنا كما ذكرت آنفاً أن أخلط بين المساعدة المشروعة والواسطة؛ فالمساعدة قد تكون من الإنسان ذاته إلى صاحب حاجة، ولكن الواسطة كما نعرف كلنا هي أن تسعى لدى الآخر لمساعدة صاحب حاجة؛ وطبعاً كلها في النهاية تسعى إلى الهدف نفسه. وكما أن من يساعد غيره للحصول على شيء لا يستحقه يأثم فإنه من الناحية الآخرى من يساعد إنساناً في الحصول على ما يحتاجه أو ما هو حق طبيعي له يثاب؛ فالشخص الذي يملك القرار والذي بيده

مفتاح الحل لمشكلة ما أو المساعدة في أمر ما - هذا الشخص لا يمكن أن يطلع على جميع مشاكل الناس، ولا يمكن معرفة ما قد يعاني منه بعضهم تحت ظروف خاصة معينة، ولا ما قد يطرأ على حياة الأفراد من ظروف تقلب حياتهم فجأة رأساً على عقب. ولا نتوقع من المسؤول مثلاً مهما كبر مركزه وقويت سلطته - لا نتوقع منه أن يكون مطلعاً على كل شيء أو أن يعرف كل شيء؛ لأن هذا فوق طاقة القدرة البشرية؛ ولهذا فإن إيصال هموم الناس ومشاكلهم إلى من بيده التخفيف من آلامهم هو من الأعمال المطلوبة التي يؤجر فاعلها كما يؤجر الذي يحل للناس مشاكلهم ويساعدهم على التعامل مع ظروف حياتهم. ولمثل هذا نسمع في نهايات خطب الجمع من أئمة المساجد الفضلاء بعد أن يدعوا بالتوفيق والسداد للحاكم أن يرزقه الله البطانة الصالحة التي تدله على الخير وتعينه عليه. ولا أتمنى أكثر من أن يقرأ مقالتي هذه بعض ذوي السلطة والنفوذ الذين أودع الله في أعماق قلوبهم الرحمة وحب الخير والإسراع إلى مساعدة المحتاجين، أتمنى أن يقرأ هؤلاء مقالتي هذه حتى إذا أتيتهم متوسطاً في حاجة لمحتاج أن أجد لديهم القبول والترحاب. وعندها سوف أدعو لهم أنا ومن توسطت لهم بالخير والسعادة في الدنيا وجنات النعيم في الآخرة ■

من سيئات العصر الحديث (١)

هذه المقالة بالتأكيد ليست حديثاً عن نفسي وليست قطعة من سيرتي الذاتية، لكنني أجد نفسي مجبراً على الرغم من ذلك أن أبدأها ببضع كلمات تندرج تحت ما يُسمى ميول أو صفات شخصية. فأنا رجل يشدني الحنين إلى الماضي، ويعتصرني الشوق إلى الأيام الخوالي. لا شيء عندي يقارن بذلك الزمن الذي تركنا ومضى والذي كانت أيامه تمر بطيئة هادئة مطمئنة لا فرق فيها بين يوم وآخر، ولا خوف ولا توجس من غدرها وخداعها وتربصها بنا وانقضاضها علينا فجأة دون أن تعطي لنا فرصة الدفاع عن أنفسنا. كانت أيامنا فيما سبق تأتي هيِّنة ليِّنة نظيفة تنضح بالرأفة والرحمة، وكنا نلقاها كل صباح بالترحاب، ونودعها عندما ترحل بانتظار أن تعود فنلقاها في الصباح التالي. لم تكن الحياة عندما عرفتها يافعاً ثم شاباً قد تجهمت ثم قست كما هي الآن. كانت رحيمة بسيطة لا تتطلب منا شيئاً كثيراً، فكل شيء وأي شيء يرضيها. كانت هي البساطة بعينها، تعطي قليلاً لكنها في المقابل تتوقع الأقل. لم تكن قد بدأت على الأقل في مجتمعاتنا في هرش جبهتها وتدوير أفكارها وإنتاج نظرياتها، ثم تطوير النظريات إلى اختراعات جلبت علينا من الشقاء قدر ما جلبت لنا ما ظنناه من فرط سذاجتنا راحة وسعادة. إنني لا أحن فقط إلى سابق الأيام التي

(١) نشرت في جريدة الجزيرة في ٧ / ٥ / ١٤٢١هـ، الموافق: ٧ / ٨ / ٢٠٠٠م.

راحت بل أبكي عليها. أبكي الآن من ضغط الحياة وقسوة الأيام التي أصبحت تعتصر قلوبنا من ركضها الدائم، وما جلبته من ضغوط رهيبة على أعصابنا وما رافقها من إرهاق وقلق وأمراض ومتطلبات سخيفة غير معقولة لم نكن نعرفها أو نهتم بها. وأبكي أيضاً من مخترعاتها الحديثة التي أتت معها من الشرور أكثر مما جلبت من حسنات.

أعرف أن بعض من امتحن صبره ليصل إلى هذا الحد من القراءة سوف يسأل نفسه عن ماذا يتكلم هذا الرجل - ولا أقول الكاتب! وأقول لهذا القارئ ولمن وصلوا بقراءتهم إلى هنا أن موضوعاً كهذا متشعب وطويل ولا يمكن علاجه في مقالة في جريدة. ولكنني أسرع قبل أن أفقد باقي القراء فأقول: إنني أنعي حياتنا التي عشناها قبل أن تغزونا الاختراعات الحديثة التي غيرتها وغيرتنا إلى غير رجعة.

أبدأ مثلا باختراع البندقية - التي هي أصل الخراب عندما اتحدت مع البارود في حلف لا يزال قائماً. ولا أستطيع التطرق إلى الحروب وما أفنت من البشر، فهذا بحث متشعب وطموح وقديم أيضاً. إن موضوعي أو جزءاً منه أكثر تواضعاً من ذلك: وهو ما أفسدته البندقية من الحياة الطبيعية وما قضت عليه من الحيوانات البرية التي كانت إلى وقت اختراع تلك الآلة الجهنمية الفتاكة تملأ صحارينا ووهادنا وجبالنا ووديانا. كانت الجزيرة العربية تعج بجميع أنماط الحيوانات التي لا نراها الآن إلا في أفلام القنوات التلفزيونية عن إفريقية. لقد حزنت أشد الحزن عندما رأيت صورة فوتوغرافية لصياد يمسك بيده بندقية ويضع قدمه بزهو فوق أنثى من فصيلة

الفهد الرشيق المرقط الذي يسمى بالإنجليزية Cheetah وهو من أنبل الحيوانات وأسرعها على الإطلاق. كان الصياد «الماهر» قد صرع للتو الأم ووليدها!! كان ذلك في حوالي عام ١٩٢٦ ميلادية، وهو كما نرى ليس بزمن قديم. ماذا كان يدور في خلد ذلك البدوي عندما صوب فوهة بندقيته تجاه ذلك الحيوان الذي لم يتعرض له ولم يؤذه؟ وأي مجد جناه؟ إنها أسئلة غير ذات فائدة الآن؛ لأن ما فات لا يمكن أن يعود.

وجاءت بعد البندقية السيارة. وكأن القوم كانوا ينتظرون أول فرصة تسنح كي يثأروا لأنفسهم من عدو شرس كان يتربص بهم المنون. ما إن انتشرت السيارات ومعها البنادق حتى قامت حملات الإبادة الجماعية ضد كل ما يسير على أربع أو يطير في الفضاء. بدا ولسنين عديدة وكأن شغل الناس الشاغل هو قطع الفيافي والقفار فوق ظهور شاحنات كبيرة وقد ارتصوا على جانبي الشاحنه وكل معه (شوزنه) وكل يباري الآخر في رمي وطرح أكبر عدد من الحيوانات البرية. كانت حملات الإبادة الجماعية هذه لا تفرق بين حيوان وآخر، ولا بين أنثى أو ذكر، ولا بين صغير رضيع أو كبير. بل كل ما هو مطلوب هو قتل أكبر عدد ممكن من المخلوقات البرية التي كانت تعمر صحارينا وسهولنا وجبالنا. كيف لم يجد أولئك المتخلفون من يوقفهم عند حدهم... كيف تُركوا هكذا يعيثون فساداً في الأرض؟ وما حصل عندنا حصل في البلاد العربية الأخرى التي تتشابه طبيعتها مع طبيعة بلادنا، كان قضاء جماعياً نزل على عالم الحيوانات فأفناه عن آخره. ألم يجد أولئك الجهلة من يقول لهم إن التوازن البيئي هو من صنع

الله تعالى، وإن الحيوانات والطيور جزء لا يتجزأ من ذلك التوازن الذي إذا اختل كانت الكارثة محتمة. لم يخلق الله تعالى شيئاً عبثاً، وكل مخلوق له دوره في هذه الحياة، وكل يسبح خالقه على طريقته. وليس من حق الإنسان أن يزيح من فوق ظهر الأرض عنصراً واحداً من عناصرها الرئيسة ومنها الحيوانات والطيور: ﴿**وَإِن مِّن شَيْءٍ إِلَّا يُسَبِّحُ بِحَمْدِهِ وَلَكِن لَّا تَفْقَهُونَ تَسْبِيحَهُمْ**﴾. صدق الله العظيم.

إن كل شيء في هذه الحياة ما هو إلا سلسلة متصلة من أسباب ومسببات، وإذا اختلت بعض حلقات السلسة اختلّت باقي حلقاتها. تعاني صحارينا في السنين الحالية جفافاً لم نكن نعرفه في السابق على الرغم من صحراويتها. وأنا لا أدعي المعرفة، ولكن ألا يجوز أنه بفناء حيوانات الصحراء واقتلاع أشجارها واختفاء طيورها ألا يمكن أن يكون كل هذا سبباً في ندرة الأمطار التي نعاني منها الآن؟ ثم ما قيمة البراري والصحاري عندما تكون ميتة؟ وهي ميتة عندما لا ترى فيها غزالاً يهرب حين يراك، أو ترى في الظلام نقطتي ضوء أحمر تلمع من بعيد تمثل عيني وحش بري، أو تسمع في نهار صفت سماؤه صوت طائر مغرد. إن اختفاء كل هذه المخلوقات التي تزين الصحراء يجعل من تلك الصحراء شيئاً ميتاً لا تكفي لإحيائه نصب خيمة مهما تعددت عواميدها وأحاطت بها السيارات الفارهة وتنوعت فيها تباسي الكبسات.

لقد كانت هناك إلى عهد قريب قطعان من الوعول والغزلان والنعام والفهود والوضيحي تجوب قفارنا وتملأ صحارينا بوجودها

وحياتها وصراعاتها، وتؤدي دورها الطبيعي الذي خطه الله تعالى لها في نظام الحياة الدقيق. إلا أن الإنسان اختار أن يقضي عليها وأن يحرم الأجيال القادمة من متعة وجودها. لقد غلبت على الإنسان أنانيته فقضى على مخلوقات شاء الله لها أن تشاركه أرضه ومعيشته وتؤدي دورها المرسوم لها. إنها مأساة أحزن كلما حدث ما يذكرني بها، لكن الأمل آت إن شاء الله ببركة نفر من أبناء هذا البلد الطيبين الذين أدركوا حجم الخسارة قبل أن يفوت الوقت؛ فنصَّبوا من أنفسهم حرَّاساً على ما بقي من حياة طبيعية يحمونه ويغذونه بإمدادات من هنا وهناك، عاقدين العزم بإذن الله على بعث الحياة الطبيعية من جديد في المناطق التي عاشت فيها ثم اختفت منها. وسوف يأتي الوقت - إن شاء الله - عندما لا تقابل عيوننا فقط ذرات الرمال تسفوها الرياح بل حيوانات متنوعة تروح وتجيء وتسرح وتمرح بأمن ودون خوف من مئة شوزن تنطلق مرة واحدة من فوق شاحنة تنقض كالغول وفي جوف الليل الأظلم على غزالة وحيدة رابضة ترضع وليدها. وأرى أن يمنع الصيد بتاتاً بكل أنواعه ولو على الأقل مدة عشر سنوات مثلاً أو كما يرى القائمون على الحفاظ على البيئة - حتى تعود الأمور إلى ما كانت عليه قبلاً.

هذا وقد تكلمت عن سيئة واحدة فقط من سيئات الاختراعات الحديثة. وأسأل الله تعالى أن يعيننا على تحمل باقي السيئات ■

نزهة وأخواتها [1]

ذهبت في نهاية أسبوع مضى إلى الطائف بصحبة العائلة لقضاء ليلتين نستريح فيهما من رطوبة جو جدة. وأدهشني حقاً أن أجد الطقس في الطائف - أو بالأحرى في الهدى حيث كنت - أن أجد الطقس معتدلاً ربيعياً تهب فيه نسمات هواء منعشة تستريح لها النفس بعد عناء العمل. حتى عندما جلسنا في إحدى شرفات الفندق وكان الوقت حوالي الساعة الثالثة عصراً كان الهواء عليلاً يجعلك تشعر فعلاً أنك في مصيف. كان هذا هو الجانب الذي سرني في رحلتنا القصيرة هذه.

أما ما لم يسرني فهو ما شاهدته عندما تركت الفندق بعد العصر للقيام بجولة على قدمي. لقد دهشت حقيقة عندما رأيت أن كثيراً من مرتادي مصيف الطايف لا يجدون مكاناً لقضاء ساعات أو ربما أيام في الطايف غير أرصفة الشوارع!!. نعم لقد كانت أرصفة الشوارع القليلة الموجودة بالهدى وكذلك مساحات الأراضي الخالية من المباني كانت كلها محتلة من قبل عائلات أو جماعات من العزوبية وقد افترشوا الأرض ورصوا أمامهم وحولهم معدات طبخهم ومعاميل قهوتهم، بينما راح الأطفال يجرون هنا وهناك على أمل أن يجدوا وسيلة تسلية من القليل المتاح لهم. لقد شاهدت عائلات كثيرة تحتل

(١) نشرت في جريدة الجزيرة في ١٤ / ٥ / ١٤٢١هـ، الموافق: ١٤ / ٨ / ٢٠٠٠م.

كل منها قطعة من رصيف خصص للمشاة، فهؤلاء أولاً يسدون الطريق على المارة، بينما قد يلهون في أية لحظة عن طفل صغير يهديه تفكيره لعبور الطريق الذي تنطلق فيه سيارات الشباب المصطافين بسرعة مخيفة. هذا فضلاً عن أن محتلي الأرصفة يحرمون المشاة من استخدامها، وبذلك ينتفي الغرض الذي جعلت هذه الأرصفة لأجله. إضافة إلى ذلك قد يتعرض المشاة الذين يضطرون إلى السير في الشارع بسبب شغل الأرصفة إلى خطر قائم وحقيقي جداً، وهو دهسهم بسيارة منطلقة كالصاروخ يقودها شاب أرعن لا يقيم وزناً لقانون أو عرفٍ كما حصل كثيراً.

إن وضعاً مثل هذا - وهو طبعاً يتكرر للأسف في معظم مدننا - لا يمكن أن يوصف بأنه حضاري أو صحيح بأي شكل. ولا أحسب أن من يراه من الغرباء الذين يزوروننا سوف يشيدون به، بل أجزم بأن مثل هذه المظاهر والممارسات لن تفوت على انتباه الزائر الأجنبي الذي يتطلع على أية حال لتصيد أي مظاهر سلبية تثير النقد والسخرية. ولكن سواء أكان هناك زوار أجانب أم لا فنحن أنفسنا يجب أن لا يرضينا أي سلوك أو مظهر يشي بالتخلف.

لقد غبت عن الطايف سنين عديدة لم تتح لي فيها زيارتها والتجول فيها. وقد قمت خلال هذه الزيارة برحلة إلى الشفا. كان آخر عهدي بالشفا أيضاً منذ سنين طويلة - وكنت أزوره مع زوجتي وأولادي - أما في هذه المرة فقد جئته شيخاً وبصحبتي أحفادي. لكن لشدة ما فوجئت أن الشفا لا زال كما عهدته لم يتغير. المساحات

نفسها، الأرض الترابية التي تحيط بقمته، (الملاهي) نفسها البدائية البسيطة التي عرفتها من زمن بعيد، المقاهي الجرداء ذاتها وكأني تركتها بالأمس فقط! لا بد وأن أعترف أنني أصبت بخيبة أمل شديدة. لقد دارت بنا السيارة دورة كاملة فوق ظهر الشفا ولم نجد مكاناً مناسباً للصغار الذين تعالت أصواتهم واحتجاجاتهم مطالبين بالخروج من السيارة تنفيساً لهم عن الطاقات الكبيرة التي تنوء بها أجسامهم الصغيرة. كل أماكن اللعب ترابية وقد غطاها كلها الغبار؛ ولذا فهي غير صحية، خاصة وأن واحداً من الأطفال يعاني من الربو. ولكن كان من حسن حظنا ونحن في طريق العودة وغير بعيد عن القمة، أن وجدنا مركزاً ترفيهياً كبيراً يشغل مساحة كبيرة من الأراضي التي غطت الأشجار مساحات واسعة منها، بينما نسقت المساحات المتبقية حيث شملت ملاعب أطفال وأماكن لجلوس الكبار - كما كانت هناك خيام نصبت على مسافات متباعدة بحيث يستطيع شاغلوها أن يصلوا إليها بسياراتهم. علاوة على ذلك كان في المكان مبنى واسع ضم مقهى ومقصفاً. شعرت وكأنني وقفت على كنز وتجرأت أخيراً أن أنظر بعين واثقة إلى الأطفال وأن أجيب عن أسئلتهم الملحة والمكررة التي ما تعبوا من ترددادها، وهي لماذا أتينا بهم إلى الطايف إن كان الهدف بقاءهم في الفندق أو التجوال في سيارة. تنفست إذن الصعداء عندما وقع نظري على هذا المكان الكبير وقد شكرت صاحبه بقلبي دون أن أعرفه.

لقد أنشأت الحكومة الآن هيئة للسياحة، وعينت أميناً عاماً لها، شاباً نشيطاً طموحاً متفتحاً هو صاحب السمو الملكي الأمير سلطان ابن سلمان. لقد استبشرنا جميعاً بإسناد هذا المرفق الجديد إلى الأمير الشاب الذي لا أجامل عندما أقول إنه بحسب علمي لم يتصد لشيء إلا ووفقه الله فيه. وأعرف الآن أن الاقتراحات والنصائح ستنهال على الأمير مثل كثافة وغزارة وعنف مطر الصحراء، وقد لا تستمر أيضاً أطول مما يستغرقه انهمار مطر الصحراء، ولكنني أخاطر فأدلو بدلوي مع الدالين - ورأيي هذا عبَّرت عنه شفهياً في بعض المناسبات، وهو: لماذا لا تكون لدينا في كل مدينة رئيسية في المملكة منتزهاً عاماً واسعاً يستوعب أعداداً كبيرة من المتنزهين؟ منتزهاً كالذي نشاهده في أغلب مدن العالم المتحضر... يأخذ مساحة كبيرة من الأرض، وهو شيء متوفر لدينا والحمد لله. تبقى حكاية التشجير وهذه يمكن بدارسة واعية متأنية أن نجد لها الحلول المناسبة بإيجاد أنواع الأشجار التي تعيش بالصحراء، والتي لم يعد من الصعب مع التقدم العلمي إنباتها وازدهارها. أما مسألة الماء فهي أيضاً يمكن التغلب عليها بوسائل إعادة تكرار المياه وطرق الري الحديثة. أتمنى أن أرى في بلادنا منتزهات واسعة فسيحة، تغطي أرضَها الخضرةُ، وتظللها الأشجار، وعلى جنباتها تقام أماكن مخصصة للجلوس وإعداد الطعام وملاعب أطفال. قد يكون كل هذا حلماً صعب التحقيق، لكن الإرادة والعمل المخلص - وقبل كل هذا - همة الرجال الأوفياء تجعل من الصعب سهلاً. إن مثل هذه المنتزهات

التي أتحدث عنها موجودة فعلاً وقائمة في منطقة عسير، وقد اكتسبت في السنوات الأخيرة السمعة الحسنة والشعبية الطيبة وخاصة بعد أن تولى أمور المنطقة الجنوبية صاحب السمو الملكي الأمير خالد الفيصل - ذلك الرجل الطموح الذي لا يهدأ ولا يكن حتى يرى أحلامه تتحقق مهما كلفه ذلك من جهد ومشقة. وحيث إن نواميس الحياة تصر على أن الآمال والطموحات لا تتوقف، ولا يجب أن تتوقف وأن كل عمل كبير يبدأ حلماً فإننا نحلم الآن بأن تكون لدينا متنزهات واسعة الأرجاء في مدننا الأخرى تنافس متنزهات عسير. ولا شيء يساعد على تحقيق الأحلام وعلى التطور في كل مناحي الحياة مثل المنافسة الشريفة ■

هموم ما بعد الثانوية [1]

انتهت الامتحانات وتنفس الآباء والأمهات الصعداء، ورفعت حالة الطوارئ من البيوت. وتتابع ظهور النتائج وعلت الفرحة وجوه الناجحين وذويهم، وحطت غيمة الحزن فوق الذين لم يسعفهم الحظ. لكن النجاح من المرحلة الثانوية ليس إلا بداية لمرحلة جديدة من الجهاد والسعي المرهق للآباء والأبناء على حد سواء للفوز بمقعد دراسي في أي من جامعاتنا ومعاهدنا أو مدارسنا العسكرية لمن يكون سعيد الحظ. لقد أصبح الحصول على مكان في أي من جامعاتنا أصعب من الحصول على سمكة معينة في عرض المحيط. حتى الطلاب الذين بذلوا جهوداً كبيرة وموفقة وحصلوا على درجات عالية لن يضمنوا دخولهم الجامعة - والسبب ببساطة أن الجامعات أو الأماكن الشاغرة فيها لا تستوعب كل أو معظم أعداد الخريجين والخريجات.

لقد نجح هذا العام ١٤٢٠هـ من التعليم العام من الأولاد ما يزيد عن خمس وثمانين ألف طالب - عدا ما يزيد عن أحد عشر ألف طالب من المعاهد العلمية والفنية الثانوية وهذه الأعداد لا تشمل الطالبات. ومن هذا العدد يقدر أن الذين سيجدون أمكنة لهم سواء في الجامعات والمعاهد العسكرية والكليات والمعاهد الآخرى جميعها

---

(١) نشرت في جريدة الجزيرة في ٨ / ٤ / ١٤٢١هـ، الموافق: ١٠ / ٧ / ٢٠٠٠م.

لن يزيد حسب التقديرات عن ثلث الناجحين. فأين يذهب الباقون؟ هؤلاء ستأكلهم البطالة، ومن ثم قد يصبحون فرائس للانحراف، وما أكثر وسائل الانحراف وما أسهل الوصول إليها، في هذا العصر الذي نعيش فيه. لا توجد سبيل آخرى غير العمل الجاد والسريع لإيجاد الحلول المطلوبة قبل أن تستفحل المشكلة وتستعصي على الحل. يجب إعطاء الأولوية في سياسة الدولة التعليمية لعلاج هذا القصور. ولا شك أن المسؤولين عن التعليم في هذه المملكة تؤرقهم هذه المشكلة أكثر مما تؤرق غيرهم، وهم لا شك ساعون في إيجاد الحلول المطلوبة. وقد يجد الدارسون لمشكلة التعليم العالي أن إمكانية أن يعمل الشباب بعد إنهاء الدراسة الثانوية العامة واردة، وأنه لا توجد أبداً ضرورة لشهادة جامعية، وأن الشاب يمكنه أن يعمل في أي مجال تقريباً بعد الثانوية، ويمكنه بعد ذلك أن يثقف نفسه كيف يشاء. كما أن هناك إمكانية زيادة معاهد التقنية، وهذه قطعاً لا تحتاج إلى مستوى دراسة أعلى من مستوى التعليم الثانوي العام. هناك أيضاً حكاية السعودة التي نسمع جعجعتها ولا نرى طحنها. ادخل فقط إلى أي مكان أنيق أو أي من المراكز التجارية الكبيرة أو المطاعم العديدة المنتشرة في مدننا وحاول أن تجد شاباً سعودياً واحداً هناك. ولا أزال أجهل الأسباب التي جعلت الناس يقولون: إن السعودي كسول ولا يحب العمل. لا أصدق هذا؛ لأن الحاجة عندما تصبح ملحة – وهي الآن هكذا – تدفع الناس للقيام بأي نوع من العمل المشروع يكسبون من ورائه عيشهم. وما علينا إلا أن نذكر آباءنا وكيف كانوا يسعون

لكسب قوتهم دون تأفف ودون استعلاء مهما كان نوع العمل الشريف الذي يقومون به.

لقد أنشأنا جامعاتنا في أوقات متقاربة، ثم استرحنا وكأننا ضمنا أنها ستستوعب كل أجيال الذين سيتخرجون من الدراسات الثانوية على مدى الأعوام.

تقول الإحصائيات: إن سكان المملكة يتزايدون بسرعة أكبر من معدلات الزيادة السكانية العادية، وإن عدد السكان سوف يصبح بعد سنين قليلة عشرين مليون إنسان. ولا توجد وسيلة بديلة لتوفير سبل المعيشة والحياة الكريمة لهذه الملايين إلا بالنمو المطرد للتعليم بكل فروعه، وكذلك نمو الموارد المعيشية. وسوف تستمر الزيادة في السكان ما شاء الله لها، ومعها سوف تزداد الحاجة إلى توفير التعليم وتوفير العمل لهذه الملايين. وويل للبلد الذي يزداد سكانه فقط دون أن ينمو إنتاجه ودخله بنسبة نمو سكانه نفسها. إن الجامعات الموجودة حالياً يستحيل عليها إيجاد أماكن لخريجي المدارس الثانوية. ولا آتي بجديد عندما أكرر هنا ما قاله بعض الآباء من أنهم يجوبون أنحاء البلاد لإيجاد مقعد شاغر لابن أو ابنة تخرج أو تخرجت في المدرسة الثانوية. ولم يعد شرطاً أن يدرس خريج مدارس جدة في جامعة الملك عبدالعزيز مثلاً، فهو على استعداد للتوجه إلى أي جامعة يجد فيها مكاناً له. لقد سمعت أن نسبة جامعاتنا إلى سكان المملكة هو جامعة واحدة لكل مليوني شخص - وهذه نسبة منخفضة جداً قد لا نجدها

في كثير من البلدان؛ وبعض الدول العربية التي تقل إمكاناتها عن إمكاناتنا لديها من الجامعات ما يزيد عن حاجتها وتستضيف كثيراً من الطلاب الأجانب بمن فيهم طلاب من المملكة.

إن الحاجة أصبحت ماسة لعلاج هذا القصور التعليمي الأساسي، وأنا آمل أن يلتفت إليه المخططون الذين يرسمون السياسة التعليمية والتنموية عامة لهذا البلد. لم يعد الأمر يحتمل الانتظار ولا أصعب من جلوس فتى أو فتاة في البيت بعد حصوله وحصولها على الشهادة الثانوية. قد يتمكن بعض أولياء أمور الطلبة من ابتعاث أبنائهم الذكور للخارج - ولكن الوضع يكون أصعب بالنسبة للفتيات. والحل الوحيد هو ببساطة إنشاء معاهد دراسية سواء أكانت جامعات أو معاهد تحت أي مسمى.

هناك مثلاً إمكانية إنشاء جامعة كاملة للتقنية - قد تبدأ هذه بكلية واحدة، ثم تنمو إلى تفرعات أخرى. وكما يعرف الكل أن الوقت قد حان لنفكر جدياً بجدوى برامجنا التقليدية، ولا أستغرب إذا لم يكن قد أصبح لدينا مثلاً ما يكفي من معلمين في التاريخ والجغرافيا والآداب بأنواعها. إن الزمن يتغير بسرعة ولا أجد لنا خياراً إن لم نواكبه أو نسعى على الأقل لمواكبته. وهذا لا يتأتى إلا إذا سلكنا الطريق الذي سلكه قبلنا رواد العلم الحديث.

إن على هذه الدولة الحديثة التي ما فتئت منذ أن نشأت تبذل قصارى جهدها لتهيئة حياة كريمة سهلة لأبنائها - عليها الآن أن

تستمر على منوالها السابق نفسه، وأن تبادر إلى الأخذ بأسباب التقنية الحديثة التي أصبحت اليوم أساس التطور والرقي. كما أدعو رجال الأعمال والموسرين للتفكير جدياً في إنشاء جامعة أو جامعات خاصة تركز مناهجها على التقنية الحديثة التي نراها تسابق الزمن، والتي شملت أو تكاد تشمل كل مناحي الحياة. والجامعات على أي حال مشاريع ناجحة من الناحية التجارية البحتة. كما يمكن أيضاً للدولة أن تساهم في إنشاء مثل هذه الجامعات أو الكليات الخاصة، كأن تمنح الأرض مجاناً للمساهمين أو حتى تساهم في تحمل بعض مصاريف الدراسة بشكل من الأشكال. وعلى كل حال فإن الإمكانات المادية متوفرة عند بعض رجال الأعمال،.. بل إن بعضهم استطاع أن يصل إلى قائمة أغنى أغنياء العالم، تلك القائمة التي تنشرها مجلة فوربس كل عام ■

التنصير: الغزو المسيحي الغربي للعالم[1]

دفعني إلى كتابة هذا المقال دراسة اطلعت عليها في مجلة نيوز ويك الأمريكية عن انتشار المسيحية في العالم اليوم. لم أفاجأ في الواقع بما قرأته في المجلة؛ لأنه كان واضحاً ومنذ سنين عديدة أن المسيحية تنتشر بسرعة في معظم بلاد العالم، وإن الدعوة لها نشطة تقوم على أسس مدروسة بعناية تهيأت لها كل عوامل النجاح من مال وجهد جماعي وتصميم ومثابرة ومتابعة وإصرار على تحقيق الهدف.

لقد والله أحزنني ما قرأت، ولا أشك في أنه يحزن كل مسلم غيور على دينه حريص على إعلاء كلمة الله وتهيئة كل السبل لانتشارها والتصدي للزحف الجارف الذي يقوم به المنصرون الآن، تساندهم قوى كبيرة وضعت نصب أعينها الوصول إلى الهدف مهما بذلت من جهد ومال. لقد مضى علينا في عالمنا وقت كنا نقول باعتقاد صادق أو غير صادق أن الإسلام ينتشر بأسرع مما تنتشر به المسيحية. ولكن لو قرأتم ما قرأت في المجلة المذكورة لوجدتم الأمر غير ما تظنون. وأنا في الحقيقة لست بصدد القيام ببحث يتطلب دراسة علمية طويلة، ولكن ما أقوم به هنا هو نقل بعض ما جاء في دراسة نيوز ويك الأمريكية. كما أنني غني عن القول أنني أدعو الله تعالى مخلصاً أن يكون ما جاء في المجلة المذكورة مبالغاً فيه أو غير

(١) نشرت في جريدة الجزيرة في ٩ / ٤ / ١٤٢٢هـ، الموافق: ٣٠ / ٦ / ٢٠٠١م.

صحيح أو أحلاماً يرجو واضعوها أن تتحقق. كما أرجو ممن لديه معلومات مخالفة أو مختلفة من الهيئات الإسلامية والأشخاص أن يتفضلوا مشكورين بإطلاع القراء وإطلاعي عليها.

تركز الدراسة طبعاً على انتشار المسيحية في البلاد والقارات التي لم تكن أصلاً مسيحية وهي آسيا وإفريقية وأمريكة اللاتينية، وهذه بدأت المسيحية تنتشر فيها مع المد الاستعماري الغربي الذي ابتدأ في القرن السادس عشر وانتهى بشكله الظاهري في معظم حالاته في نهاية النصف الأول من القرن العشرين. ولكن امتداد النفوذ الغربي الذي ابتدأ مع بداية الاستعمار الذي يتمثل في ثقافته ودياناته المسيحية لم ينته بنهاية الاستعمار العسكري. بل ما حدث هو العكس تماماً، حيث نجد أن أنشط أوقات المد المسيحي هي العشرات الأخيرة من سني القرن العشرين الماضي. وكمثال على ذلك نجد أنه في عام ١٩٧٠م مثلاً كان عدد المسيحيين في آسيا لا يتجاوز مائة مليون شخص. أما الآن وفي العام ٢٠٠٠م فقد تجاوز العدد الثلاث مئة مليون إنسان. وهذا فقط في ثلاثين سنة !! بينما نجد عدد مسيحيي أوروبا كلهم لا يزيدون على الخمس مئة مليون شخص!. وفي أمريكا الشمالية يبلغ عددهم مئتي مليون.

وإذا ذكرنا إفريقية - وهي التي يركز عليها المنصرون بكل ما أوتوا من قوة - فإننا نجد أن عدد المسيحيين لم يكن إلى عام ١٩٧٠م يتجاوز المئة مليون، ولكننا نجده الآن وقد قفز إلى حوالي ثلاث مئة وخمسين مليون مسيحي - حسب ما تدعيه المجلة - وهذا أيضاً في

مدة زمنية هي ثلاثون عاماً!. لقد مر زمن على إفريقية كان المد الإسلامي فيها ذا زخم كبير تتراجع أمامه كل الديانات الأخرى سواء المحلية أو المسيحية الغربية. ولكن ذلك الحال انتهى للأسف الحزين. استمر انتشار الإسلام قوياً إلى السبعينيات من القرن المنصرم، ثم بدأ بعدها يتقهقر، وحصل على قصب السبق التنصير القادم بقوة من أوروبا وأمريكا.

تحدد مجلة نيوز ويك العام ١٩٧٠م الذي تقدم فيه التنصير المسيحي في إفريقية على المد الإسلامي؛ وذلك التاريخ كما نرى قريباً من العام ١٩٦٧م الذي نكب فيه العرب والمسلمون بهزيمتهم الساحقة أمام إسرائيل التي وإن كانت تمثل أشياء أخرى كونها ديانة يهودية صهيونية فهي المد الطبيعي للقوى الغربية في ثقافتها وحضارتها وفكرها وسياستها.

إن هزيمة عام ١٩٦٧م كانت الضربة القاصمة التي نزلت بالعرب والتي لا زال العرب يعانون نتائجها المأساوية. لقد كانت الهزيمة من القسوة بحيث زلزلت الأركان العربية كلها - بل إن الدول العربية جميعها ما زالت تترنح من نتائج الهزيمة المأساوية المريرة. انتهز المنصرون المسيحيون فرصة الضياع العربي في تلك الحقبة ونشطوا في محاربة الإسلام الذي بدا ضعيفاً مثل ضعف الداعين له من العرب. وبطبيعة الحال فإنه من المعروف أن الضعيف الفقير الجاهل يتطلع إلى مثل حياة من هو أقوى وأغنى وأعلم منه - وكان الغرب هو القوي، وهو الغني، وهو الذي صار يمد الفقراء العراة في مدن

إفريقية وقراها وأدغالها - يمدهم بوسائل الحياة من مأكل وملبس وتطبيب وتعليم - كل هذا والمسلمون يزدادون تقاعساً وتكاسلاً معتمدين على مقولة ضالة لا ندري من سربها وهي أن الإسلام ينتشر في إفريقية من تلقاء نفسه! لا شيء يحصل من تلقاء نفسه، وهذه نظرية تعلمناها منذ أن كنا صغاراً على مقاعد السني الأولية من الدراسة. لم تقم دولة الإسلام الأولى وتتغلب على المشركين والكفرة في الجزيرة العربية دون كفاح وجهاد مريرين، ودون تضحيات وآلام وتعب وأحزان. ومثل ذلك يقال عن كل عمل مجيد.

إن على المسلمين اليوم ان يراجعوا أنفسهم ويعيدوا كشوف حساباتهم، وإلا فإن نبوءة رسول الله صلى الله عليه وسلم ستتحقق بأقرب مما نظن لا سمح الله: وهي أن الإسلام بدأ غريباً وسيعود كما كان. المسلمون بحاجة إلى رجال مخلصين يعملون لوجه الله تعالى فقط ولنصرة الإسلام والمسلمين. رجال ينذرون أنفسهم لمهمة إعادة نفخ الروح في المبادرة الإسلامية والعودة بها لميدان المنافسة الشرسة التي يقودها الجانب الآخر. ولا يتأتى ذلك إلا عندما يعود الإسلام قوياً والمسلمون مسلمين بحق وحقيق صادقين فيما عاهدوا الله عليه. ولا أنسى كلمة قالها مهاتير محمد رئيس وزراء ماليزيا عندما قدم إلى الرياض ليتسلم جائزته التي منحته إياها مؤسسة الملك فيصل الخيرية لخدمة الإسلام. فقد قال في كلمته ما معناه: إن ماليزيا اليوم بلد مسلم؛ لأنه اعتنق الإسلام عندما وصل مسلمون صادقون أقوياء مجاهدون في سبيل الله لرفعة كلمة الله عندما

وصلوا إلى ماليزيا فاعتنق أهلها الإسلام بسهولة وعن اقتناع. وأضاف مهاتير محمد: لو أن المسلمين الذين وصلوا في ذلك الزمان إلى ماليزيا كانوا مثل مسلمي اليوم لما أصبحت ماليزيا مسلمة!.

والغريب حقاً أن المسيحية نفسها تتضاءل في الغرب عموماً وخاصة في أوروبا، حيث أصبح معظم الناس لا يؤمون الكنائس ولا يقومون بأي من شعائر عباداتهم. ولكنهم مع ذلك حريصون - وخاصة من يتصدى منهم للتنصير - حريصون على الدعوة للمسيحية. وهم يتوقعون أنه في المستقبل القريب قد يعين أول بابا للفاتيكان من إفريقية السوداء وبالتحديد من نيجيريا التي يركزون عليها، والتي كما تدعي المجلة اجتمع في ذات يوم في أحد مناطقها حوالي ستة ملايين شخص للاحتفال بمناسبة دينية مسيحية. كما أن أكثر المناطق جذباً للتنصير الآن هي المنطقة الشبه الصحراوية في شمال إفريقية التي تضم مالي وتشاد والنيجر وبوركينا فاسو وسيراليون وغينيا بيساو، والتي يقولون إنه يقوم ما بينها جميعاً ما عدده ألف ومئتا كنيسة في الشهر الواحد. قد يكون العدد مبالغاً فيه، وقد تكون معظم تلك الكنائس لا تتعدى أكواخاً تقام من القش وجذوع الأشجار. ولكنها بداية تؤدي فيما بعد إلى المطلوب. وحيث إن معظم المسيحيين الأصليين أنفسهم قد لا يتبعون تعاليم الكنيسة كما جاءت في أصول كتبهم فهم بالأحرى يتساهلون في تطبيق تلك التعاليم من قبل أولئك الذين يعتنقون دينهم والذين غالباً ما يبقون على بعض معتقداتهم الأصلية سواء أكانت ذات أصول إفريقية أم آسيوية أم صينية. ولا

بأس أن يروا صينياً أو يابانياً يخلط بين شعائر البوذية والمسيحية؛ لأنهم يدركون أن النتيجة النهائية ستكون في صالح الدين الجديد وهو المسيحية. والمبدأ هنا هو إعطاء بعض التساهل وغض النظر عن إدخال بعض المعتقدات وممارسة بعض الطقوس من بقايا الديانات والمعتقدات التي يهجرها أهلها للدين الجديد؛ لأن المنصرين يدركون جيداً مدى صعوبة تخلص الناس من معتقداتهم وطقوسهم التي توارثوها عبر الأجيال. وهذا ما يسمى في تاريخنا الديني التآلف، وهو الذي ذكره الله سبحانه وتعالى في كتابه الكريم عن رسوله الكريم عندما خاطبه جل وعلا قائلاً: ﴿**فَبِمَا رَحْمَةٍ مِّنَ اللَّهِ لِنتَ لَهُمْ وَلَوْ كُنتَ فَظًّا غَلِيظَ الْقَلْبِ لانفَضُّوا مِنْ حَوْلِكَ**﴾. ولدينا أمثلة كذلك على التعامل مع المسلمين الحديثي العهد بالإسلام ومجاملاتهم، وأبرز مثل على ذلك قول رسول الله ﷺ عندما دخل مكة فاتحاً منتصراً وكان أبو سفيان لا يزال على شركه: «**من دخل بيت أبي سفيان فهو آمن**».

كيف أمكن للتنصير أن يصيب كل هذا النجاح، لولا الدأب والإصرار على العمل والتصميم على النجاح. ماذا عملنا نحن المسلمين مقابل هذا؟ وأنا عندما أقول مسلمين فإنني سواء أحببت أم كرهت أعني نحن العرب؛ لأن الله تعالى أنزل كتابه ودينه وبعث رسوله عربياً؛ ولهذا فإن قدر العرب أن يكونوا هم أبطال الإسلام والناشرون له والمدافعون عنه. أقول ما هو المجهود التي تقوم به كل المؤسسات والهيئات الدينية في العالم الإسلامي؟ لقد قام بابا الفاتيكان بشخصه بعدد كبير من الزيارات إلى إفريقية وآسيا وغيرها من بلاد العالم

يدعو إلى المسيحية، فمن هو المسؤول العربي أو المسلم الكبير الذي زار إفريقية بعد الزيارة التي قام بها الملك فيصل يرحمه الله إلى يوغندا ومالي والتشاد والنيجر. إن عدد المسيحيين في الأمريكيتين وأوروبا معاً هو حوالي ألف مليون إنسان، بينما عددهم في بلاد التنصير إفريقية وشبه القارة الهندية وجنوب شرق آسيا (الفلبين وإندونيسيا والصين) حوالي سبع مئة مليون شخص، وهو رقم يزداد بسرعة كبيرة وسيزيد - لو استمر انتشاره على ما هو عليه - على عدد المسيحيين في البلدان المسيحية التقليدية في أوروبا وأمريكا.

لمجابهة المد التنصيري النشط، يجب على المؤسسات والهيئات الإسلامية أن تشمِّر عن سواعد الجد وأن تنظر إلى الأمر كمسألة حياة أو موت ولا شيء بينهما. ولا أحتاج أن أضع لها برامجها؛ فالطريق واضح ولا يحتاج الأمر إلا إلى همة جادة وعزم أكيد وحب للعمل في سبيل الله - وهو لعمري عمل يدخل في إطار الجهاد في سبيل الله. ليس المطلوب من رؤساء الهيئات الإسلامية أن يلزموا مكاتبهم ودورهم طيلة مدة تكليفهم - بل العمل الأساسي هو ميداني بحت، والميادين تناديهم. لدينا هنا في المملكة عدد كبيرٌ من الشباب المتحمسين المتوثبين لخدمة دينهم وهم يرتادون المساجد؛ ليلقوا خطبهم ونصائحهم بعد الصلوات المكتوبة وفي كل وقت يتاح لهم. فلماذا لا يُستَغل حماس أولئك الشباب ويدربوا على أعمال الدعوة إلى الدين الإسلامي الحنيف ثم يرسلوا إلى بلاد العالم للتصدي للتنصير قبل أن يتأخر الوقت ونعض بعدها أصابع الندم.؟ إن الأمر كما ذكرت

مسألة حياة لنا نحن المسلمين أو موت مشين. وإذا كانت الأخرى لا سمح الله فكيف سنقابل مصائرنا عند يوم الحساب الأعظم، وماذا سيكون عذرنا لدى رب العالمين عندما لا نجد ما ندافع به عن أنفسنا لتقاعسنا عن نصرة أعظم وأصدق دين كرمنا الله به؟ ﴿وَلَن تَرْضَىٰ عَنكَ الْيَهُودُ وَلَا النَّصَارَىٰ حَتَّىٰ تَتَّبِعَ مِلَّتَهُمْ﴾. هكذا حذر رب العالمين رسوله المصطفى صلى الله عليه وسلم من أخطار الأعداء المتربصين للدين العظيم الذي بزغ فجره في جزيرة العرب، والذي ما زال أعداؤه متربصين به، بل ازدادت هجماتهم ضراوة وشراسة. ولا حول ولا قوة إلا بالله. إنها صرخة أطلقها بعد أن قرأت دراسة مجلة نيوز ويك المجلد ١٣٧ العدد ١٦ الصادر في أبريل ٢٠٠١م ■

نزهة على الطريقة السعودية

يقال: إن الكاتب الجيد هو الذي يجعل القارئ يعيش الصورة أو الحالة أو الجو الذي يعيشه الكاتب. وأنا هنا أحاول أن أكون كاتباً جيداً وأنقل الصورة التي عشتها يوم الجمعة الماضي أنا وزوجتي عندما قررت أن أصحبها في نزهة خارج مدينة الرياض كما يفعل هذه الأيام كثير من الناس بعد هطول الأمطار واخضرار بعض مناطق من الصحراء حول الرياض. ولأنني غير أناني وكذلك زوجتي فقد قررنا معاً أن نشارك قراء جريدة الجزيرة في المتعة الكبيرة التي عشناها لوقت قصير في نزهتنا تلك.

توكلت على الله وقررت أن أقود السيارة بنفسي - تتمنى أم نزار دائماً أن تركب في المقعد الأمامي من السيارة، ولكن هذا لا يكاد يحصل بوجود سائق معظم الأوقات - ولذا كانت سعادتها غامرة عندما وجدت نفسها بجانبي. اتجهت نحو المكان المقصود- وما إن أصبحت خارج مباني الرياض وكان ذلك بعد حوالي مئة كيلو متر حتى ظننت أنني ولجت مضمار سباق سيارات. كانت السيارات مختلفة الأنواع والأحجام تمرق وكأنها في سباق مجنون - تنطلق من كل ناحية عن يميني وشمالي ومن أمامي وخلفي. إن الناس في بلدنا هذا لا يقودون سياراتهم بل يسابقون بها وهمّ معظمهم هو أن يسبق الذين أمامه دون أيما سبب. والحقيقة المحزنة التي كتبت عنها من قبل هي أن السائق السعودي وللأسف من أسوأ السائقين في العالم كله. دليل

ذلك واضح لدى سلطات المرور. لم تعد هناك قواعد لقيادة السيارات، ولم يعد هناك احترام للنظام ولا حتى للنفس البشرية، ومن المؤلم حقاً أن نبذ العالم كله في عدد الوفيات والإصابات من جراء حوادث السيارات.

أعود لموضوع النزهة. وبالمناسبة جريدة الجزيرة تكاد في كل يوم تكتب وتصور شيئاً عن أحسن الأماكن التي يتوفر فيها الربيع وماء المطر - ما عدا هذا اليوم الذي قررت فيه أن «أكشت».

وحيث إنني منذ زمن موغل في القدم لم أقد سيارة أو حتى أخرج للتنزه فقد كنت أظن أنني سوف أجد مكاناً مناسباً قريباً من الرياض، لكن بدا لي مدى سذاجتي عندما سافرت وسافرت وكل ما كنت أشاهده هو امتداد للرياض، وبعد ذلك أراض شاسعة مسورة، كيلو مترات والأسوار لا تنتهي، أظن هناك الآن مكائن وآلات ضخمة تجعل التسوير أمراً سهلاً. تسير الآلة العملاقة وتترك خلفها سوراً محترماً. فكرت أن أجلس في نقطة ما بين السور والطريق لكنني خشيت أن تمر دورية بالصدفة ويظنونني وزوجتي من المتخلفين الذين يأتون للحج أو العمرة ولا يغادرون أبداً.

المهم استمريت في السفر وأنا أنظر إلى عداد الوقود لأتأكد أن لدي ما يكفي للعودة إلى الرياض. وحيث إنه من الصعب علي أن أقود السيارة وفي الوقت نفسه أنظر يميناً وشمالاً لأجد المكان المناسب للجلسة فقد أوكلت هذه المهمة إلى زوجتي موصياً إياها ألا تفتح فمها

بكلمة حتى لا ألتفت إليها مثلاً للحظة فأدخل في سيارة أمامي أو يأتي سائق من ذوي الشاحنات العملاقة يظن أنه يقود صارخ (فيفعصني) أنا وسيارتي وزوجتي أيضاً.

بعد مضي وقت خلته لا ينتهي ربتت أم نزار على كتفي وأشارت بيدها إلى واد على يسار الطريق به بعض شجيرات وقد اخضرت أرضه بشكل لا بأس به. كانت المشكلة فقط أن المكان على يسار الطريق وعليّ إذن أن أعبر له. ونحن في بلادنا لدينا عادة لا يوجد مثلها في أي بلد في العالم. وهي أنه إذا رأى سائق سيارة قادمة من بعيد سيارة أخرى تسير عكس الاتجاه تريد أن تعبر الطريق فإنه يسرع كي يقطع عليه الفرصة - وفي الوقت نفسه يضع سائق السيارة التي بالخلف يده على البوري وكأن الدنيا ستنتهي تلك اللحظة. جرب أيضاً أن تقطع أي طريق أو شارع في الرياض وسترى كل السيارات القادمة تزيد سرعتها لكي لا تمنحك فرصة قطع الطريق. إنها حالة مرضية لا أدري سببها وأتمنى أن تكون هناك جهة أو هيئة تدرس نفسية مثل أولئك السائقين وتجد لهم علاجاً. هذا مع أن الإنسان السعودي العادي إنسان لطيف مؤدب ولكن بعضهم ينقلب إلى ذئب عندما يجلس خلف مقعد السيارة. حالة نفسية تحتاج كما قلت إلى علاج. وأدعو بالمناسبة الجهات المسؤولة إلى إنشاء جسور للمارة فوق كل الشوارع والطرق الكبيرة في الرياض.

على أي حال استطعت أن أعبر الطريق إلى الجهة الأخرى، أوقفت السيارة بعد أن اخترت مكاناً مناسباً وجئت بالسجادة التي

كنت ذات يوم اشتريتها من أمام باب مسجد الجوار بعشرين ريالاً. أحضرت السلال والعلب وقدر الرز وشنطتي القهوة والشاي. الآن لابد أن الذين وصلوا إلى هذا الحد من القراءة يعجبون لحجم كمية الطعام والشراب التي أحضرتها زوجتي، وأنا في الحقيقة أعجب معهم ولكن لا حيلة لي إطلاقاً في هذا الأمر؛ لأنني لو أعمل المستحيل فلن تتخلى زوجتي عن شيء ولو بسيط مما تعده لرحلة ولو لشخصين ولمدة ساعات قليلة.

فرشنا السجادة ذات العشرين ريالاً وبدأت أم نزار تعد السفرة. وهنا كانت المفاجأة؛ في لحظات قليلة فقط هجمت علينا أسراب من الذباب لا ندري من أين أتت، ذباب بالآلاف. حاولت أن أقتله أو أهشه بعيداً ولكن لا سبيل إلى ذلك؛ صببت فنجان شاي وقبل أن أرشف منه رشفة واحدة انهال عليه الذباب. بالاختصار كان ذلك الوادي للأسف يموج بموجات من الذباب الشرس الذي حتى بعد أن حاولت محاربته وجدت أن الذبابة الواحدة تستعصي على القتل حتى بعد أن شمرت عن ساعدي وأعلنت الحرب. كنت أضرب الواحدة بصندوق المناديل وأصيبها لكنها تقوم مرة أخرى وتعاود الهجوم. لم أر مثل ذلك الذباب وشراسته من قبل. لكن لماذا كل هذا الذباب؟ لأن الناس مع كل أسف - وأتمنى ممن يقرأ هذه المقالة أن يتذكر أن البلد بلده والأرض أرضه وأن يسعى ويتعلم كيف يحافظ على نظافتها - أقول لأن الناس مع كل أسف يخرجون إلى البر ويذبحون الذبائح ويطبخون ويأكلون ثم

يتركون بقايا ذبائحهم وأكلهم لتصبح بؤراً للحشرات والذباب، ويصبح المكان أصلاً قذراً تعافه النفس السوية ولا حول ولا قوة إلا بالله.

لم نستطع الجلوس طويلاً، وكان من المستحيل أن نخرج طعاماً نأكله وسط موجات الذباب تلك. ولم يكن بد من لملمة حاجاتنا والعودة مرة أخرى إلى الرياض.

تصور أخيراً أنك تقود سيارة وسط سائقي بلادنا بعد عصر يوم جمعة، والكل كالعادة يسابق ليسبق الذي أمامه، وأنت في هذه الأثناء تحارب على ثلاث جبهات: تحارب لتبقى حياً بين غابة تلك الآلات المجنونة المسماة سيارة، وتحارب الجوع الذي بدأ يصرخ في معدتك، وتحارب أخيراً بضع ذبابات وجدت طريقها للعودة معنا إلى الرياض ■

موسم الهجرة إلى الشمال وكل الجهات

يأتي الصيف وتأتي معه مواسم عديدة، الطلاب يؤدون الامتحانات النهائية، والعائلات تبدأ في الاستعداد للهجرة السنوية إلى أركان المعمورة الأربعة بالرغم من أن مدننا الآن أصبحت تقيم المهرجانات الصيفية بشعاراتها المختلفة، تحاول أن تنافس مهرجانات دبي، أو على الأقل تحد من اندفاع الناس إلى الهروب جماعياً من قيظ بلادنا الحار إلى أماكن ألطف طقساً وأبهى سياحياً. والمهرجانات السياحية والبحث عما يمتع النفس ويخفف من ضغوط الحياة بشكل عام يتطلب أكثر بكثير مما تستطيع مهرجاناتنا أن تقدم، مما لا يزيد كثيراً عن الدعوة للتسوق والسكن لمن يأتون من خارج المدن الكبيرة في شقق مفروشة كئيبة يطمع أصحابها في إعادة رأسمالها والبدء في إحصاء الربح في أول صيف تفتح فيه أبوابها.

ولا أظن أن في كلامي هذا أية مبالغة، فالأسعار السياحية عندنا مرتفعة جداً، وكثير ممن يقتحمون مجال الأعمال سواء في السياحة أو غيرها لا تكون لديهم فكرة وافية عن كيفية إدارة أعمالهم - وكلامي هنا عن صغار رجال الأعمال الذين يقبلون على مغامرات متواضعة مثل: افتتاح مطاعم أو إنشاء شقق مفروشة - فهؤلاء يظنون أن الناس لا همَّ لها إلا انتظار مشاريعهم هذه ليقبلوا عليها ركضاً؛ ولهذا ولأن خبرتهم فيما أقدموا عليه من مشاريع قليلة أو معدومة فهم سرعان ما يصابون بخيبة أمل ويقفلون أعمالهم. ومن الملاحظ

أنه إذا نجح عمل ما أو مشروع ما فإنه ما يلبث أن تقوم عشرات الأعمال والمشاريع المقلدة، وبطبيعة الحال تفشل معظمها؛ لأن السوق أو الاستهلاك ليست بحاجة إلى كل تلك المشاريع المقلدة. وأعتقد أن الجهة الحكومية المسؤولة مثل: وزارة التجارة لا بد وأن تكون لديها إدارة تختص بما يسمى (الجدوى الاقتصادية) أو شيء مشابه لهذا التعبير - والمفروض أيضاً أن لا تصدر رخصة عمل ما أو مشروع إذا كان السوق أو الاستهلاك أيًا كان لا يستوعب المزيد.

نعود إلى السياحة، والسياحة - أيها السادة - شأن كبير عندما يفكر أحدنا كم من الأموال تهدر كل سنة على السفر إلى خارج البلاد. هناك المحاولات التي ذُكِرت في بداية المقال - ولكن كما قلت: لا تعدو أكثر من دعوة للتسوق وإفراغ جيوب الرجال مما معهم. يقول كثير من الناس: إنهم يسافرون إلى بلدان عربية أو آسيوية ويصرفون أقل مما يصرفون لو بقوا في المملكة. لماذا كان ذلك؟ لأنه - كما ذكرت - الأسعار عندنا ليست مدروسة، وغالباً ما يضعها أصحاب الأعمال دون رقابة فعَّالة. وإلا من هو رب العائلة الذي يذهب بعائلته إلى فندق ويطلب طبق ساندويتش ليفاجأ أن ثمن الطبق هذا ثماني مئة ريال!! ثم ما هي مقومات السياحة عندنا؟ هل هي مجرد الذهاب إلى فندق ثم إعلان إفلاسك إذا كان هذا الفندق من درجة الخمسة نجوم - أو ربما تختار،أو غالباً ما تضطر إلى السكن في شقة مفروشة وسوف تجدها من الكآبة مما تتمنى معه لو لم تلدك أمك أو على الأقل لو لم تتزوج! ثم ماذا بعد - لم يبق بعد السكن إلا الفُسح.. فأين ستذهب.. إذا كنت في الرياض واخترت واحدة من المدن الترفيهية الجميلة حقاً - وأنا

جاد هنا - والتي حوت الكثير من التسليات البريئة- ودائماً نُصرُّ على كلمة (البريئة) وإلا اتهمنا بارتكاب المعاصي - فماذا سينتظرك هناك؟ سوف تجد حراساً مفتولي العضلات - غير سعوديين- يقولون لك: إن دخـول الرجـال ممنوع! وإذا كنت في داخلك تتمنى أن تتخلص من دوشـة العـائلة والأولاد وتدفع بهم إلى مدينة الترفيه البريئة تلك؛ وتذهب لتبحث لك عن شلة أصدقاء تشكو لهم هموم الإجازة، فستصدمك مفاجأة أخرى - الأولاد من سن عشر سنوات فما فوق غير مسموح لهم بالدخول والاختلاط بالنساء! ولسوء حظك لديك أولاد يزيدون عن العشر سنوات.

تلوي عنق سيارتك وتقفل عائداً إلى صخب المدينة وغابات شوارعها، ولا تجد أمامك إلا أحد مراكز التسوق التي نمت في مدننا الكبيرة كما ينمو نبات الفطر الطفيلي بعد هطول المطر في الوقت الصحيح. أعجب في الحقيقة إن كانت حتى الرياض باتساعها وسكانها وجدة كذلك تستوعبان هذا العدد الكبير من هذه المراكز الشرائية العملاقة التي قامت ولا تزال تقوم في بلادنا.

فجأة يصيح ابنك ذو العشر سنين طالباً أن يذهب إلى السينما! وتلتفت إليه وتجد أنه جاد في طلبه، وتظن لأول وهلة أن دوراً للسينما قد أنشئت في بعض المراكز التجارية، وتسأل الوالدة والبنات والابن الأكبر، ويؤكد الجميع أنه لا يوجد حسب علمهم أي دار للسينما في الرياض، وتتساءل في سرك، لماذا لا توجد دور سينما تبث أفلاماً مراقبة بدلاً من محلات الفيديو التي تؤجر وتبيع كل أنواع الأفلام

ومنها: الإباحية حسبما قرأنا في الحملات الموفقة التي قامت بها قوى الأمن في الرياض وجدة والمدينة وغيرها من بلداننا؟ ماذا يمنع أن تكون هناك دور سينما تقضي بها العائلة كلها وقتاً ممتعاً يستريحون به من عناء السير اللانهائي في الأسواق؟ إن القنوات الفضائية الآن تبث كما يعرف الجميع كل أنواع الأفلام والمسلسلات والبرامج التي لم يعد من الممكن السيطرة عليها، فلماذا نخاف أن تكون لدينا دور سينما تبث أفلاماً نختارها نحن؟

أما إذا اختار السائح السعودي أن يذهب إلى جدة أو اختار ساكن جدة عدم السفر، فالحكاية لا تختلف كثيراً عما يحدث في الرياض، والمعاناة سوف تتكرر بتشابه كبير، إلا أن جدة تمتاز بوجود البحر، البحر موجود بجدة ولكن لمن؟ إن اخترت أن تتغدى أو تتعشى بالمطاعم الموجودة على البحر مباشرة، فإن ميزانيتك وإن كانت محترمة سوف تعاني من الهزال والتلاشي السريع، وإن اخترت الكورنيش العام لأنه مجاني فأنصحك بأن يكون لديك أي نوع من السلاح تصد به هجوم الفئران التي وجدت المرتع الخصيب فوق حجارة الكورنيش؛ بسبب ما يتركه ربعنا -هداهم الله- من بقايا مأكولاتهم. وللحق أقول: إنني أتكلم عن الكورنيش مما رأيت شخصياً ذات مرة منذ ما يقرب من ثلاث سنوات، دعانا قريب لنا وذهبنا عائلتين لتمضية بعض الوقت في مكان ما على الكورنيش، وانتظرنا إلى أن هدأت الحركة قليلاً في وقت متأخر من المساء قبل أن نمد السماط لإخراج الساندويتشات، وصدف أن كنت أتطلع إلى الحجارة التي رصت لصد أمواج البحر ولفت نظري شيء يتحرك في أحد الشقوق - وعندما ركزت نظري

وجدت فأرة تطل برأسها من فوهة بين الأحجار، كانت جريئة أخذت تتلفت يميناً وشمالاً، ولما التقت عيني بعينها فوجئت أن الفأرة تغمز لي، التفت لأرى إن كانت أم نزار تشاهد المشهد، لكنها لحسن حظي كانت مشغولة بتوزيع الساندويتشات على الأولاد، وإلا لا أدري ماذا كان سيحصل لو رأت الفأرة وهي تغمز لي. إنما هل رأى أحد منكم قط فأرة تغمز؟ ■

موسوعة الأدب العربي السعودي الحديث هل هو نقد أم مهاترة؟ (١)

قرأت بعض كتابات وتعليقات على موسوعة الأدب العربي السعودي الحديث التي قام بإعدادها الدكتور منصور الحازمي رئيساً وأعضاء هم : د. عبدالرحمن الأنصاري - عبدالرحمن الأحمدي - د. عبدالله المعيقل - د. عزت خطاب - د. مرزوق بن تنباك - د. معجب الزهراني.

لم يدر بخلدي أن أكتب شيئاً عن الموسوعة على الرغم من أنني وأنا الأكاديمي القديم الذي علا الصدأ قدراتي المعرفية بعد مضي سنين عديدة على تركي لعالم البيان وابتعادي عن الغوص في بحور الأدب، إلا أن ما وقع تحت يدي من كتابات عن الموسوعة المذكورة وما قرأت من هجوم شرس من بعض الكتاب، هجوماً ابتعد قدر ما يستطيع عن المنهج النقدي المتجرد الذي يفترض فيه أن يستعرض ويقيم النماذج الأدبية المتنوعة التي تمثل الحقب الثلاثة من العهد السعودي منذ بدايته إلى اليوم، وانصب بدلاً من ذلك على أشخاص أصحاب الموسوعة أو بالأحرى على رئيسهم منصور الحازمي. كل هذا دفعني دون تردد كبير إلى الرد على التهم والافتراءات التي ألصقها المهاجمون بأصحاب الموسوعة، والتي لم يتوانوا فيها حتى عن التفكير

---

(١) نشرت في جريدة الجزيرة في ٦ / ٩ / ١٤٢٣هـ، الموافق: ١١ / ١١ / ٢٠٠٢م.

في تقديم شكوى رسمية ضدهم إلى راعي الموسوعة وممولها صاحب السمو الملكي الأمير سلطان بن عبدالعزيز.

لم أجد مما قرأته أية إشارة إلى أي عمل ضمته الموسوعة من حيث قيمته الأدبية ومدى مساهمته في نمو الحركة الأدبية التي حددتها المجموعة مع بداية العهد السعودي المجيد في هذه البلاد. بل كان كل همّ الكتاب الذين قرأت لهم هو زعمهم أن الموسوعة ولدت ميتة وغير ذات قيمة؛ لأنها لم تتضمن كتابات لهم أو لأشخاص يرون هم أنها كان يجب أن تضم إلى الموسوعة. ولقد فاتهم أن مؤلفاً كهذا الذي نتحدث عنه لا يمكن بحال من الأحوال أن يضم كل ما كتب في المملكة على مدى مئة عام. ولو كلف أحد نفسه الاطلاع على المقدمة التي أعدتها المجموعة لقرؤوا فيها أنها عندما فكرت في مشروع موسوعة عن الأدب العربي السعودي الحديث «كانت تدرك تواضع إسهامها، وان كلمة (موسوعة) قد لا تنطبق أصلاً على مجموعة من المختارات والمقدمات ولكنها تبنت هذا المصطلح للتعبير عن مختلف الأفكار والثقافات والاتجاهات التي عاشتها بلادنا خلال مئة عام». الموسوعة المجلد الأول ص ١٥ .

وقد أدرك أصحاب الموسوعة منذ البداية أن اجتهادهم واختيارهم للنماذج التي احتوتها موسوعتهم قد لا ترضي جميع الأذواق، وربما سقط منها سهواً بعض النصوص، أو بعض الأسماء، «ولكننا حاولنا جهدنا أن نكون موضوعيين وحياديين وشموليين في هاتين المناسبتين العزيزتين: مئة عام على تأسيس المملكة، والرياض

عاصمة للثقافة العربية. ونأمل تدارك أي نقص في هذه الموسوعة في طبعاتها القادمة بمشيئة الله». المجلد الأول ص ٢٦.

معظم من كتبوا عن الموسوعة يتهمونها بتجاهل عدد كبير من الكتاب والأدباء. وقد اشتركت جريدة الجزيرة نفسها بقصد أو دون قصد بتوجيه التهمة نفسها للقائمين على الموسوعة - وهذا محرر بالجزيرة يعبر عن هذا التقصير المزعوم بأنه (صعقة)، ولا أدري كيف أتى بهذا الوصف وكيف أجاز لنفسه أو أجازت له جريدته أن يستخدم لفظاً كهذا، مع العلم أن الموسوعة ضمت بين جوانحها مثلاً عشرين اسماً من كتّاب الروايات الطويلة بينهم ثلاث نساء، كما ضمت اثنين وثلاثين روائياً شملت أعمالهم فترات البدايات والتأسيس والتجديد والتحديث. ضمت الموسوعة أيضاً ثمانية وعشرين كاتباً للسيرة الذاتية شملت أيضاً المراحل المختلفة من التاريخ الأدبي للمملكة، وضم جزء النقد الأدبي خمسة وخمسين كاتباً شملت أعمالهم المراحل الثلاثة التي تصدت لها الموسوعة - وهي مرحلة التأسيس ومرحلة التجديد ثم الوقت الحالي وهو التحديث. أما عن مجلديّ الشعر والمقالة فقد شملت معظم شعراء المملكة وكتابها على مدى المئة عام الماضية.

وأعرض الآن لبعض نماذج مما حفلت به مقالات وتعليقات أولئك الذين ظنوا أنهم يكتبون عن الموسوعة، فإذا بهم يكيلون السباب والتهم ويأتون بألفاظ وكلمات وتعليقات لا يمكن إطلاقاً أن تدخل في باب النقد الأدبي المتجرد. أنت تقرأ ما سطرته أقلام أولئك الكتاب ولا تملك إلا أن تصنفه تحت باب الشتائم والتهم موجهة إلى أولئك

الأساتذة الذين عملوا لأيام وأشهر عديدة يقرؤون ويصنفون ويقيمون عشرات من الأعمال الأدبية ليختاروا من بينها ما رأوه جديراً بأن يدخل موسوعتهم.

خذ مثلاً ما قاله شخص اسمه أحمد الدويحي؛ فهو أولاً يقرر أن الميزانية التي حصل عليها رجال الموسوعة تكفي «ميزانية لوزارة ثقافة وليس فقط لإعداد موسوعة ناقصة». كلام أقل ما يقال عنه أنه غير مسؤول. ثم يزيد: «وإلا ما معنى أن يعمد أولاً القائمون عليها بتجاهل نتاجات أدبية ذات قيمة عالية وتجاهل أسماء لا يمكن تغييب حضورها بسبب أو لآخر إلا لأن من تابع تلك النشاطات وتلك الأسماء إما أن يكون جاهلاً بقيمتها أو دورها الثقافي أو يكون في نفسه مرض»! جريدة الجزيرة ٢٥ شعبان ١٤٢٣هـ.

أما الأستاذة رقية حمود الشبيب فعندما قرأت ما قالته ظننت أنها تتحدث عن كارثة أصابت البلاد والعباد، ثم هي تندب سوء حظها على العمر الذي أفنته في العطاء والكتابة ومع ذلك لم تجد اسمها في الموسوعة. وأنا أعترف في البداية ومع كل الاحترام للسيدة رقيه الشبيب أنني لم أسعد بقراءة شيء لها، وأعرف أنها تكتب القصة القصيرة. ثم أود أن أهمس للسيدة رقية أنه لا يوجد شيء اسمه أدب نسائي وأدب رجالي، فالأدب هو الأدب، وما يستحق منه هذا الاسم يثبت وجوده سواء ظهر في موسوعة أم لم يظهر. واتهام الدكتور معجب الزهراني بأنه (المبهور المتعالي) لم يكن موفقاً. وأخيراً هي ترسل استغاثة إلى سمو الأمير سلطان شاكية إليه الظلم الفادح الذي لحق بها

لعل سموه يعيد النظر «في هذا العمل الناقص الذي أوكل إلى من ليسوا بكفء للقيام به». جريدة الجزيرة ٢٥ شعبان ١٤٢٣هـ. مرة أخرى الهجوم على الأشخاص أنفسهم دون كلمة واحدة عن العمل نفسه!.

مرة ثانية نقول: إنه من المستحيل أن تشتمل الموسوعة - على الرغم من اسمها - على كل ما كتب في هذه البلاد على مدى مئة عام؛ ونكرر أن العمل الجيد في كل مجالات الجهد البشري يثبت وجوده في النهاية. ولا يحتاج أدباء وعبقريو العالم أن تظهر أعمالهم في موسوعات حتى تشتهر وتدوم. ولنذكر فقط ما وصل إلينا وما سوف يبقى على مدى الدهور من كلاسيكيات الآداب الإغريقية والرومانية والعربية وغيرها من الإنجازات الرائعة التي حققها الجنس البشري على مدى تاريخ الإنسانية. ثم الإبداعات في العصور الحديثة في مختلف المجالات، وأي عمل جيد لا بد وأن يعلن عن نفسه ولو بعد حين.

حقيقة الأمر - وأقولها بشيء من الحزن - إنه لا يكاد يوجد لدينا نقد نزيه حسب الأصول الأكاديمية لهذا الجنس من الأدب، بل يوجد في أغلب الحالات خصام أو ربما تصفيه بعض الحسابات مع صاحب العمل دون التعرض للعمل نفسه.

ومن نماذج الخصام الشخصي ما كتبه الدكتور سلطان القحطاني، فهو يعرِّف الموسوعة بأنها ليست من الأعمال الشاقة «فهي عمل أرشيفي يقوم به المأجور من العاملين عليه، لكن المعول عليه في هذا العمل هو الدكتور منصور الحازمي وهو من أوائل الجامعيين

السعوديين والحاصل على جائزة الملك فيصل العالمية مناصفة - وبارك الله في الدكتور إبراهيم السعافين الذي شمله فضله بنصف الجائزة». هل يستحق من يكتب مثل هذا الهراء أن ينتسب إلى عالم الأدب والمعرفة؟ وهل يعتبر الدكتور القحطاني أن الجهة التي رشحت الدكتور الحازمي للجائزة واللجنة التي أجازت ذلك الترشيح، هل يعتبر كل ذلك باطلاً ولاغياً ولا قيمة له، وأن الفضل لنيل الحازمي للجائزة هو ما تفضل به عليه الدكتور إبراهيم السعافين بمنحه نصف جائزته؟ ثم إن الدكتور القحطاني يدين نفسه بنفسه عندما يتهم أصحاب الموسوعة بالمجاملة الشللية بينما هو يقع بلا وعي منه في براثن الشللية عندما أيد نيل الدكتور الحازمي لجائزة الملك فيصل العالمية؛ لأنه زميلاً له - بينما في مقالته هذه (الجزيرة ٢٥ شعبان ١٤٢٣هـ) يؤكد رفضه لمثل تلك المجاملات التي تخرج الأدب عن هدفه الأسمى! وهو إنما يتواضع عندما يتكلم عن الدكتور الحازمي فقط. أما الآخرين الذين اشتركوا في عمل الموسوعة «فلا حساب لهم في الساحة الثقافية».

لقد شطب هذا الرجل بجرة قلم كل التاريخ الأدبي العلمي وكل الأبحاث والدراسات والإنجازات التي حققها الدكاترة عبدالرحمن الأنصاري وعزت خطاب وعبدالله المعيقل ومرزوق بن تنباك. تاريخ هؤلاء الرجال الذين امتد لعشرات السنين في حقول التدريس والأبحاث العلمية والتأليف، ألغاه القحطاني بهذه البساطة ودون أن يرف له جفن ويا للجرأة! إلا أنها ليست جرأة بالحق. أخيراً يقرر الدكتور القحطاني أن

«أحداً من الهيئة لم يكن متمكناً من أصول كتابة الموسوعات». لكنه لم يتفضل على أعضاء الهيئة بأن يريهم كيف تكتب الموسوعات.

ممن كتبوا عن الموسوعة أيضاً الشيخ عبدالله بن إدريس الذي يبدو أنه سعد بأنه (فجر قنبلة بحجم الوطن) حسبما عبر عن ذلك أحد الذين حضروا الندوة عن الموسوعة التي عقدت في النادي الأدبي بالرياض. ظهرت كلمة الشيخ عبدالله في عمود في جريدة الجزيرة في ٣٠ شعبان اختار له عنواناً هو: (ويحك ياموسوعة الأدب) ولا يخفى فيما في العنوان من إثارة مقصودة. وهو يبدأ بأن يعيب على أصحاب الموسوعة أنهم أنجزوا موسوعتهم في ليل بهيم دون أن يعلنوا عنها. ولا أعلم لماذا كان الشيخ عبدالله يتوقع أن يعلن هؤلاء أنهم ينوون أن يخرجوا موسوعة عن الأدب السعودي. معظم الكتاب والأدباء والمؤلفين عموماً يفاجئون الناس بما أنجزوا بعد أن تخرج أعمالهم إلى الوجود. وهل كان المتوقع أن يعلن هؤلاء عن نيتهم في عمل الموسوعة ويدعون الأدباء والكتاب كلهم للمشاركة؟

يقال عادة: إنك إذا أردت أن تقتل مشروعاً شكل له لجنة. واللجنة تتكون طبعاً من بضعة أشخاص، فما بالك لو اجتمع كل ذي قلم في المملكة للمشاركة بعمل موسوعة؟ وماذا ستكون النتيجة؟ ثم ماذا يضير أصحاب الموسوعة إذا كانوا على (اتجاه فكري واحد أو متقارب) وهم على كل حال ليسوا كذلك؟ إن الشيخ عبدالله يعترض حتى على تقارب مساقط رؤوسهم، وكأن تقارب مساقط رؤوسهم ذنباً عليهم أن يعتذروا عنه، أو أنهم من بلدان غير هذا البلد. والغريب أن

الشيخ عبدالله ينتقد الموسوعة قبل أن يطّلع عليها كما قال في عموده المذكور، وهذا يخالف أبسط قواعد النقد الجاد. ثم من أين جاءته المعلومة أن ثمن النسخة هو خمسة آلاف ريال؟ بينما الحقيقة أن النسخة تباع بخمس مئة ريال فقط وليس بخمسة آلاف. ولا أعتقد أن الشيخ عبدالله يجهل أن آخر ما يفكر فيه العربي عموماً وليس السعودي فقط هو شراء كتاب مهما كان ثمنه، وأن أحداً في بلاد العرب لم يغتن من تأليف الكتب التي يقع ثقل تكاليف طبعها - عدا جهد تأليفها المضني - على كاهل المؤلف الذي لا يجد مناصاً من إهداء كتبه للأصدقاء وغير الأصدقاء. ولا أشك أن الشيخ عبدالله وهو الأديب ذي الباع الطويل في دنيا الأدب والتأليف لا أظنه تغيب عنه المقولة الكلاسيكية المشهورة من أن فلاناً أدركته حرفة الأدب: يعني صار فقيراً!

وإذا كان صاحب السمو الملكي الأمير سلطان بن عبدالعزيز قد تفضل مشكوراً بمنح أصحاب الموسوعة ثلاثة ملايين ريال لإخراجها إلى الوجود فهذا ليس غريباً ولا كثيراً على سمو الأمير سلطان الذي عرف عنه أنه السبّاق إلى كل عمل خيّر سواء في تأليف الكتب أو غيرها. ولقد تمنيت على الشيخ عبدالله أن لا ينساق وراء (ثللية) المهاجمين، كما يسميها، وأن يتريث قبل أن يفترض أن المبلغ الذي تفضل سمو الأمير سلطان بتقديمه لتكاليف إخراج الموسوعة قد ذهب إلى جيوب القائمين عليها. وهو يضيف: «مع أنهم قد غرقوا إلى حلاقيهم بكرم أمير الكرم سلطان بن عبدالعزيز الذي أغدق عليهم ما

يغنيهم عن بيعها لولا جبلة الطمع الإنساني الذي لا ينتهي عند حد كما قال نبي الهدى محمد بن عبدالله عليه صلاة الله وسلامه «لو أعطي ابن آدم واديين من ذهب لابتغى لهما ثالثاً - ولا يملأ جوف ابن آدم إلا التراب» والادهى من ذلك أنه أخذ هذر الدكتور الحازمي مأخذ الجد عندما قال هذا مازحاً: «نريد أن ننتفع».

وأخيراً أتمنى إن يكون الشيخ عبدالله قد تمشى هو نفسه مع الحكمة التي أوردها في نهاية مقاله: «حبذا وجود الوسطية في كل أعمالنا وأقوالنا ومسالكنا في هذه الحياة».

لعل الناقد الوحيد، مما قرأت، الذي التزم بأصول وقواعد النقد الهادف والذي لم أجد فيه الخصومة الشخصية التي وجدتها في الآخرين هو الدكتور محمد بن سعد الشويعر. فهو قد أبان أوجه النقص والقصور التي لا ينكرها القارئ المتبصر بل ولا ينكرها أصحاب الموسوعة كما أسلفنا. لقد كانت نظرة الدكتور الشويعر للموسوعة نظرة فاحصة متأنية ملتزمة بأصول النقد الملتزم، أشاد فيها بالمجهود الذي بذل في إخراج العمل، وتمنى على أعضاء اللجنة العلمية أن يتلافوا ما قصروا عنه في طبعات لاحقة، وهو ما لم يكن قد خفي على الدكتور الحازمي كما بينه في مقدمة المجلد الأول.

لم يدَّعِ أصحاب الموسوعة أنهم بعملهم هذا قد أتوا بما لم تستطعه الأوائل. بل هم يعترفون أنها بداية متواضعة، وأنهم على ضوء الدراسات والنقد الذي سوف تستجلبه الموسوعة سوف يحاولون

في طبعات لاحقة أن يتلافوا ما غاب عنهم في الطبعة الأولى. إن من غير المنطق أو الواقع أن تشمل هذه الموسوعة كل ما خطته أقلام الكتاب والأدباء السعوديين على مدى مئة عام. والغريب أن بعض من هاجموها توجد لهم فيها نماذج من كتاباتهم، ولا ندري كيف يتصور أولئك أن تظهر كل أعمالهم وأعمال غيرهم في موسوعة لم يكن هدفها أن تشتمل على كل ما طبع في هذه البلاد من رواية وشعر ونقد ومقالة وسيرة ذاتية وغيرها. ولكن وكما ذكرت لم يكن معظم ما كتب للأسف موجهاً أصلاً لما حوته الموسوعة، بل كان سيلاً من الاتهامات والبذاءات التي ربما قد تدخل بعضه تحت طائلة القذف. ولا أستبعد أبداً أن بعض من نفثوا سمومهم تجاه أصحاب الموسوعة، لا أستبعد أبداً، أنهم إنما أرادوا أن يلفتوا الانتباه إلى وجودهم، وهم بذلك قد نجحوا فيما أرادوه.

في كل مكان وكل زمان يتسلق الصغار أكتاف الكبار ليطلوا على العالم من فوق أكتافهم. ويحسن بنا في هذا المجال أن لا ننسى عنصر الحسد الذي قد يتسلل إلى نفوس بعض أصحاب المهن الواحدة إذا برز من بينهم واحد ونال حظاً من الشهرة والتكريم. وقد نال الدكتور الحازمي شهرة وتكريماً قد يرى بعض زملاء المهنة أنهم الأجدر بأن ينالوهما هم أو على الأقل يكون حظهم مثل حظه. وهذا ضعف إنساني موجود في النفس البشرية ولا سبيل إلى إنكاره أو تغييره، ولكن يمكن التغلب عليه بتفعيل المشاعر الإنسانية الراقية المغروسة في وجدان كل منا ■

حول دراسة الدكتور عبدالله العثيمين [١]

عن ترجمتي لكتاب: عبر الأراضي الوهابية على ظهر جمل

لقد تفضل الأخ الدكتور عبدالله الصالح العثيمين بقراءة كتابي المترجم **عبر الأراضي الوهابية على ظهر جمل** ثم كتب نقداً عنه من ثلاث حلقات في جريدة الجزيرة الغراء. والكتاب من تأليف باركلي رونكيير الذي قام برحلته إلى الجزيرة العربية في عام ١٩١٢م.

لا شك أن النقد في عالم الكتب والدراسات عامة هو الشريان الذي يبعث فيها الحياة، وهو الدليل على أن العمل المنقود ترك أثراً لدى القارئ يستحق أن يعلن عنه سواء أكان ذلك الأثر سلباً أم إيجاباً أم خليطاً من كليهما. وأنا من هذا المفهوم أشكر الدكتور عبدالله على دراسته التي ظهرت عن كتابي في ثلاث مقالات. كما أود أيضاً وبالتواضع المطلوب هنا أن أعبر له عن امتناني عندما اختار أن يذكر أنني درَّسته عندما كان طالباً في كلية الآداب. درَّسته باللغة الإنجليزية ـ وأنا على كل حال لم أمارس التدريس في الجامعة إلا لفترات قصيرة متباعدة طبقاً لظروف ليس هنا مجال الحديث عنها. وإنما الشيء الذي أود أن أضيفه هو أنه يحدث أحياناً أن يبذ التلميذ أستاذه وهو ما حاول الدكتور عبدالله جاهداً أن يظهره ـ ولا لوم عليه، فلا شيء يسعد الأستاذ أكثر من أن يتفوق تلميذه عليه.

(١) نشرت في جريدة الجزيرة في ٢٥ / ٢ / ١٤٢١هـ، الموافق: ٢٩ / ٥ / ٢٠٠٠م.

لقد قدم الأخ الدكتور عبدالله العثيمين دراسة مستفيضة وقيمة عن ترجمتي لرحلة باركلي رونكيير استحق عليها شكري وثنائي ولفت انتباهي إلى غلطات وهفوات كان حرياً بي مع شيء من المراجعة أن أتجنبها. منها مثلاً تشكيل العنوان الذي وضع فتحات على كلمة «عَبّرَ» فجعلها «عَبَرَ» وهذا خطأ واضح كان يجب أن أنتبه له[1]. ولكن الأهم من هذا هو أسماء الأماكن التي مر بها الرحالة. وأنا هنا أعترف أنه كان يجب أن أستعين بأحد المختصين. لكن عذري هو أن المسؤول في مكتبة العبيكان الذي تولى أمر الكتاب هو شاب مجتهد ومثقف أكد لي أن لديهم مختصين أكفاء في الجغرافيا واللغة العربية، وأنهم سوف يقومون بالمراجعة والتصحيحات اللازمة. وهو ما لم يحصل.

يتناول الدكتور عبدالله الترجمة نفسها ويعدد بعض المثالب التي يرى أنني وقعت فيها، ويختار جملاً من الكتاب ويعيد ترجمتها كما يرى أنها يجب أن تكون. بداية أقول للأخ عبدالله - ولا أظنه يجهل ما سأقوله - إنه لا توجد أبداً ترجمة حرفية كاملة. والسبب أن كل لغة في الدنيا تضع معانيها الخاصة بها في كلماتها حسبما تتشكل هذه المعاني في وجدان شعوبها. بمعنى أن شيئاً بسيطاً واضحاً مثل كلمتي الشمس والقمر مثلاً نجد أن لهما معاني ودلالات تتباين لدى كل مجموعة من الناس أو مجتمع حسبما يشكلها وعي ذلك المجتمع، كما أن تلك المعاني والدلالات تتغير أيضاً على مدى الأيام في البلد

(١) لقد تم تصحيح هذا الخطأ في الطبعة الثانية للكتاب.

الواحد نفسه وبين الشعب الواحد؛ لأن اللغة كائن حي يولد ويتطور ويموت. وتبقى هناك دائماً الدلالات المتعددة المتعلقة بكل كلمة، والتي تأتي بمعان تختلف باختلاف النص، مما يجعل الترجمة الحرفية الكاملة كما أشرنا ضرباً من المحال. فأنا عندما ترجمت كلمة Elders of Islam «علماء المسلمين » لم أكن مخطئاً لإنها بالسياق الذي أتت به وما قصده الكاتب كان هذا معناها. وعلى كل حال فكلمة Elder تعني فعلاً شخصاً كبير السن، ولكنها كما يعرف الذين يتقنون الإنجليزية تعني الكبير السن الذي يتمتع بالحكمة والمعرفة. كما أن كلمة Proclaiming التي يعترض أيضاً عليها الأخ عبدالله، فهي في سياق النص تعني (مدعياً) كما ترجمتها وليس المعنى الظاهر لها وهو (معلناً) كما ظن الدكتور عبدالله.

يقول الدكتور عبدالله في مكان آخر من دراسته «أما أن أتباع الشيخ محمد أطلقوا على أنفسهم جماعة الدعوة فأمر لم أره في كتاباتهم». وهو بهذا يرد على ما قلته في مقدمتي من أن أتباع الشيخ محمد بن عبدالوهاب كانوا أحياناً يطلقون على أنفسهم «الموحدون» أو جماعة الدعوة.. وأنا لا أرى غرابة في إطلاق مثل هذه المسميات على أناس كانوا ضالين ثم اتبعوا طريق الهدى الذي بينه لهم الشيخ محمد ورجعوا إلى الإسلام الصحيح. وأنا هنا أحيل الأخ عبدالله إلى كتاب عنوان المجد في تاريخ نجد لعثمان بن بشر الحنبلي، وعلى حاشية الصفحة الثانية من الكتاب الذي نشرته مكتبة الرياض الحديثة نقرأ «ثم إن هذا الذي منَّ الله به على أهل نجد بعدما كثر فيهم الجهل

والظلال والظلم إلخ...» هذه العبارة ربما استشكلها من لم يطّلع على الحال الأولى في نجد قبل دعوة الشيخ محمد بن عبدالوهاب رحمه الله؛ وما صاروا عليه بعد دعوته، فكانت عبادة غير الله والتحاكم إلى الطواغيت... إلخ». ونقرأ أيضاً في كتاب تاريخ نجد لحسين بن غنام الذي حققه الدكتور ناصر الدين الأسد في صفحة ٩٩ «وفي هذه السنة ارتد إبراهيم... ونقض عهد الشيخ محمد بن عبدالوهاب والأمير محمد بن سعود وقتل من أشراف بلده وقومه وجماعة هم... لأنهم من أهل الدين ومن دعاة الإسلام».

ويشير الأخ عبدالله إلى بعض فقرات أو جمل قائلاً: إن الترجمة تقرأ وكأنها كلمات إنجليزية كتبت بالعربية. وهذا حكم أتركه لمن يهمهم أن يقرؤوا الكتاب. ولكن أود هنا أن أنقل فقرة اعترض الدكتور عبدالله ليس فقط على ترجمتها ولكن على مدلولها التاريخي، ولا أظنني في حاجة هنا أن أقرر حقيقة واضحة هي أن عملي مقصور على الترجمة فقط وليس على دراسة تاريخية. فأنا لست مؤرخاً ولم أحاول في ترجمتي أن أفند أو أعترض أو أصحح، تاريخياً أو غير تاريخي. فهذا عمل آخر منفصل يقوم به من هو مؤهل له. والفقرة المقصودة التي يعترض عليها الدكتور عبدالله هي: «إن رغبة الاستقلال لدى المدن الحدودية وخاصة بريدة وعنيزة – هذه الرغبة كانت ولا تزال قائمة» – الشيء الذي لاحظه رونكيير. وفي وقت رحلته إلى المنطقة لا بد أنه كان هناك رجال أحياء لا زالوا يذكرون كفاح

عنيزة من أجل الاستقلال، مما يكون ربما قوّى من رغبة أمير بريدة التخلص من ذلك الأجنبي الفضولي دون أن يدخل عنيزة.

ليس المهم أن الناقد قدم ترجمته هو للفقرة السابقة ولكن أن يطالبني بما هو خارج عن الهدف الذي تصديت له وهو الترجمة، فهذا لا أحسبه عدلاً في قانون النقد. يقول الأخ عبدالله: «على أن الأهم من دقة الترجمة أو عدم دقتها هو الواقع التاريخي....» ثم يسترسل في الحديث عن أمراء عنيزة وبريدة وعلاقاتهم مع الملك عبدالعزيز. أنا لا أختلف حول الحقائق التاريخية مع الأخ عبدالله، لكنني أكرر أنني أترجم كتاباً، وأمانة الترجمة تتطلب أن أنقل ما جاء في العمل المترجم، سواء أكان صحيحاً تاريخياً أم واقعياً أم معقولاً أم غير ذلك. وقد ذكرت في مقدمتي للكتاب أن أولئك الرحالة يذهبون للبلاد التي يريدون اكتشافها وأدمغتهم قد تكون محشوة بأنواع شتى من المعلومات مما قد يكونون قد قرؤوه وسمعوه عن المناطق التي يقصدونها، وكثير منهم لا يتوانون عن الإتيان بالغريب والخرافي والخيالي لجذب انتباه القارئ - كما أن بعضهم قد يتعمد الإتيان بمعلومات غالباً مغلوطة وغالباً منحازة وغالباً غير متعاطفة وغالباً قصيرة النظر. ولكن هذا لا يعني أن بعض الرحالة قد تركوا آثاراً طيبة وسجلوا ما شاهدوا بصدق وعدل. وفي كل الأحوال على من يتصدى للترجمة أن ينقل ما يترجمه بأمانة، أما المجالات التاريخية أو أية مجالات أخرى فهي أمور مختلفة لا تدخل ضمن عمل المترجم ■

رحلة المجلة العربية في أعماقي[1]

جمال الحياة يكمن عندي في ابتسامة طفل أو تغريد قُبَّرة

هذه (اللقاءات) أجمل ما فيها أنها تجيء بعيدة عن روتين العمل، ورتابة القيود. تجيء عفوية تكشف - بصدق - عن بعض الجوانب الشخصية وجوانب الحياة لمن تتم استضافته، بعيداً عن كرسي العمل وهموم المسؤولية، رحلة مع الضيف، الإنسان والزوج والقارئ والرجل العادي، إنها رحلة في عقل الضيف ووجدانه ليعرف القراء أشياء لا يعرفونها عنه.. وضيفنا في هذا العدد هو معالي الأستاذ. منصور بن محمد الخريجي نائب رئيس المراسم الملكية.

●● ما أعظم شيء يبعث الراحة في نفسك في هذه الحياة؟

■ **أن آوي إلى فراشي وأنا أعرف أنني أديت خدمة أو قدمت مساعدة ما لإنسان يستحقها.**

●● بيت شعر تردده دائماً؟

■ **شربنا بكأس الفقر يوماً وبالغنى**

وما منهما إلا سقانا به الدهر

(١) نشرت في المجلة العربية في ذو القعدة ١٤١٤هـ، الموافق: أبريل ١٩٩٤م.

فما زادنا بغياً على ذي قرابة

غنانا ولا أزرى بأحسابنا الفقر

●● «ضعيف» متى تشعر أنك ذلك الرجل؟

■ **كلما سمعت أن أحد الأصدقاء أو المعارف قد غادر دنيانا الفانية هذه.**

●● جمال الحياة عندك أين يكمن؟

■ **في ابتسامة طفل أو في تغريد قبرة وقد حلقت في السماء بعيداً عن صخب الحياة في يوم ربيع اكتست فيه الأرض حللاً زاهية مما تنبت، وحارت فيه الشمس بين أن تظهر أو تختفي على استحياء خلف ستارة نصف شفافه من الغيوم فلم تستقر على حال.**

●● المهاترات الصحفية، ماذا تقول عنها عندما تراها على صفحات الصحف والمجلات؟

■ **إذا كانت مجرد مهاترات فهي لا تستحق التعليق. وإذا كانت معارك جادة تدافع عن وجهات نظر مختلفة في المجالات المتعددة فهي صحيّة تثري القارئ وتفتح له آفاقاً من المعرفة. وفي تواريخ الأمم المختلفة نماذج كثيرة منها.**

●● دعاء تقوله دائماً؟

■ **اللهم إليك أشكو ضعفي وقلة حيلتي.**

●● رؤساء تحرير الصحف والمجلات. ماذا تقول لهم؟

■ **الفراغ المتروك للإجابة لا يكفي ما أودّ أن أقوله. ولهذا لا أقول لهم شيئاً.**

●● ذنب لا تغفره لأحد؟

■ **أنا أميل للتسامح، إنما يؤلمني جداً أن أرى إنساناً يقابل الإحسان بإساءة.**

●● دمعة غالية ذرفتها ولم تنسها حتى الآن؟

■ **دمعة غالية تعني أن هناك دمعة غير غالية، يعني دمعة رخيصة. فهل هذه مثلاً دمعة زوجة طلبت من زوجها أن يشتري لها عقد ألماس لا يملك ثمنه؟ أما الدمعة الغالية فلست أنا فقط الذي يذرفها، بل نحن جميعاً نحتاج منها إلى شلالات نذرفها على ما يصيب المسلمين هذه الأيام من مآسٍ ومحن.**

●● بصراحة، هل كنت تطمح إلى أن تكون كما أنت الآن؟

■ **الطموح عندي بدأ صغيراً جداً. مثال ذلك عندما التحقت بكلية الآداب، قسم اللغة الإنجليزية، كان أقصى طموحي أن أعرف أنني أستطيع المضي في ذلك القسم وأنجح إلى السنة الثانية.. وهكذا.**

●● شاعر تحب شعره، وكاتب تقرأ له، وقارئ تحب الاستماع إلى تلاوته، وصحيفة تحرص على قراءتها؟

■ **من أصعب الأمور في زماننا هذا والمطابع في العالم أجمع ترمي إلينا بآلاف الكتب والمطبوعات المتنوعة من صحف ومجلات. أقول من الصعب أن يقصر الإنسان قراءاته على كاتب معين أو شاعر**

واحد.. إلخ؛ ولذا تجدني في جميع الأوقات منهمكاً في قراءة أكثر من كتاب في آن واحد، ويظهر أن العصر الذي نعيشه لا يساعد على أحسن من هذا.

●● الصبر، هل تتعامل معه؟

■ **اسأل الصبر وهو يخبرك.**

●● الضوء، متى تحسّ به يشرق في وجدانك؟

■ **عندما أقدّم خدمة لإنسان يستحقها.**

●● متى تغضب، ومتى تفرح؟

■ **الغضب ضرب من الرفاهية لا يستطيع كل إنسان أن يتمتع به كلما أراد. ولكن عندما تتوفر إمكانية الغضب في الموقف الذي يستحقه، فأنا من الذين ينقادون له بسهولة. هكذا على الأقل يقول المحيطون بي. أما الفرح فأرى أنه أصبح عملة نادرة في أيامنا هذه.**

●● عندما تتقاعد من عملك، ما العمل الذي ترغب في مزاولته؟

■ **إذا شاء الله تعالى وطالت بي الحياة بعد التقاعد أرغب في أن أقضي وقتاً كبيراً في السفر والتجوال في بلاد الله الواسعة التي لم أرها. وما توفر من وقت بعد ذلك أخصصه للقراءة، وربما أكمل بعض المشاريع الكتابية التي أبدؤها ولا أنهيها.**

●● رسالة واحدة قصيرة، لو طلبنا منك أن تبعثها، فلمن تبعثها؟ وماذا ستقول فيها؟

■ **هذه الرسالة لا بدّ وأن أبعث بها إلى رجال المرور بالمملكة. والسبب واضح، فلا يكاد يمضي يوم دون أن نسمع أو نقرأ عن حوادث السير المأساوية. فكم من أمّ ثكلى كان معها ابنها في العام الماضي وهو الآن موارى تحت التراب. وكم من عائلة أبيدت عن آخرها بسبب التهور في قيادة السيارة. المطلوب من رجال المرور والقائمين عليه العمل الجاد الذي يقلل من حوادث المرور. والمطلوب من باقي الناس الوعي، والتبصر والأخذ بالاعتبار أن السيارة أداة نقل من مكان إلى آخر وليس من الدنيا إلى الآخرة.**

●● قول تؤمن به، وأفدت منه في حياتك وسلوكك؟

■ **ازرع المعروف ولو في غير أرضه.**

●● كلمة النقد توجه إليك ضمن حدود مسؤوليتك، كيف تواجهها؟

■ **حسب ما تستحق.**

●● لديك موظف أخطأ في عمله، كيف تستطيع أن تصحح خطأه دون أن تخسره؟

■ **أدله على الصواب قدر ما أعرف أنه الصواب، ولم يحدث أن خسرت أياً من زملاء الوظيفة.**

●● كتاب قرأته ولا يزال صدى أفكاره يتردد في نفسك؟

■ **ليس صدى الأفكار، بل هو الفحوى والمضمون الذي لا يزال وسوف يبقى يتردد في نفسي، وهو كتاب (دولة الإسلام في الأندلس) لمحمد عبدالله عنان.**

●● منظر شاهدته في حياتك ولم تنسه؟

■ **هو منظر السوق في سراييفو وقد سقطت عليه قنبلة الصرب فحوّلت المتسوقين من رجال ونساء وأطفال إلى أشلاء وقطع لحم متناثرة.**

●● متى تأوي إلى فراشك وتحسّ أن ضميرك مرتاح؟

■ **يحدث هذا كل يوم.. أنا أخاف من الأرق فقط.**

●● وشاية أطلقت عليك كذباً، كيف تقابلها؟

■ **حدث فعلاً أن أطلقت عليّ وشاية. والواشي والموشى إليه لا يزالان بيننا. وقد كشفت الوشاية في حينها ثم نسيتها.**

●● الوساطة، هل تتعامل معها، هل تقبلها إذا كانت في حدود المساعدة دون إضرار بالآخرين؟

■ **نعم. والوساطة ستبقى ما بقي الإنسان على الأرض.**

●● الهلال، تراه مستديراً مكتملاً، ثم يأخذ بالتضاؤل، إحساسك بهذا؟

■ **كل شيء إلى زوال.**

●● يا من يعزّ علينا أن نفارقهم

وجداننا كل شيء بعدكم عدم

ما الموقف الذي دعاك لاستعادة هذا البيت؟

■ لا أجيب عن سؤالك هذا، فهذا يحتاج مني إلى تأليف رواية من عدة أجزاء ولا أظن المجال يسمح لها الآن. ■

خمسون في خمسين مجلة اليمامة[1]

هذه «خمسون» جواباً عن «خمسين» سؤالاً. وكل أسبوع هناك وجه ثقافي أو اجتماعي يأخذ قلماً ومُمحاة فيكتب هذا ويمحو ذلك حتى يكتمل الجمع خمسون في خمسين.

● من أنت؟

- **وما المرء إلا اثنان عقل ومنطق.**

● ما الذي يؤرقك؟

- **مستقبل أبنائنا في هذا العالم المتلاطم.**

● هل تحققت أحلامك؟

- **بعضها - وتحقيق كل الأحلام يصيب النفس بالملل والكآبة.**

● ذكرى لا تزال عالقة بذهنك؟

- **الذكريات كثيرة.**

● ما هو الحدث الذي غير مجرى حياتك؟

- **انتقالي من التدريس بالجامعة إلى الديوان الملكي بالمراسم الملكية.**

(١) نشرت في مجلة اليمامة في ١٤/١١/١٤١٣هـ، الموافق: ٥ / ٥ / ١٩٩٣م.

● أين موقع المرأة على خارطتك؟

- وما نكون دون المرأة.

● رصيدك الآن من الثقافة؟

- كنت أتمنى أن يكون أكبر مما هو عليه.

● وما المال؟

- ربِّ أوزعني أن أشكر نعمتك.

● ما هي الصدفة التي نقلتك من التدريس إلى المراسم؟

- في عهد الملك فيصل رحمه الله مرض مترجمه الأستاذ/ عبدالعزيز الماجد رحمه الله وبحثوا عمن يحل محله حتى وجدوني.

● هل تغيرت شخصيتك نتيجة لتغير عملك؟

- لا أعتقد.

● ما الذي ينقص التدريس لدينا؟

- دون أساس متين لا يمكن أن يكون البناء قوياً، ثم إن فاقد الشيء لا يعطيه.

● طبيعة عملك هل تسبب لك إحراجات؟

- كثيرة هي الإحراجات.

● ما الموقف الطريف الذي صادفك في أثناء عملك؟

- في أول عهدي بالترجمة وقفت أمام الملك فيصل رحمه الله، وكانت المناسبة تقديم أوراق اعتماد لسفير جديد، ويحضر المناسبة طبعاً

كبار رجال الديوان ووزارة الخارجية، وفي تلك الأيام كانت القروش المعدنية لا تزال ذات قيمة، وكان في جيبي بعضها، وحدث أن الجيب كان مثقوباً وأخذت القروش المعدنية تتدحرج من جيبي واحداً بعد الآخر وكأنها مسيرة، فكان الواحد منها يلتف في دائرة شبه كاملة ويسقط في منتصف الدائرة، ولك أن تتصور مدى ما شعرت به في هذا الموقف الرهيب والكل بما فيهم الملك فيصل كانوا يشاهدون ما يحدث.

● كيف تتعامل مع البروتوكول؟

- **لا أتعامل مع البروتوكول.**

● هل تنقل البروتوكول إلى بيتك؟

- **العمل بالمراسم الملكية غير محدد بساعات معينة.**

● هل أنت مشهور؟

- **بسبب ماذا؟**

● شخص كان له أثر على حياتك؟

- **الشخصية الإنسانية أكبر من أن تتأثر بشخص واحد.**

● ماذا تحمل من ذكريات المدينة؟

- **ما الحب إلا للحبيب الأول.**

● وماذا تحمل لطيبة (المدرسة)؟

- **طيبة في بؤرة طيبة.**

● ماذا تقول لأحمد بشناق؟

- أقول الفخر يملؤني أنني كنت في يوم تلميذاً في مدرسة أحمد بشناق - هذا الرجل الفذ - وبالمدرسة أعني المعنى العام وليس الخاص.

● تعاملت مع شعوب كثيرة.. ما الذي يلفت نظرك في أي شعب؟

- الانضباط.

● ما الذي يميزنا عن غيرنا؟

- التواصل بيننا وبين قيادتنا.

● كيف يتحقق العدل بين البشر؟

- يتحقق عندما لا يتطلع البعض إلى اغتصاب حقوق البعض الآخر.

● مأساة الإنسان في هذا العصر.. ما هي تحديداً؟

- هناك مؤشرات على أن عصراً جديداً من عصور حكم الغاب يطل على العالم.

● كيف يتخلص الإنسان من مشاكله؟

- ومن منا يستطيع أن يتخلص من مشاكله؟

● ما هو سبب تراجع العرب؟

- اسأل العرب.

● كيف نقنع الآخرين بمصداقيتنا؟

- **عندما نكون صادقين حقاً لن تكون هناك صعوبات في إقناع الآخرين بصدقنا.**

● هل صحيح أن الحقيقة شمس غائبة؟

- **أية حقيقة؟**

● هل الدبلوماسية ضرب من فن الكلام؟

- **وأكثر من ذلك بدليل أن حفيدتي وعمرها أربع سنوات تمارس معي فنوناً من الدبلوماسية.**

● ما هي حسنات النظام العالمي الجديد؟

- **لا أعرف ما هو النظام العالمي الجديد.**

● ما هي سيئاته؟

- ....

● في ظل هذا العالم المتلاطم.. هل هناك رؤية واضحة؟

- **ارجع إلى جوابي على السؤال الرابع والعشرين.**

● ماذا ترى في أفق المستقبل العربي؟

- **ليتني أستطيع أن أعطي صورة مشرقة.**

● كيف نعالج التطرف؟

- **نعرف أفكارهم أولاً ثم ننتدب القادرين منا على مجادلتهم بالعقل والمنطق.**

● أيهما أشد قسوة..الفقر أم الجهل؟

- **الجهل.**

● أيهما أهم من وجهة نظرك.. الغذاء أم الدواء؟

- **إذا انعدم الغذاء لا ينفع الدواء.**

● لماذا يقف العالم متفرجاً على مأساة البوسنة؟

- **من يهن يسهل الهوان عليه.**

● هل تتوقع نشوب حرب عالمية ثالثة؟

- **لا.**

● هل هناك أزمة مياه في العالم العربي؟

- **مع حفظ حقوق العرب في أراضيهم واستخدام التقنية الحديثة زائد الوعي لا توجد أزمة.**

● هل العرب متعصبون لعرقهم؟

- **ومن من غير العرب لا يتعصب لعرقه؟**

● ما هو البلد الذي تشد الرحال إليه؟

- إذا كانت إجازة أسأل عن المكان الرخيص.

● مدينة تشدك داخل المملكة؟

- خارج نطاق العمل المدينة المنورة.

● كيف تعامل أبناءك؟

- في الدقيقة الأولى كأصدقاء، ثم أضرب بفلسفة إذا كبر ابنك.. بعرض الحائط.

● هل لدينا مشكلة اجتماعية شكلت ظاهرة؟

- أكثر من مشكلة.

● هل لك هواية خاصة تمارسها في الخفاء؟

- كنت أختلف مع أولادي، والآن اختلف مع أحفادي حول أفلام الكرتون التي نشاهدها معاً.

● هل لدينا تعصب رياضي؟

- يوجد وأغلبه حول كرم القدم وفرقها، وأتمنى أن يزداد اهتمام مسؤولي الرياضة بالنشاطات الأخرى.

● أنت شخصياً لأي شيء تتعصب؟

- لا لشيء.

- ما رأيك في الإعلام العربي؟

- **أعرج.**

- من هو الكاتب الذي لا تمله؟

- **أحاول قراءة ما أستطيع باللغتين العربية والإنجليزية لكتَّاب عديدين.**

- من الكاتبة التي دخلت المنافسة؟

- **لا أعرفها.**

- ما هو الكتاب الذي قرأته وغير بعض أفكارك؟

- **لم أقرأ هذا الكتاب بعد.**

- كيف نعالج مشكلة قيادة السيارات لدينا؟

- **قيادة السيارات سلوك حضاري وعلاج المشكلة يبدأ من المنزل ثم المدرسة.**

- هل فكرت في ممارسة التجارة يوماً ما؟

- **لدي من عملي الحالي ما يكفيني عن التفكير بغيره.**

- ما هي مقاييس النجاح؟

- **إذا أتقنت عملك وأخلصت له فقد نجحت.**

- ما مساحة الحزن في ذاكرتك؟

- **دون الحزن لا نعرف قيمة السعادة.**

- كيف أجبت عن أسئلتنا؟

- **كما رأيت.** ■

في ثقافة اليوم: جريدة الرياض(١)

شبابنا لا يقرؤون حتى الجرائد

لمعالي الأستاذ منصور بن محمد الخريجي نائب رئيس المراسم الملكية قبل صدور روايته (دروس إضافية) تجربة كان لها صدى واسع حين أصدر كتابه (ما لم تقله الوظيفة) الذي روى فيه تجربته كشاهد على كفاح الجيل السابق.

حين سافر والده إلى سوريا وتزوج من هناك، وكيف استطاع هذا الابن التعايش مع الظروف القاسية التي لم أسمع بها - كأحد شباب اليوم - قبل أن أقرأ كتابه الذي صدرت مؤخراً طبعته الثالثة.

في هذا الحوار يجيب ضيفنا بصراحة عن أسئلتنا راوياً قصته ذاكراً آراءه في الأدب والحياة.

- **لماذا لم يكتب كثير من الروائيين السعوديين ومنهم الروائي منصور الخريجي رواياتهم وسيرهم الذاتية في سن مبكرة؟**

- لن أجيب نيابة عن الآخرين، ولكن بالنسبة لي ما دعاني إلى الكتابة في سن متأخرة هو أن بعض الناس ينضج ببطء وفي سن متأخرة،

(١) نشرت في جريدة الرياض في١٢ / ٧ / ١٤٢٠هـ، الموافق ٢١ / ١٠ / ١٩٩٩م.

وقد أكون من هذا النوع. والسبب الآخر أنني عملت في الديوان الملكي بعد تخرجي من الجامعة بسنتين، عملت مترجماً للملك فيصل رحمه الله في أوج دعوته للتضامن الإسلامي، مما استلزم زيارة العديد من الدول الإسلامية والأوروبية والعربية، وكنت أرافقه مما يتنافى مع الاستقرار الذي تتطلبه الكتابة، ولا سيما إن كانت لكتابة الرواية، وهذا ينطبق على بقية الروائيين السعوديين الذين كانوا في وظائف تتطلب منهم جهداً كبيراً يضمن استقرارهم وترقيتهم في وظائفهم.

- **هناك من يقول إن الرواية يكتبها الإنسان في سن متأخر؛ لأنها خلاصة تجربة وحياة، أي أنها تأتي بعد الحياة بعكس الشعر الذي هو وليد اللحظة والشعور، والدليل أن شوقي قد كتب الشعر وهو في الثالثة عشرة من عمره، ما رأيك بهذه المقولة؟**

– أنا أوافقك تماماً في هذا الرأي، ولكن الشعور يجب أن يكون موجوداً في كل ما يكتب الإنسان، سواء كان رواية أو نثراً، وليس في الشعر فقط، فالإنسان يسكب شيئاً من أحاسيسه وروحه في كتاباته؛ لذلك في الغالب تكون الرواية الأولى سيرة ذاتية تتضمن تجربته الشخصية، وقد يتدخل الروائي لإضفاء الترابط بين أحداث تجربته وللخروج بحبكة الرواية كما يعرف النقاد، وهذا ما صنع الروائيون السعوديون، حيث تنطبق كثير من أحداث الرواية على تفاصيل حياتهم، ويطالب بعضهم أن تكون هذه الأحداث مثالية أو مخالفة للواقع، ففي روايتي يسافر شباب للدراسة في أمريكا ولم يكونوا قد غادروا الرياض قبل ذلك ويعيشون في بيئة منفتحة، ومن

الطبيعي أن يخفق قلب أحد أبطال الرواية بالحب، وهذا شعور طبيعي أن يحدث، وهذه ليست تجربة شخصية لي، والرواية من بدايتها إلى نهايتها ليست تجربة شخصية، ولكنني اخترت مدينة في أمريكا أعرفها لكي أصفها بصورة واقعية.

- **لماذا لم يكن لكم قبل عام ١٤١٧ - (تاريخ الطبعة الأولى من ما لم تقله الوظيفة) وجود على الساحة الثقافية؟**

- جرثومة الكتابة عند الكاتب، وكذلك الاستعداد الفطري عنده يجب أن يكون موجوداً، فقد كتبت عدداً من القصص القصيرة وترجمت عدداً من القصص من الإنجليزية ونشرت جميعها في بداية الستينيات الميلادية عندما تخرجت في الجامعة وأتيت إلى الرياض وعملت مفتشاً للغة الإنجليزية في وزارة المعارف.

- **تجربة الدراسة في الولايات المتحدة الأمريكية التي رويتها في (دروس إضافية) تجربة يعيشها الكثير من الشباب الذي يسافر للدراسة في الخارج، إلى أي حد ممكن أن تؤثر هذه التجربة في الحياة المستقبلية للمبتعث سلباً وإيجاباً؟**

- أي سفر لأي مكان سواء في بلدك أو خارجه له فوائد، فهو يتيح الاحتكاك بثقافة ومجتمع يختلف عن مجتمعك، والملاحظ أن كثيراً من الدارسين في الخارج والحاصلين على شهادات من هناك كانوا بارزين في عملهم. والتجربة قد تكون سلبية إذا لم يستغل المبتعث وقته، فمن يسيء استغلال الحرية المتاحة في تلك المجتمعات يسيء إلى نفسه بدرجة كبيرة.

- **ذكرت في مقدمة الطبعة الأولى من (ما لم تقله الوظيفة) أن الهدف من سرد سيرتك الذاتية هو إعطاء أبناء جيل اليوم نبذة عن الحياة التي عاشها آباؤهم. كيف تنظر إلى شباب اليوم في ظل ما يوجه لهم من اتهامات بالترف والرفاهية الزائدة وعدم القدرة على تحمل المسؤولية.**

- الترف يمر بعمر الأمم كأنه رمشة عين، وهذا ينطبق على الطفرة التي حصلت في هذه البلاد. فالآن لا يوجد عندنا شباب مترفون ضائعون، بل إن الشباب السعودي يبحث عن وظيفة بكل جد وكفاح، وبعضهم لديه شهادة جامعية لكن لديه استعداد للعمل في وظائف متواضعة. والشاب السعودي كغيره لن يترك نفسه دون رزق إلى أن يموت من الجوع، فوالدي سافر من القصيم إلى الشام عندما كان يافعاً ليبحث عن رزقه، فالشباب الآن يبحث بجد عن الحياة الكريمة.

- **كيف أسهم منصور الخريجي الطفل جامع الحطب و(الناطور) كما ذكرت في سيرتكم، في صنع منصور الخريجي نائب رئيس مراسم الملكية؟**

- لن أدعي أنني أصبحت شيئاً عظيماً، فقد استقريت في هذه الوظيفة إلى أن أصبحت نائباً لرئيس المراسم الملكية، فأنا لست إنساناً مختلفاً بحيث يصنعني الفقر أو الغنى، ولا أعطي الفضل كله للنشأة الأولى وحدها، وعلى كل حال يسعى الإنسان ويجتهد والتوفيق من الله تعالى، وكثير من أبناء جيلي سواء ممن وصلوا إلى مستويات عالية أم لا عاشوا الظروف نفسها التي عشتها، فهذه التجربة ليست خاصة بي وليست

فـريدة لأبناء جـيلي أيضـاً، وقـد أتاني أصـدقـاء من ذوي المراكـز ووزراء وقالوا إنهم عاشوا الظروف نفسها التي عشتها ولست مميزاً عنهم.

- **بماذا تفسر الفجوة الموجودة بين أدبائنا والمتلقين الشباب؟**

– الشـاب الآن لا يقـرأ حـتى الجـرائد! فـهم ملتـفـتـون للتلفـاز والإنتـرنت، ولـلأسف أنهم لا يتعاملون معها كبدائل ثقافية بل كوسائل تسلية، ويكفي الطالب اليوم أن يلتفت لدروسه ويحافظ على مستوى دراسي طيب في ظل الملهيات الموجودة عنده، بعكس حياتنا حيث لم يكن لدينا بعد عودتنا من المدرسة ما يشغلنا فكلنا نمضي أوقاتنا بالقراءة.

- **ألا تـرون أن هـنـاك تشـابهـاً بين روايتكـم (دروس إضـافـيـة) وروايـة د. غازي القصيبي (شقة الحرية) من ناحية الجو والتجربة التي يعيشها الشاب المبتعث للدراسة في الخارج؟**

– مع كل احترامي للأخ الصديق الدكتور غازي القصيبي إلاّ أنني لم أقلده، بل إنني بدأت كتـابة الرواية قـبل ن تظهـر رواية د. غـازي فـي الأسـواق، ولكن الرواية الأولى كـمـا قلت هي خليط من سيـرة الكاتب الذاتيـة مع أحداث متخيلة لربط الأحداث بعضها ببعض وبلورة الحبكة الروائية.

- **إذن (دروس إضافية) هي سرد لسيرتك الذاتية؟**

– إلى حـد مـا نعم، الروائي لا يسـتطيع أن يتكلم عن الحب دون أن يعـيش هـذه التـجـربة ولا شيء يأتي من لا شيء، فـالطـالب الذي يدرس في الخـارج من الطبيعي أن يتعـرض لهذه التـجربة، ولأننـا أتينا من مـجـتمع

محافظ كان حبنا محافظاً، ولا زلت أذكر تجربة عاطفية لأحد الأصدقاء أيام دراستي الجامعية في القاهرة استمرت لمدة أربع سنوات دون أن يتجرأ ويخبرها بذلك! وكان يفكر بها بطريقة نزيهة وشريفة، وكلما حاول مفاتحتها تلعثم إلى أن انتهت الدراسة دون أن يقول شيئاً.

- **نود أن نعرف سبب توقفكم عن الكتابة في عمودكم الصحفي في جريدة البلاد منذ سنتين؟**

– يجب من وجهة نظري أن يكون لكل ما أكتب وأقول نتيجة واضحة، وفي ظل تواجد عشرات من الكتّاب يكتبون في الأعمدة الصحفية، لكي توصل فكرة معينة يجب أن تعصر تفكيرك وتخرج في النهاية إلى المتلقي الذي لا يعبأ بها كثيراً، ومن خلال تجربتي قدمت عدة اقتراحات لمسؤولين في دوائر مختلفة لكنها لم تجد صدى، حتى مداعبة بعض الزملاء من كتاب الأعمدة الصحفية لم تؤخذ بصورة ودية. وفي رأيي أنه بإمكان الشخص الذي يملك شيئاً يستحق القول أن ينشره في كتاب حيث حياة الكتاب أطول من حياة جريدة يومية أو مجلة أسبوعية.

وأنا هنا لا أزعم بأن كل الأعمدة الصحفية ليست بذات جدوى، ولكن بعضها عبارة عن صف كلام لا يأخذ منه المتلقي فائدة كبيرة، وبعضها الآخر يؤثر تأثيراً إيجابياً في الحياة العامة ويكون له صدى وتغيير بناء.

- **ما هي الروافد الثقافية التي أثرت في الروائي منصور الخريجي؟**

– كنت أقرأ كل ما تصل إليه يدي، كالسير التراثية، والشعبية كسيرة عنترة وألف ليلة وليلة التي أثرت حتى في الأدباء الغربيين.

ثم قرأت كتب المازني ونجيب محفوظ ويوسف السباعي وطه حسين وكتب التراث كالعقد الفريد والمستطرف. وهذا قبل تخصصي في اللغة الإنجليزية، ولكنني توقفت عن القراءة عندما التحقت في القاهرة بقسم اللغة الإنجليزية.

● ما هو الجديد أو الرواية الثالثة التي سيقدمها منصور الخريجي؟

- هذا يعتمد على ردود الفعل التي لا زلت أتلقاها إثر صدور (دروس إضافية) وعندي فكرة أساسية للكتابة لكنني إلى الآن لم أبدأ بشيء. ■

مقابلة في جريدة عكاظ

حوار: عبده خال

● ما لم تقله الوظيفة..

هذا العنوان المخاتل جعلني أخرج معالي أو سعادة (سعالي) الأستاذ منصور الخريجي من منصبه.

كنا في جلسة بنادي جدة الأدبي (ورشة النادي التي تقام كل أحد) وكان الأستاذ علي الشدوي متخذاً من كتاب (ما لم تقله الوظيفة) ورقة ألقاها في ذلك المساء.. ودار الحوار فيما بعد عن كوابح الوظيفة، خاصة تلك الوظائف المرموقة التي تحيل صاحبها إلى إحدى الأساطير المغرية باقتحام عالمها.. والتنبيش في التفاصيل قبل الملامح الرئيسة.

وكانت الوظيفة حاضرة في ذلك المساء.. ربما ألقى سؤالاً عمّق في ذاكرتي أن الرجل كتب ما كتب بعد مغادرته لمنصبه الوظيفي..

ثم اقتحم (سعالي) الأستاذ منصور الخريجي عالمي حينما كتب الرواية، وظل هناك ضمن الروائيين الذين يكتبون عالمنا الحياتي مقتربين من الهموم الإنسانية البسيطة، ومحاولاً الدخول إلى هذا العالم وإثرائه بتقديم مشاهد متنوعة، مشاركاً الروائيين في تعدد المشاهد، كل وفق حياته ومناصبه وتجاربه.

وحين فكرت في إجراء هذا اللقاء بقي الأستاذ منصور الخريجي خارج منصبه في ذاكرتي، ولم أتوثق مما غرق في البال في مساء نادي جدة، وهذا العيب تغاضى عنه الأستاذ منصور في سؤالين تكررا داخل اللقاء.

ولأنني كنت جازماً أنه خارج منصبه كنت أبحث عن تفاصيل عديدة ضن بها الأستاذ منصور في هذا اللقاء، حيث جاءت الإجابة مقتضبة، حتى إن سؤالاً كانت أجابته بكلمة واحدة «كلا».

وهذا يجعل الوظيفة لا تزال حاضرة بسطوتها ودبلوماسيتها، فهل أعدكم أن أعيد المحاولة مرة أخرى وبصورة أخرى ربما تغري دماثة الأستاذ منصور الخريجي بإعادة الكرة، وربما لو كان الحوار مفتوحاً لتمكنت من الحصول على تفاصيل أكثر حميمية وأكثر احتداماً وأغزر عمقاً.

وهذا لا يعني سطحية هذا الحوار أكثر من انغلاق الكلمات واحتياجها لأسئلة رديفة تفتح مغالق تلك الكلمات.

إذاً ليكن هذا اللقاء مراهنة على لقاء آخر أقول هذا مؤملاً في دماثة الأستاذ منصور الخريجي لأن يمنحني فرصة أخرى لفتح حوار آخر يتسع لعالمه المغري والمحفز لكثير من التداخلات.

- *الأستاذ منصور الخريجي توطئة لهذا اللقاء نريد معرفة شيء من طفولتك؟*

✍ أحيلك إلى كتابي (ما لم تقله الوظيفة) ففيه ما يكفي من معرفة عن طفولتي.

- *الطفولة تؤثر في حياة المرء.. فهل قادتك طفولتك لأي نوع من الأحزان؟*

✍ على الرغم من أن الأحزان أو الأفراح تنبعث من عوامل خارجية طارئة في حياة الإنسان حسب ما يتعرض له من أحداث وظروف على مدى سنين عمره، إلا أن سؤالك هذا جيد، إذ إنك قصدت فيه إن كان لطفولتي أثر باق، أو إن هذه الطفولة حفرت بمعاولها في تجاويف نفسي حفراً بعضها مؤلم فتركت جرحاً غائراً لم تقو الأيام على التئامه - إن كان هذا ما قصدت فالجواب هو نعم. إلا أن معظم مؤثرات الأحداث الطفوليه تنزوي مع الأيام خلف ستار من اللاشعور أو شبه الشعور، وتطفو على السطح عندما تجد الفرصة المواتية.

- *كيف تقيم تلك الطفولة الآن؟*

✍ أنت تستطيع أن تقيم الحدث أو التجربة بعد أن تغادره أو يغادرك، وأنا أجد نفسي بين آونة وأخرى أعيش طفولتي، ويبدو لي وقد بلغت ما بلغت من العمر أن طفولتي باقية معي وأنا باق معها إلى النهاية. وجوابي هذا للعلم ليس من قبيل السفسطة أو الاستملاح، بل هو تعبير صادق عن نفسي.

- *يقول الروائي الكولومبي: طفولتي هي مخزني الأساسي لإخراج هذا العالم الروائي. إلى أي حد كانت طفولتك مرجعاً لك؟*

✍ الطفولة هي النبع الباقي دائماً وأبداً داخل كل إنسان منا، وهو لا ينضب مطلقاً مهما غرف منه ولا ينتهي أثره وتأثيره على امتداد العمر.

- *مرحلة الشباب ماذا تبقى منها؟*

✍ بقي منها ذكريات بعضها عزيزة أجترها عندما يجمعني مجلس مع من هم في مثل سني من الزملاء حيث لا نعدم دائماً أن نجد أشياء وأشياء مشتركة بيننا في شريط ما فات من ماضي الشباب، وحيث نهرب كلنا من واقع الحاضر الذي لا أدري لأي سبب تسيطر الكآبة فيه على الكثيرين.

- *جميع من جاء بعدنا يقولون جئتم في زمن الفرص، ما نصيب الفرص في حياتك؟*

✍ الجواب يعتمد على فهم أي نوع من الفرص يقصدون. إن كان القصد هو اقتناص الفرص لأغراض ومطامع شخصية فهو طبعاً قول خاطئ من أساسه؛ لأن أي بلد لا يجب أن ينظر إليه من قبل أهله وكأنه بقرة حلوب يتخاطف الناس خيراتها. أما أنا فكل من عرفني يعرف أنني لم أحسن ولا أحسن اقتناص الفرص حتى المشروع منها. إلا أن الأرق الذي أعاني منه ليس هذا سببه.

- *لو جئت الآن هل كان نصيبك أن تكون في الموقع الذي وجدت فيه؟*

✍ كل شيء في هذه الحياة مقدر.

- *ما لم تقله الوظيفة.. هل قلت كل ما كنت تخشاه وأنت داخل الوظيفة؟*

✍ كلا. وقلة من الناس تستطيع أن تبوح بكل دقائق حياتها.

- *كلما ارتفع الإنسان وظيفياً وتعددت مناصبه زاد قلقه. إلى أي حد يصدق هذا القول؟*

✍ أعتقد أن هذا القول صحيح ومن عدة وجوه أيضاً. فهناك أولاً الحرص على أداء العمل على الوجه الأكمل الذي تتطلبه الوظيفة، حيث من الطبيعي أن الذي يشغل عملاً ما عليه أن يقوم بواجبات ومتطلبات ذلك العمل ويتصدى لمسؤولياته. ولكنك تسألني عن المناصب الرفيعة - وهذه تتطلب من شاغليها الجهد الأكبر واليقظة الدائمة لمواجهة المسؤوليات على المستوى المطلوب. لكنني مع كل هذا لست متأكداً من معنى (القلق) الذي قصدته في سؤلك، هل هو الحرص على أداء واجبات الوظيفة بتفان وإخلاص والحرص على النجاح أم هو الحرص على التشبث بالمنصب بغض النظر من أي اعتبار آخر؟ فهناك فئة من أصحاب المناصب لا يعنيهم فناء الدنيا بما فيها ومن فيها طالما بقوا في مناصبهم.

- *المراسم الملكية اسم يعطي السامع تصوراً ببرزخ عالم الكبار، ألم تحزن لمغادرة هذا اللقب؟*

✍ لم أغادر عالم المراسم الملكية بعد كي أعرف إن كنت سأحزن أم لا. ثم أي لقب تتحدث عنه يا أخ عبده؟ إن كنت تقصد المسمى الوظيفي الذي أشغله فهو "نائب رئيس المراسم الملكية - ومرتبة هذا المنصب هي المسماة الممتازة. وإن قصدت اللقب الذي يطلق على صاحب هذه المرتبة - وهو ما أعتقد أنك تعنيه - فقد

اختلفت فيه الأقوال، إذ يدعى أصحاب المرتبة الممتازة أنهم من فئة «المعالي» بينما عذالهم يصرون أنها مجرد «سعادة»، ثم يأتي بعض المنصفين ويطلقون عليها «سعالي» بحيث تأخذ شيئاً من لفظ اللقبين معاً. وكما ترى فإنني مازلت على لقبي هذا وقد أمضيت فيه إلى الآن حوالي المئة عام.

- *ماذا أعطاك هذا المسمى.. ومن ماذا حرمك منه؟*

✍ اقرأ الجواب السابق مرة أخرى، فإلى أن تتحدد درجة المسمى فهو لم يعطني شيئاً كما لم يحرمني من شيء.

- *هل صحيح أن الإنسان يفقد الصدق في المناصب الكبيرة؟*

✍ ليس من الضروري أن يحدث هذا، والمناصب الكبيرة أو الصغيرة ليست إلا الرجال الذين يشغلونها، والرجال نماذج وأنماط متباينة، بعضهم يصدق دائماً وبعضهم يكذب دائماً حتى دون منصب.

- *جئت إلى الرواية متأخراً، فهل كان مجيئك لاستكمال ما فقدته من الوظيفة أم بحثاً عن الضوء؟*

✍ عندما نشرت كتابي الأول (ما لم تقله الوظيفة) ولاقى القبول والنجاح الذي لقيه شجعني ذلك على كتابة رواية كنت قد بدأتها أو بدأت على الأصح بكتابة رواية ما منذ زمن طويل قبل نشر كتابي الأول. وروايتي (دروس إضافية) لم تلاق الانتشار الذي رجوته. ولا أدري إلى الآن هل هذا بسبب عدم توفر عناصرها

الفنيـة ومـا يتطلبـه الفن الروائي من حـبكة وتسلسل مـقـبـول للأحداث ورسم شخصيات مقنعة أم لأسباب أخرى لا أعرفها. لقد كتب عنها دراسة جيدة الأخ الدكتور عزت خطاب أستاذ الأدب الأنجليزي بجامعة الملك سعود، كما كتب آخرون كلمات قليلة ربما من قبيل المجاملة؛ لأن كلماتهم القلية دلت على أنهم لم يقرؤوا الرواية، وهي بالمناسبة تقع في حوالي ثلاث مئة وخمسين صفحة - وتتطلب طبعاً بعض الجهد لقراءتها ونقدها. ودعني أضيف هنا أنه حتى في شؤون الأدب وعالمه هناك مجاملات وتبادل منافع - ولو أنها منافع نقدية أو أدبية. وقد عرفت بعد أن وقفت على بوابة عالم الكتابة أن هناك مجموعة من الكتاب والأدباء أو الذين يظنون أنفسهم أدباء وكتاباً - وهؤلاء يحمون بعضهم ويكتبون عن بعضهم ويقرظون أعمال بعضهم ولا مجال عندهم لدخيل. ولكي أعمل على بعث الروح من جديد في روايتي علي أن أكوِّن شلة من مثل أولئك وأنصب نفسي رئيساً عليها، ثم بعد ذلك أطلب منهم أن يكشفوا عن كل (الكنوز الأدبية الفنية الراقية) التي حوتها روايتي ويظهرونها للناس. وهكذا ترى يا أخ عبده أنني إن كنت أبحث عن الضوء فلم يسطع علي إلى الآن ولازلت غارقاً في الظلام.

- *لماذا لم تكتب وأنت داخل الوظيفة؟*

✍ مرة ثانية أنا لا أزال في وظيفتي، وعلى ذلك فكل ما كتبته كان في أثناء عملي الوظيفي.

- *هل الكتابة استكمال للوجاهة؟*

✍ الكتابة عالم كبير واسع متعدد الجوانب والأغراض، ولا يمكن حصره في إجابة من أسطر قليلة. إنما أن تكتب للوجاهة فقط فهذا كلام فارغ وبناء هيكل من قش لا يلبث أن ينهار عند أول نسمة هواء نقي. وللأسف بعض الناس يمارسون هذا النوع من السلوك، لكن أولئك سرعان ما يكتشفون عندما يعرف الذين يكتبون لهم.

- *هل كانت روايتك سيرة ذاتية؟*

✍ الرواية الأولى لمعظم كُتَّاب الرواية تكون في العادة خليطاً من سيرهم الذاتية مع حبكة قصصية.

- *هل نحن الآن في مرحلة كتابة السيرة الذاتية؟*

✍ قد أكون بشكل غير مقصود شجعت بعض الأشخاص للإقدام على كتابة سيرهم الذاتية. ولقد أشاد كثير من الإخوان والأصدقاء بالجرأة والشجاعة اللتين أظهرتهما بالكشف عن بداياتي المتواضعة بل البائسة، وأنا كما قلت مراراً ودون أي ادعاء كاذب بالتواضع أو غيره لم يدر بخلدي عندما كتبت سيرتي أنني أقوم بأي عمل خارق أو إنجاز غير عادي. لقد سجلت بكل بساطة أحداث حياتي في مراحلها المختلفة، وقد صدف أن كانت البدايات كما صورتها.

- *ما هو تقييمك للروايات التي صدرت في الآونة الأخيرة؟*

✍ لم أقرأ من الروايات السعودية التي صدرت في السنوات الأخيرة إلا (شقة الحرية) للدكتور غازي القصيبي وثلاثية تركي الحمد، ثم بعض قصص قصيرة لكاتبة لا أذكر اسمها الآن. ودعني بالمناسبة أذكرك أنك لم ترسل لي رواياتك بعد.

وفي رأيي أن رواية غازي وعلى الرغم من استيفائها لبعض متطلبات الفن الروائي إلا أنها اعتمدت إلى حد ما في انتشارها على عاملين اثنين هما:

أولاً: ظهورها في وقت لم تكن قد بدأت تظهر فيه الرواية السعودية الحديثة فخلت لها الساحة الأدبية.

وثانياً: أن مؤلفها هو الدكتور غازي القصيبي الشخصية العامة المعروفة والمشهورة. أما ثلاثية الدكتور تركي الحمد فهي سيرة ذاتية أكثر منها رواية.

- *بماذا تفكر الآن؟*

✍ أفكر بموعدي مع الطبيب في مستشفى الملك خالد للعيون.

- *هل تحتاج لزمن آخر لمعرفة الواقع؟*

✍ أحتاج لألف زمن آخر لمعرفة الواقع ومثلها قبلها لمعرفة ما هو الواقع أصلاً.

- *ما هي أهم النقاط التي تسترجعها الآن من حياتك؟*

✍ هي تلك التي خلت من هموم الحياة ومشاغلها ومشاكلها، هي عموماً أيام الشباب والدراسة عموماً. وعلى كل يبدو أن من طبيعة الإنسان أن ينظر إلى ماضيه نظرة رضى وحنين، وأن يرى أن الأيام الخوالي أسعد وأحسن من الحاضر. وأنا بكل تأكيد مع هذه النظرة.

- *لو خيرت ما هي المواقع التي تختارها لحياتك؟*

✍ اقرأ معي بيت الشعر هذا من رباعيات عمر الخيام وهو كفيل أن يعطيك الجواب:

لبست ثوب العيش لم أستشر

وحرت فيه بين شتى الفكر ■

مقابلة في جريدة الاقتصادية [1]

حوار أجراه مع المؤلف الأستاذ محمد الخضيري

في جريدة الاقتصادية

هو موسوعة متكاملة، صقل نفسه وصقلته الحياة قبل أن يقتحم دائرة البروتوكول الفسيحة والصعبة في آن واحد.

في أبواب الموسوعة فصل عن التاريخ، وآخر عن السياسية، وثالث عن الثقافة، ورابع عن الأدب، وخامس عن الحب.

مع ذلك، حين تلتقيه وتتحدث معه، يصحبك إلى جوانب أخرى في مشوار حياته، لتجد نفسك أمام البساطة في أدق معانيها وجهاً لوجه.

ربما كان ذلك الثراء سر عبقريته، وسر جاذبيته في الوقت ذاته، فبمجرد دخول عالمه تأسرك لمحاته وقفشاته وتعليقاته، قبل أن يصدمك بحقيقة علمية أو ثقافية جديدة.

ذالكم هو منصور الخريجي نائب رئيس المراسم الملكية. الرجل الذي خرج من عباءة الفقر إلى مشلح البروتوكول. صحيح أن عملية الدخول أو الالتحاق لم تكن سهلة، لكنها جاءت طوعاً لرجل أخلص في كل عمل كلف به.

---

(١) نشرت في جريدة الاقتصادية في ٢١ / ٤ / ٢٠٠٣م.

والخـريجي لمن يعـرفـه، ذلك الرجل الأنيق الذي يقف على كل كبيرة وصغيرة في عالم البروتوكول، ولمن لا يعرفه ذلك الفتى الذي عمل حارساً لبساتين قريته «ناطور».

ربما لم يكن يعلم وهو يؤدي تلك المهمة أنه يحرس بساتين العلم واللغة والأدب والقيم الرفيعة وكل المعاني الجميلة التي أدخلته الديوان الملكي من أوسع أبوابه. هنا الخريجي بلا رتوش:

■ كنت تتناول الخبز البارد مع الطماطم. هل ما زلت تحن إلى تلك الوجبة أم أصبحت تسبب لك الآن مشاكل في المعدة؟

- «هذه ملاحظة جميلة، وسأروي لك أنني في مرات عديدة قلت لزوجتي: إنني أتمنى في يوم أن أعود إلى البيت، وتفاجئيني بأنك لم تطبخي، ثم تقدمين لي قرص خبز مع حبة طماطم ورأس بصل، مضت سنوات طويلة وأنا أطلب منها هذا الطلب وهي تهددني بأنها ستفعل هذا يوماً ما».

في تلك الأيام حين كنت طفلاً وأنا أعيش في قريتي التي نشأت فيها وهي (القريتين) لم نكن نعرف من الدنيا شيئاً سوى قريتنا وحاضرتها حمص.

بالمناسبة من فترة قريبة زرت حمص فوجدتها كما كانت في تلك الأيام تقريباً، لكن الأشياء في حد ذاتها نسبية؛ لأنك لا تعرف الشيء الصغير إلا إذا عرفت الشيء الأكبر منه، ولا يمكن أن تقول عن شيء قبيحاً إلا إذا رأيت أجمل منه، وهكذا الضد يبرز حسنه

الضد، ففي تلك الأيام كنت أرى سلطة الطماطم والبصل ألذ طعام، وعلى فكرة لا تزال هذه السلطة لذيذة ورائعة.

أتمنى أن تعود لي الآن تلك الشهية التي كنت ألتهم بها كسرة الخبز اليابسة وأجدها ألذ من الشهد.

فاقد حاستي الشم والتذوق..

ويضيف في حسرة وهو يتذكر الأيام الخوالي: الذي لا يعلمه كثير من الناس أنني أصبت بإنفلونزا شديدة منذ ثلاث سنوات فقدت على أثرها حاستي الشم والتذوق والحمد لله، موضحاً أنه الآن لا يشم ولا يتذوق وبالتالي لا يتذوق طعم الطعام.

■ ألم تجد علاجاً لهذه الحالة؟

- ذهبت إلى مستشفى في بوسطن في الولايات المتحدة وأبلغني الأطباء أن لا فائدة من العلاج، ويعزون سبب هذا إلى أنه ربما لطبيعة الجو هنا.

■ ما الأثر القوي الباقي من القريتين. وما زال عالقاً بذهنك إلى الآن؟ هل هو الفقر، عموماً أم الاستيقاظ قبل الفجر للذهاب لجمع الحطب، أم حزنك على عدم مقدرتك إكمال دراستك الثانوية مثل باقي زملائك، أم هي ربما معاناتك مع تلك الفتاة الغبية غير القابلة للتعليم، الذي عهد بها إليك الشيخ لتعلمها؟

- لا يذكر الناس أيام شقائهم بخير، ولو أن للماضي عموماً حنيناً لا نعرف كنهه. أما الفتاة فقد كانت جميلة ذات شعر كستنائي مجعد وجمالها لا شك شفع لغبائها. وهي إن كانت ما زالت حية فهي لا شك قد صارت الآن جدة على الأقل.

■ ألم يشفع لها جمالها لديك؟

- تلعثم وهو يحاول الإجابة قائلاً: أنا لم أكن أضربها بقسوة، فقط عندما يطفح بي الكيل من غبائها المفرط، إلا أن الجميل فيها أنها لم تكن تبدي أي تذمر أو غيظ من تصرفي تجاهها، بل لم أرها قط مهتمة بتعلم أي شيء، ذات نظرة بلهاء. وكل ما كانت تفعله أن تنظر إليّ. ويكمل: أتمنى أن تكون قد قرأت كتابي وعرفت أنها هي المقصودة.

■ هذا إذا كنت تجيد القراءة؟

- نعم، مع أني أشك في ذلك، ويقول: إلى الآن أحن إلى الحياة التي عشتها في القريتين، ليس بالضرورة إلى الثياب الممزقة والسير حافياً ولكن أحن إلى الطبيعة والحياة البسيطة. أنا يا محمد، عاشق للطبيعة أحن لرؤية الأنهار والجداول والأغصان المتشابكة شديدة الخضرة.

نعم افتقدتها

■ هل افتقدتها عند عودتك إلى السعودية؟

- إيه نعم، القريتين في تلك الأيام كانت واحة تموج بالخضرة والجداول والأنهار، لكن للأسف أصبحت الآن صحراوية. ولم يبق منها إلا النهر الكبير الذي أصبح الآن يسيل تعباً واهناً.

ذهبت في إحدى زياراتي الأخيرة للأماكن التي كنت أرتادها وتذكرت تلك المرأة العجوز، التي كانت لا تفارق جلستها أمام حديقتها الغناء، وتذكرت جدول الماء الصافي، الذي يمر من أمام بستان العجوز، الذي أصبح مع غيره من البساتين المجاورة أرضاً يابسة لا أثر للحياة فيها.

■ والدك كان قاسياً جداً، ترك مريم الهديان (والدته) منذ أن غادر الرس في القصيم أملاً في مستقبل أفضل لم يعد إليها وهو وحيدها؟

- لا، لا، لقد عاد إلى القصيم أكثر من مرة، لكن أعود وأقول لك إن قسوة الحياة تضطرك أن تلقي بعواطفك وأحاسيك خلف ظهرك، فوالدي لم يكن يملك الخيار. كان كغيره من الشباب في تلك الأيام يسعى وراء لقمة العيش، مما اضطره لهجر بلده وأهله واستقر في سورية وتزوج من القريتين.

سورية أصلها بدوي

■ والدتك من أصول سورية؟

- نعم من أصول سورية.

■ لكن اسمها يدل على أصول بدوية؟

- هي من عائلة المحجلّ، وهي عائلة قد تكون أصولها بدوية، وكان الأمير سلمان بن عبدالعزيز قد لفت انتباهي إلى أصول العائلة البدوية من أسمائها مثل: هدلة ووضحى وهيلة وغيرها.

■ إلى أي سن عشت في القريتين؟

- بعد أخذ الشهادة الابتدائية يعني ١٢ أو ١٣ سنة.

■ ولم تستطع دفع رسوم الالتحاق بالمدرسة الإعدادية فعملت ناطوراً؟

- لا، اشتغلت ناطوراً قبل أن أكمل الابتدائية.

■ هل كنت تتلقى أجراً على عملك هذا؟

- لا، لا، كنت أكاد أحصل على ما آكله، ويستطرد قائلاً: كنت أعمل ناطوراً في بستان فيه أخوان وأخت، وكانت هذه الأخت متزوجة من رجل قاس جداً لحد أنه ضربها مرة فقطع أنفها ولم يكن هناك عمليات تجميل ولا خلافه، فظل أنفها مقطوعاً، ولك أن تتصور حين يتحدث إنسان مقطوع الأنف، المهم هذه المرأة كانت تعطف عليّ كثيراً، وكان أخوها الأكبر شرساً وبخيلاً جداً، فقد جاء إلى الكرم ذات يوم ووجد عندي صديقاً يزورني فاستشاط غضباً وطردني أنا وصديقي من كرمه.

أول حب

■ أول حب كان هناك؟

- نعم.

■ في القريتين:

- لم يرد الإجابة بشكل مباشر تردد كثيراً قبل أن يقول كان حباً صبيانياً. كنا نشترك أكثر من ولد في حب فتاة واحدة، والشاطر الذي يصل إليها. يوضح: أقصد أن يكلمها أو يشاهدها ليس أكثر من ذلك، ولا تذهب بتفكيرك أبعد من هذا.

■ ولا حتى قبلة؟

- لا، لا، ولا حتى قبلة، بس يمكن كان فيه واحد ينافسني؛ لأنه كان أطول مني لأني كنت قصيراً جداً، وكان أيضاً أجرأ مني.

■ وما حكاية تشبيهك بالقرد من قبل إحدى صديقات والدتك؟

- عندما ذهبنا لأداء امتحان الشهادة الابتدائية في حمص قررنا نحن أبناء القريتين أن نلتقط صوراً تذكارية. وكانت صورتي التي تراها في مقدمة كتابي، وجاءت صورتي أجمل من شكلي الحقيقي، ولما رأتها صديقة والدتي قالت: شوفي يا أختي كيف صورته حلوة مع أن شكله مثل القرد - رحمها الله.

موت فاطمة

■ أختك التي توفيت اسمها فاطمة؟

- نعم، فاطمة.

■ شكل الموت بشع وأنت وصفت منظرها وهي مسجاة أمامكم وكأنها نائمة، صف لي شعورك تلك اللحظة؟

- نعم كانت معنا في الغرفة الوحيدة في المنزل، هذه الغرفة كانت غرفة منام في الليل وغرفة طعام واستقبال في النهار.

■ كم كان عدد أسرتك؟

- كان أخي صالح أكبرنا وبعده أخت وما زالت على قيد الحياة والحمد لله هي الآن أمنا البديلة، ثم فاطمة التي توفيت، ثم أنا وبعدي أختان مد الله في أعمار الجميع.

■ كنت تدرك أن أختك ماتت وأنها لن تعود. هل فكرت في ماهية الموت ولماذا تغادرنا الأشياء الجميلة هكذا؟

- الصدمة التي حصلت في موت فاطمة زعزعت كيان الأسرة ووضعتني لأول مرة في مواجهة الموت.

وعندما مات أبي كنت صغيراً، ووجدت نفسي فجأة رجل البيت؛ لأن صالحاً كان مسافراً، ومكثت الليل بأكمله أحاول تهدئة والدتي، ولكن كيف أهدئها وبنتها مسجاة أمام عينيها وقد خطف الموت شبابها دون مقدمات أو مرض. لم أر قبل ذلك ميتاً عن كثب. فما بالك عندما تكون الميتة أختي والتي تبكي وتنوح أمي؟ لم أعرف أحداً حزن على وفاة عزيز كحزن أمي على فاطمة. لقد ظلت تبكيها لأيام وشهور حتى فقدت بصرها. يرحمها الله.

ويضيف: حتى بعد سنوات من موت فاطمة كانت إذا ضحكت تعود وتلوم نفسها وتتألم وتتأسف كيف تضحك وفاطمة ميتة.

■ مدى تأثير هذا عليك؟

- الصدمة هزت كياني.

العودة للوطن

■ قصة العودة إلى الوطن كيف تمت وما خلفياتها؟

- ما كنت أعرف شيئاً كثيراً عن وطني سوى أن والدي أتى من الرس، وأن مدينة الرس جزء من منطقة القصيم في السعودية، ويعتدل في جلسته وهو يكمل حديثه، كان لدي إحساس قوي أنني سأعود يوماً إلى الوطن. وهذا الشيء طبيعي، وكان أيضاً ينتابني شعور بأن هذا لن يتحقق لظني أن السعودية تقع في مكان بعيد جداً عن القريتين.

المهم في تلك الأثناء قام أحد أصدقاء الوالد - رحمه الله - بأداء مناسك الحج، وفي طريق عودته عرج على المدينة المنورة للزيارة، وفي أثناء وجوده في المدينة أخذ يسأل إن كان يوجد أقارب لنا هناك، وبالفعل التقى العم عبدالرحمن صالح الخريجي - عليه رحمة الله - فأخبره الرجل أن هناك في القريتين أسرة سعودية من آل الخريجي تعيش حياة فقر وضنك بعد وفاة والدهم، فأخبره العم عبدالرحمن أن العائلة ما هم إلا عائلة أخيه وأبناء أخيه، وأعطاه مبلغاً من المال لإيصاله لنا. ويقول: لك أن تتصور شعور الوالدة بعد عودة الرجل وتسليمنا المبلغ. كان ذلك المبلغ كأنه هبة نزلت علينا من السماء، حتى إن الوالدة لم تنم ليلتها من الفرحة.

الـ ٥ ليرات

لم أكمل أي دراسة في حمص، ومبلغ الخمس ليرات كان مصروفات السفر لحمص لاختبار الشهادة الابتدائية.

وكنت قد رفضت المبلغ في نهاية السنة الدراسية لضآلته ولم أذهب للاختبار وأعدت السنة الدراسية كلها بسبب ذلك، ولكن اضطررت للقبول بالمبلغ نفسه في السنة التي تلتها وذهبت وأديت الامتحان.

■ كيف كنت تتنقل بين حمص والقريتين؟

- كانت هناك سيارات، ويكمل ضاحكاً يمكن حتى هذه الليرات الخمس استدانتها أمي من بعض المعارف هناك.

■ كم كان المبلغ الذي أرسله العم عبدالرحمن؟

- والله لا أتذكر المبلغ كم كان بالضبط، ولكن قطعاً كان أكبر من كل ما نملكه؛ لأنه قد تمضي أشهر وأنت لا تملك ليرة واحدة؛ لأن المؤن والأكل حسب نظام أهل القرى في تلك الأيام كانت تخزن موسمياً مثل: القمح والشعير والبرغل، ونجفف فاكهة الصيف لأكلها في الشتاء، وهكذا كانت الحياة تسير.

■ تلك كانت البداية لعودة هذا الرجل من المدينة، ثم ماذا حدث بعد ذلك؟

- لما عرفنا من قبل الرجل الذي أدى الحج أن لنا جماعة في المدينة، وأن أحوالهم طيبة وأغنياء أخذنا نفكر جدّياً في وضعنا في سورية، وبالذات أخي صالح لأنه كان أكبرنا. من هنا بدأنا التفكير لماذا لا نذهب؟ وماذا نفعل في هذه البلاد. حتى إن أهل القرية كانوا يقولون: لماذا أنتم قاعدون في الفقر هنا لماذا لا تعودون إلى بلدكم؟

الفضل لله ثم لأخي

ويكمل أن أخاه الكبير صالحاً سبقهم بالعودة، حيث قضى فترة مع أهلنا في المدينة وتعرف عليهم وتعرفوا عليه ثم عاد إلينا وهنا يستذكر أمراً مهماً ويقول: هناك نقطة أحب أن أنوه عنها، وهي أن السفير السعودي في دمشق عبدالعزيز الزيد - رحمه الله - وكان هذا من رجال الملك عبدالعزيز، وهو رجل من خيرة الرجال، فلما ذهب أخي صالح لمقابلته لأخذ التأشيرة لأنه لم تكن لدينا جوازات؛ ولما عرف السفير وهو من أهل حائل، أن أخي من أسرة الخريجي التي كانت لها صلات بحائل وأهل حائل، فقال له السفير: أنا أعرف أعمامك وأهلك فأوصى به خيراً وأعطاه جواز السفر وعندها حضر صالح للمدينة ثم عاد إلى سورية.

■ أكيد استعددتم للرحيل؟

- لا، أبداً لم تكن هناك نية للعودة للوطن بعد رجوع أخي صالح من زيارة المدينة، حتى إن عمي وهو أبو زوجتي أرسل لنا خطاباً يقول فيه: أوصيكم يا أبنائي ألا تزوجوا أخواتكم إلا لأناس معروفين ويستحقون المصاهرة والنسب، وهذا دليل على أن أهلنا في المدينة لم يكونوا يتوقعون عودتنا للوطن. لكن بعد عودة الأخ صالح الذي لولا زيارته لما تغيرت حياتنا وعدنا للمدينة.

الحياة الجديدة

نعم بدأت حياة جديدة، حصلت على شهادة ابتدائية أخرى من مدرسة الناصرية في المدينة ومن ثم أكملت المتوسطة والثانوية.

■ بعد ذلك انتهى ارتباطكم بالقريتين؟

- نعم، استقرينا في المدينة لكن لم يزل وجداننا مرتبطاً بالقريتين لدرجة أننا كدنا نعود مرة أخرى. وهنا أحب أن أقول شيئاً مهماً وهو أنه على أصحاب الرأي والمشورة ألا يبخلوا بنصائحهم على الآخرين الذين قد تتغلب عواطفهم على تفكيرهم العقلي، وبذا يتنكبون الطريق الصحيح. ويوضح قائلاً: لقد بلغ بنا الأمر أن لملمنا أغراضنا ومقتنياتنا للعودة إلى القريتين. ويتساءل ضاحكاً: لك أن تتصور ماذا سيكون عليه حالنا لو عدنا مرة أخرى، أكيد كنا سنرجع للبؤس والفقر.

■ ما سبب الإصرار على العودة؟

- كان فراق الوالدة للبلدة التي عاشت كل حياتها فيها وأحبَّتها صعباً جداً، وهذا ليس غريباً طبعاً، فحب الأوطان شيء ثابت. وكان بكاؤها الدائم سبباً رئيساً في أننا قررنا تعاطفاً معها ترك المدينة لأجل خاطرها.

■ يعني ترغبون العودة إلى الفقر مرة أخرى؟

- تصدق يا محمد إلى الآن حين نتذكر ذلك الموقف. أحمد الله تعالى أن حكاية العودة لم تتم. ويضحك متسائلاً: بالله ما الذي كان يدفعنا للعودة؟ هل كنا عائدين للثروة والجاه والحياة المرفهة في القريتين؟

هل كنا راجعين لنزرع أراضينا ونعيش من خيراتها؟ مكملاً حديثه: لم يكن لنا شيء هناك يوجب عودتنا لا شيء على الإطلاق. ويصف

شعوره بأنه كان مسروراً جداً وفرحاً بالعودة إلى حد أنه ذهب إلى المدرسة لتوديع زملائه.

ضد السفر

■ ما الذي أعاق عودتكم؟

- الشيخ محمد الخريجي - رحمه الله - الذي تزوج شقيقتي فيما بعد جاء إلى عمي عبدالرحمن، وقال له: هل جننت أن تسمح لهم بالعودة ولأجل ماذا يعودون إلى القريتين؟ لقد وقف بحزم ضد سفرنا ومنعنا من أن نغادر المدينة. ويكمل: هذا الرجل الجليل جزاه الله خيراً وأنا أترحم عليه من كل قلبي كلما تذكرته. ويضيف: لولا الله ثم الشيخ محمد يمكن ما كانت حصلت الفرصة أن نلتقي هنا في صالون منزلي. قالها وهو يضحك.

■ رغم كل مظاهر الفقر كنت تفرح حين تتناول وجبة الغداء التي تعدها والدتك بعد عودتك من المدرسة، حيث تتناول قطعة الخبز مع السكر المذاب وكنت ترى أنها أمتع وجبة.

- وبعدين معاك يا محمد ما تبي تخلينا من هالسيرة؟ ثم أكمل: عليك أن تعرف أن وجبة الغداء ليس بالضرورة أن تتوافر لنا كل يوم. وأما السكر البني المذاب في الطبق كان عندنا أحسن وأجمل وجبة في الدنيا كلها، ولعلمك لم أكن أجرؤ أن أطلب من والدتي أن تعد لي مثل تلك الوجبة كل يوم.

ويقارن بين ما كان وما هو متوافر اليوم ويسترسل قائلاً:

الحكاية كلها نسبية أو ربما نفسية، فأنت عندما تجد نفسك محاطاً بكل شي تصبح الأشياء ربما أقل من قيمتها الأصلية، وكذلك مسألة الطعام عندما تتوافر لديك أنواع الطعام غالباً ما تفقد شهيتك أو ربما أقول ذلك الآن؛ لأنني أصبحت الآن شيخاً هرماً وفقدت كثيراً مما كنت أتمتع به في سن الشباب بما في ذلك الشهية للطعام.

سؤال جميل

■ نعود مرة أخرى لعودتك إلى السعودية، أكيد هناك تباين وتمايز اجتماعي ثقافي مكاني حياتي، كيف تكيفت مع هذا التباين؟

- جميل هذا السؤال تعرف لماذا؟ أخي صالح وهو أكبرنا لم تخرج القريتين وحياة القريتين من وجدانه أبداً، ولا تزال في صميم أعمق أعماق فؤاده؛ لأنه ترك القريتين وهو مدرك وواع، وحبه لها شيء كبير جداً، ثم إنه متزوج من هناك، ولما توفيت زوجته الأولى عاد وتزوج من هناك مرة ثانية.

الله يعطيه الصحة والعافية فحبه للقريتين يضرب به المثل، وما زال يقضي فيها ثلاثة أشهر كل سنة. أما أنا وأخواتي فلسنا بهذه الدرجة من الانجذاب، خاصة أختي الأصغر سناً مني لأننا غادرنا ونحن صغار في السن، وحتى الآن لا أستطيع أن أمكث هناك أكثر من أسبوع، ويعود للإجابة عن تساؤلاتي بأن الأمر كان سهلاً جداً عليه وعلى شقيقاته الذين اندمجوا في المجتمع الجديد بشكل تلقائي.

■ متى نلت شهادة الثانوية؟

- أخذتها عام ١٩٥٣ من مدرسة تحضير البعثات في مكة المكرمة.

في القاهرة

■ وبعدها ذهبت إلى القاهرة لدراسة الجامعة؟

- نعم ذهبت إلى القاهرة عام ١٩٥٤ وكان سفري إلى القاهرة في فترة الصيف قبل بدء الدراسة، وكان هناك وكيل لآل الخريجي في مصر يرعى شؤونهم وشؤون أبنائهم هناك، وكان المفروض أن ألتحق بالجامعة على نفقة آل الخريجي، إلا أن تصرف وكيلهم هنا منذ البداية جعلني أعدل عن رأيي وأنضم إلى بعثة الحكومة، وهكذا.. حولت بعثتي من حساب عائلة الخريجي إلى نفقة الدولة لدراسة الأدب الإنجليزي.

الحياة العملية

■ دعنا نتحدث عن بداية الحياة العملية؟

- بعد التخرج في القاهرة عملت مفتشاً للغة الإنجليزية في وزارة المعارف سنة واحدة، وبعد ذلك عملت معيداً في جامعة الملك سعود، وكانت لتوها مفتتحة، وبعد إتمام سنة معيداً في الجامعة ذهبت إلى إنجلترا لمدة سنة أيضاً ثم عدت للسعودية، وبعد سنة أخرى ذهبت إلى أمريكا ودرست في جامعة نبراسكا وحصلت على الماجستير، ثم انتقلت إلى جامعة نيو مكسيكو ودرست أربع سنوات حيث أنهيت الدراسات التي تسبق رسالة الدكتوراة.

■ ولكن لم تحصل على الدكتوراة.

- خلال السنوات الأربع تلك درست كل تاريخ الأدب الإنجليزي من بدايته إلى العصر الحديث، كان عملاً مرهقاً وشاقاً شتاء وصيفاً، ولم أتمتع بأية إجازة. ويقول: حين أروي هذه القصة أحزن حزناً شديداً؛ لأنني لم أحقق مبتغاي وهدفي بعد كل هذا الجهد.

أرق مزمن

■ لماذا؟

- لم أنجح في امتحان عام لتسجيل كل الدراسات التي أكملتها في السنوات الأربع، عندما دخلت هذا الامتحان وهو يؤدى في يومين لكنني.. كنت مرهقاً وفي حالة نفسية سيئة. دخلت الامتحان في اليومين بعد ليلتين لم أنم فيهما على الرغم من الحبوب المنومة التي أخذتها.

وعلى الرغم من الدرجات الجيدة التي حصلت عليها خلال السنوات الأربع، فلم يشفع لي ذلك عند أساتذتي. وعلى فكرة أنا أعاني من أرق مزمن.

■ هل هذا المرض قديم؟

- منذ أن كنت في التوجيهي.

■ هل له أسباب معينة؟

- الأسباب هي أني حين ذهبت لمدرسة تحضير البعثات في مكة كنا

ننام ستة أشخاص في غرفة واحدة، وأنا غير متعود ولم أستطع التكيف والنوم مع ستة أشخاص في غرفة واحدة. ولهذا ما كنت أنام. ويروي ضاحكاً حتى إن لي قصصاً كثيرة وخلافات في هذا الصدد مع الإخوان الذين كانوا يسكنون الغرفة نفسها.

مترجم الملك فيصل

■ بعد أن عدت للتدريس في جامعة الملك سعود، ما خلفية تعيينك مترجماً في الديوان الملكي؟

- بعد العودة من أمريكا بكل آلامها عدت لجامعة الملك سعود، وبعد كل الجهد الذي بذلته، ويشهد بهذا الزميل العزيز دكتور عزت خطاب، حدث في هذه الأثناء أنه كان لدى الملك فيصل - رحمه الله - مترجماً اسمه عبدالعزيز الماجد - رحمه الله - وحدث أنه مرض، فاتصل الديوان الملكي بمعالي الشيخ حسن آل الشيخ وزير المعارف آنذاك - رحمه الله - طالباً منه البحث عن مترجم بديل لعبدالعزيز الماجد، كما أحضروا عدداً من المترجمين من جهات أخرى ولكن أحداً لم يوفق منهم.. لأنهم كانوا يشعرون بالرهبة والهيبة أمام الملك فيصل، إلى أن دلهم شخص ما علي. فاستدعوني للديوان الملكي.

■ من قابلت أول مرة في الديوان؟

- قابلتهم كلهم، قابلت صاحب السمو الملكي الأمير نواف بن عبدالعزيز الذي كان مستشاراً للملك فيصل، كما قابلت الدكتور رشاد فرعون يرحمه الله ومعالي الشيخ محمد النويصر رئيس الديوان ومعالي السيد عمر السقاف يرحمه الله.

ويقول: لكن الذي شجعني ووقف بجانبي كان السيد عمر السقاف الذي كان وزير الدولة للشؤون الخارجية - رحمه الله - هذا الرجل كان واحداً من الناس الذين شجعوني كثيراً.

■ ما أول مهمة ترجمة قمت بها للملك فيصل؟

- كانت أول مهمة لي تقديم أوراق اعتماد سفير، وكانت أول مواجهة لي مباشرة مع الملك.

■ متى كان ذلك؟

- كان عام ١٩٦٨ .

■ تذكر سفير أي دولة كان الضيف.

- أعتقد إن لم تخني الذاكرة أنه كان سفير الهند. المهم ألقى السفير كلمته، ورد عليه الملك وترجمت الرد، ثم بعد ذلك أبلغوني بأني أجدت الترجمة.

■ واستمريت من ذلك الحين مترجماً للملك؟

- لا... بعدها استمريت في عملي مدرساً في الجامعة إلى آخر العام الدراسي ١٩٦٨م، وكنت أحضر للديوان متى ما احتاجوني إلى أن أنهيت العام الدراسي. وبعدها انتقلت للديوان.

أول مرة ألبس البشت

■ تلك كانت المرة الأولى التي تلبس فيها البشت؟

- نظر إليّ باندهاش وقال: من أين أتيت بهذا السؤال؟ ثم رد ضاحكاً أظن نعم أنها كانت المرة الأولى. وأكمل وهو يضحك أظن والله.

■ يمكن لبست بشت العرس من قبل؟

- أنا تزوجت في القاهرة بالبدلة.

مرحلة الديوان

■ بدأت رحلة عملية جديدة مع الملك فيصل، هل كنت متخوفاً من هذه التجربة؟

- أن تكون مترجماً فهذا يتطلب موهبة وقدرة، ولكن حين تأتي للترجمة الفورية فالأمر يتطلب أيضاً بعض رباطة الجأش.

حول العالم

■ متى كانت أول رحلة لك مع الملك فيصل؟

- كانت أول رحلة لي مع الملك فيصل بعد تعييني مباشرة، ولم أكن قد اكتسبت خبرة كافية في الترجمة للملك، فكانت أول رحلة معه حول العالم التي بدأها من الرياض، فماليزيا، فالصين الوطنية (تايوان الآن) ثم إندونيسيا واليابان ومنها طرنا إلى أمريكا ومن سان فرانسيسكو إلى واشنطن ومن واشنطن إلى باريس وأخيراً جدة.. وقابل جلالته جميع رؤساء الدول التي زرناها.

■ كنت تسمع الكثير من الأسرار؟

- بحكم عملي كمترجم كنت أنقل ما يدور ولكنني لست طرفاً فيه.

■ دون عاطفة؟

- ما ينبغي أن تتدخل عاطفتك في العمل ولا يجب أن تكون أكثر من آلة تسجيل. وقال مشيراً إلى أذنه: يدخل الكلام من هنا إنجليزياً يخرج عربياً وبالعكس.

بين الشوربة والترجمة

■ هل تروي لنا بعض المواقف الطريفة التي حدثت معك وأنت مترجم؟

- ابتسم وهو يروي أنه كان برفقة خادم الحرمين الشريفين حينما كان ولياً للعهد في زيارة إلى إيران أيام الشاه محمد رضا بهلوي، ومن ضمن برنامج الزيارة كان هناك غداء عمل، حيث وضعوا مائدة صغيرة وكان يجلس عليها الشاه ورئيس وزرائه أمير عباس هويدا وربما وزير خارجيته، ومن الجانب السعودي كان الأمير فهد والي العهد والأمير سعود الفيصل وأحمد زكي يماني وزير البترول الأسبق وأنا، المهم أجلسونا على المائدة، ولم يكن هناك مترجم غيري، ولكن وضعوا لي مكاناً معهم على الطاولة نفسها، وجرت العادة أن يجلس المترجم خلف الزعيمين للترجمة بينهما.. فقلت بيني وبين نفسي شيء جميل أن أجلس معهم على طاولة واحدة، بدؤوا في تقديم الشوربة أولاً فتناولت الملعقة لأشرب الشوربة هنا بدأ الشاه يتحدث فتركت الملعقة في الطبق.

وأنهيت ترجمة ما قاله الشاه فتناولت الملعقة من جديد لأرشف من الشوربة وهنا رد سمو ولي العهد على ما قاله الشاه فوضعت الملعقة مرة أخرى في الصحن لأترجم ما قاله، وهكذا وجدت أنه لا يمكنني أن آكل شيئاً، حيث يصعب الجمع بين الترجمة والأكل فوضعت المعلقة جانباً وتفرغت لعملي.

غداء الملك بالديوان

■ كيف كان يتعامل معكم الملك فيصل بعيداً عن أجواء الرسميات؟

- أول ما عملت في الديوان كان للملك فيصل عادات لا يمكن أن يغيرها، وهو دقيق إلى درجة متناهية في هذه الأمور، كان من عادته - رحمه الله - أن يتناول طعام الغداء بالديوان سواء كان في الرياض أو في جدة. فكان معظمنا نتناول الغداء معه. وكان يروي لنا حكايات في غاية اللطف والظرف.

لكن الملك - يرحمه الله - في السنوات الأخيرة من عمره بدء يتغير وكثيراً ما يكون مع نفسه، وأذكر أنه كان - رحمه الله - يقضي إجازاته في جنيف فلا يخرج من الفندق أبداً، فكان يستقبل بعض الزوار والضيوف، ولكنه لم يكن يخرج من الفندق، فهو كان يميل للصمت كثيراً.

مع الملك خالد

■ ومع الملك خالد - رحمه الله؟

- في عهد الملك خالد كنت قليلاً ما أقوم بالترجمة.

■ هل هذه العلاقة الملكية وجدت نوعاً من الوصال الإنساني مع أصحاب الجلالة الملوك؟

- الله... الله.. يا أخي خارج العمل الرسمي والوقت الرسمي الملك نفسه ليس إلا إنساناً، خاصة ملوكنا يعيشون حياة بساطة مع من حولهم ويضحكون ويتكلمون معنا بكل بساطة.

■ هل من مواقف أخرى ما زالت عالقة في ذاكرتك بعد زيارة طهران؟ وهل يتطلب العمل في مثل هذه المواقع إلى موهبة وفطرة أم إلى خبرة مكتسبة، أن تكون رجل مراسم، وعلى هذا المستوى الرفيع من التعامل مع هذه الشخصيات؟

- دون شك كونك تعمل مع القمة سواء مع الملك أو مع ولي العهد يجب أن تكون كل حواسك متيقظة، ولأدلل على هذا، إنني حين أكون في مهمة عمل رسمي وارتباطات تجد أن أطراف يدي مثل الثلج، ونحن نحاول تلافي أي خطأ، وإن حصل هناك خطأ لا سمح الله، فإن مسؤولينا يدركون أن الكمال لله وحده، ومن يعمل لابد وأن يخطئ أحياناً.

مع الملك حسين

■ هل تروي لنا بعضاً من هذه المواقف؟

- حصل لي موقف مع خادم الحرمين الشريفين - حفظه الله - حينما كان ولياً للعهد، حين زارنا الملك حسين - رحمه الله - في الطائف، وبعد أن أقام له الملك حفل العشاء الرسمي؛ لأن الملك خالداً - رحمه الله - كان مسافراً خارج السعودية، فسألت رئيس المراسم الأردني هل ستظلون غداً عندنا إن شاء الله؟ قال: نعم جلالة الملك حسين يريد أن يمضي الليلة هنا في الطائف.

وفي اليوم التالي كان جلالة الملك حسين مع الأمير فهد يتبادلان الحديث، في هذه الأثناء كان أصحاب المعالي الوزراء ينتظرون

إشارة مني فيما إذا كان الملك سيسافر أم لا، فأكد لي رئيس المراسم أن الملك لن يسافر، فأبلغت أصحاب المعالي الوزراء أنه لا سفر اليوم. وكنت قد أعددت غداء في قصر الضيافة.

وصل الأمير فهد إلى قصر الضيافة وجلس مع الملك حسين في الصالون يتحدثان، وبينما نحن ننتظر أن يتوجها إلى قاعة الطعام بعد المحادثات، فوجئت بالأمير وضيفه ينهيان محادثاتهما ويتوجهان مباشرة إلى باب الخروج. اندفعنا جميعاً نتسابق إلى سياراتنا متوجهين إلى المطار. طبعاً لم يكن في المطار مودعون، لكن شاء حسن الحظ أن يكون الأمير سلطان قد قدم من الرياض إلى مطار الحوية وأخبر قبل مغادرة المطار أن الأمير فهد وضيفه متوجهان لمطار الحوية فانتظر قدومهما. جرى الوادع الرسمي للضيف، بينما العرق البارد يتصبب على وجهي مما كنت أنتظره من سمو ولي العهد. كانت عينا الأمير فهد تقدحان شرراً وهو ينظر إليّ، وأومأ فأسرعت نحوه، وقبل أن يقول أي شيء بادرته بأن عدم وجود الوزراء الرسميين للتوديع كان نتيجة لتعليمات مني.

وشرحت له ما كان رئيس المراسم الأردني قد أكد لي بأن الملك حسين كان سبقى ذلك اليوم كله في الطائف ويسافر في اليوم التالي.

وبمثل ما استشاط غضباً في لحظة تلاشى غضبه في اللحظة التالية بعد أن سمع شرحي. أدعو الله تعالى أن يحفظه ويلبسه ثوب الصحة والعافية.

مع حرس صدام حسين

■ وماذا بعد ذلك؟

- ذات مرة زارنا صدام حسين، وكانت الحكومة في المنطقة الغربية والملك خالد رحمه الله في رحلة خارج المملكة. ووقفاً للتقاليد، استوجب الأمر أن أصعد للطائرة للترحيب به، وما إن دخلت طائرته حتى قام حرسه بتفتيشي تحسباً لأن يكون لدي مسدس أو سلاح أغتال به الرئيس!!.

يوم المغادرة وعندما وصل سمو الأمير فهد ليصحب ضيفه إلى المطار وجلس الاثنان لحظات في الصالون قبل التوجه إلى المطار وجاءت القهوة. لكن رئيس حرس صدام أصر على أن يشرب رئيسه من نفس دلة الأمير فهد. وعبثاً حاولت أن أشرح له أن التقاليد تقضي أن تقدم القهوة من شخصين للضيف والمضيف في وقت واحد ولكنه لم يقتنع.

تظاهرت بالموافقة على طلب الحارس وأشرت إلى واحد من القهوجيين وقلت: هذا قهوجي الأمير وأشرت له بالتقدم، ثم وبسرعة دفعت الثاني وراءه وأنقذت الموقف.

دروس إضافية:

■ كتبت رواية «دروس إضافية» ولكنها لم تلق النجاح الذي لقيه كتابك «ما لم تقله الوظيفة» لماذا؟

- لا أعـرف إذا كـان العـيب في الرواية أم من وزارة الإعـلام بمنع تداولها.

■ لماذا منعتها الوزارة؟

- أنا أزعم أنه ليس هناك ما يمنع تداولها، إنه لمن السذاجة بمكان أن تمنع رواية أو كتـاب ليس هناك مبـرر أن يمنع، ثم من هم الناس الذين يقررون ما إذا كان كتاب ما يجوز أن يتداول في بلادنا أم لا؟.

■ معنى هذا أنك غير راض؟

- ليست مسألة رضا من عدمه. العالم أصبح اليوم قرية مباحة تسمع وتشـاهد مـا يخطر ومـا لا يخطر على بالك. فهل لا تزال هناك مبـررات لمنع كتـاب ما أو مقـالة من أن تطبع وتقـرأ؟ المنافسـة على عقـول الناس وعلى عواطفهم هي من أشـرس ما عـرفه العـالم من صراع للاستيلاء على أدمغة الناس. وعلى المسؤولين عن الإعلام والكتابة والنشر وغيرها من وسائل المعرفة أن يخرجوا من الدائرة الضيقة التي وضعوا أنفسهم فيها أو وضعهم غيرهم فيها.

إن ما يجوز وما لا يجوز قوله وكتابته معروف، والذوق السليم وقبلها ديننا العظيم وتقاليدنا هي التي تملي علينا الرقابة الذاتية وليس أشخاصاً يجهلون معنى ما يمنعون.

■ ماذا عن صحافتنا السعودية؟

- أعتقد أن صحـافتنا بدأت تتلمس طريقها وفيها نقلة نوعية جيدة، وأستطيع أن أقول إن صحافتنا تُقرأ.

■ هل ستعاود الكتابة؟

- لم تعد لي نفس في الكتابة.

■ هل ترى الطرح الثقافي على المستوى العام يشجع على المتابعة؟

- لا .. ليس كثيراً. لأننا ما زلنا في البدايات.

■ أراك تكرر اسم الدكتور عزت خطاب كثيراً؟

- هؤلاء زملائي وأصدقائي الدكتور عزت خطاب والدكتور منصور الحازمي والدكتور أحمد البدلي والأخ حسين سجيني ومحمد العتيبي وغيرهم كثير من الإخوان والأحباب.

بعد التقاعد

هل تخطط لما بعد التقاعد؟

- نحن العاملين في الديوان الملكي نضع أنفسنا في تصرف أولياء أمورنا، عندما يرون حفظهم الله أنه حان الوقت لأن نغادر مواقعنا فسوف يعلموننا بذلك. أما غير هذا فنحن نخدم إلى أن يشاء الله.

■ ألا يراودك الحنين للعمل الأكاديمي؟

- قضيت كل هذا العمر الطويل وأنا أحن إلى التعليم الأكاديمي، حيث كانت بدايات حياتي العملية أستاذاً للغة الإنجليزية في جامعة الملك سعود، وأقول الآن بعد هذه التجربة الطويلة لا أرى مهنة أنبل ولا أجمل من مهنة أستاذ الجامعة الذي كنته في يوم من الأيام، وطالما

راودتني نفسي أن أعود للجامعة ولو بعمل جزئي، لكن تنقلي مع الديوان الملكي في سفريات داخل البلاد وخارجها جعل مثل هذا الأمر صعب التحقيق.

■ كيف تجد عملك في الديوان الملكي؟

- شرف كبير أن أعمل مترجماً للملك فيصل ثم الملك خالد - رحمهما الله - وخادم الحرمين الشريفين وولي عهده الأمين، كما عملت عن كثب مع الأمير سلطان، شرفت بالعمل معهم جميعاً وأنا لا أزال أشغل نائب رئيس المراسم الملكية.

■ كونك تحن للعمل الأكاديمي، هل وجدت متعتك فيه؟

- في الحقل الأكاديمي لا يوجد الكثير من التنافس، ثم إن الأكاديمي لا يتطلع إلى المناصب الإدارية. أما المناصب الإدارية فهي تظل وظيفة، وفي الوظائف توجد المنافسة، ولهذا تجد من يعمل ربما لنفسه أكثر مما يقدمه لمتطلبات عمل الوظيفة، عموماً المنافسة في جميع الأعمال موجودة ولكن لا يتمنى الإنسان أن يكون التسابق على المصلحة الشخصية؛ لأن في هذا خيانة للأمانة التي اؤتمن الموظف عليها.

■ أعرف أنك من أقدم من حصل على المرتبة الممتازة، إلى أي حد صحيحة هذه المعلومة؟

- نعم أنا الآن أقدم موظف في الدولة في المرتبة الممتازة، ولقد جاء كثيرون بعدي ولا أزال في نفس وضعي، ولا يبدو أن هناك ما يشير إلى تغيير الحال الذي أنا فيه ■

المقالات المترجمة

مقدمة:

هذه المقالة هي الأولى من أربع مقالات ظهرت في جريدة الصنداي تايمز اللندنية عن الأهوال التي حدثت للمسلمين في أثناء حرب البوسنة. لقد قمت بترجمتها دون أي تصرف مني ودون أي تعليق، لأنني والله أرى أن أي تعليق أو أي كلام أقوله حولها لن يكون إلا كلاماً سمجاً تافهاً، لن يرقى إلى أعتاب المأساة الحزينة التي هزت ضمائر القلائل الذين بقيت لديهم ضمائر في هذا العصر الذي يودّع فيه العالم القرن العشرين، الذي يتميز بالتفردية المطلقة التي يعيشها أهل الأرض اليوم، حيث لا يذرف إنسان دمعة على مصير إنسان آخر مهما جلت مصيبته وعظمت كارثته.

الأحداث التي نسوقها اليوم والتي جلبت الخزي والعار ليس للمسلمين فقط بل للعالم أجمع، سجلها كاتب إنجليزي لم يفعل هو الآخر أكثر من أن قدمها للعالم كما حدثت؛ ليظهر حجم المؤامرة التي دبرتها دول الغرب وحكوماتها بمباركة الأمم المتحدة وبقية دول العالم المتحضر التي تستقبل القرن الحادي والعشرين!.

إنها مأساة حوت من الذل ما يكفي لتوزيعه على كل مسلمي العالم. مأساة سوف تبقى تصب لعناتها فوق رؤوس المسلمين إلى أن يشاء الله، وتنطلق تلك الشرارة، شرارة عودة الروح إلى الإنسان المسلم، والتي لا أحد يدري متى ستنطلق أو إن كانت ستنطلق، قبل أن

يفنى الرجال المسلمون من على وجه الأرض، ليس فقط من ضربات أعدائهم بل أيضاً من أثر اللعنات التي سيبقى أبناؤهم ونساؤهم يصبونها فوق رؤوسهم ■

المحكومون بالإعدام[(١)]

كتبها: جون سوين، جريدة الصنداي تايمز ١٢ مايو ١٩٩٦م.

اكتسى وجه الجنرال راتكو مالديتش بابتسامة شامتة وهو يستعرض مئات المسلمين الأسرى الذين كدسوا في عرين المدرسة. وقف الجنرال الصربي أمام ذلك البحر الزاخر من البؤس وهو يرتدي بدلته العسكرية الخاكي ويتحدث مع جنوده ويلقي عليهم الأوامر. افترش الأسرى الأرض العارية الصلبة وقد أحنوا رؤوسهم وبدت وجوههم الكالحة وقد فقدت تعابيرها من جراء الإرهاق ينتظرون مصيرهم المحتم الذي لا يعرفون كيف ومتى سيأتي.

ركز الجنرال الصربي المحاط بمساعديه العسكريين نظره لثوان قليلة على المساجين الذين تكدسوا فوق بعضهم في جو الصيف الملتهب. «أهلاً بالجيران» هكذا خاطبهم وهو ينقل بصره بينهم. وصاح بعض المساجين «لماذا تخنقنا في هذا المكان الضيق؟ ولماذا لا تقتلنا جميعاً؟» ودون أن يرد بكلمة دار مالديش ظهره وغادر المكان.

لقد كانت لديه كل الأسباب التي تجعله راضياً عن نفسه. حيث إنه منذ ثلاثة أيام وبهجوم وحشي مفاجئ استولى على سربرنيتشا وهي البلدة التي أعلنتها الأمم المتحدة مكاناً آمناً في شرق البوسنة.

---

(١) نشرت في جريدة عكاظ.

لقد كان ذلك نصراً عظيماً لمالديتش على أعدائه المسلمين. لقد جعل من الرأي العام العالمي مهزلة عندما تمكن بحركة سريعة في ١١ يوليو من العام الماضي القضاء على جيب للمسلمين كان قد شغل الآلاف من جنوده لمدة ثلاث سنوات. لقد طرد بعد هذه الحركة أربعين ألف مسلم من المدنيين والجنود، ويبدو أن الهدف الذي يسعى إليه هو أن ينهي الحرب البوسنية في خريف عام ١٩٩٥ بضربات متلاحقة مؤلمة، كان يسير وفق الخطة المرسومة. في الوقت نفسه كانت رسالة الأمم المتحدة في البوسنة قد بدأت تنهار.

لم يكن السجناء في استاد المدرسة إلا عدد قليل من آلاف أخرى معظمهم من الرجال في سن الشباب الذين حاولوا الهروب والنجاة بأنفسهم بعد احتلال سربرنيتشا. وهؤلاء كانوا قد كونوا مجموعات حاولت أن تجد طريقاً للهرب في رحلة تحفها مخاطر الموت في كل لحظة، حيث كان عليهم أن يخترقوا المناطق التي يحتلها الصربيون في محاولة للوصول إلى مدينة توزلو التي تقع تحت السيطرة البوسنية. ولكن في محاولاتهم تلك ألقي القبض على جماعات عديدة منهم وجمعوا في مناطق حول سربرنيتشا. ومن هناك كانوا يساقون إلى مجازر لم تر أوروبا مثيلاً لها منذ الحرب العالمية الثانية. ولم تكن تلك المجازر إلا سلسلة من عدد من المذابح التي اقترفها مالديتش الذي أدانه بسببها «مجلس» جرائم الحرب لاهاي. ولكن وعلى الرغم من أن المجلس المذكور بدأ ينظر في حالات الجرائم التي ارتكبت في البوسنة فإن جريمة «بسيطة» مثل تلك التي اقترفها مالديتش سوف تنجو من العقاب! لماذا؟

لا يزال مالديتش حراً طليقاً ينتقل في البوسنة أينما شاء وتحت سمع وبصر القوات الدولية على الرغم من أنه مطلوب للمحاكمة في لاهاي. كذلك لا يزال رادفان كاراديتش مجرم الحرب الصربي الأكبر يتحدى شعور العالم كله ويهزأ بقرارات الأمم المتحدة التي تطالب بمحاكمته.

إن دراسة مكثفة قامت بها (الصنداي تايمز) لا تثبت فقط أن جريمة مالديتش واضحة وثابتة، بل تدل أيضاً على أن ما قام به هذا الرجل هو جزء بسيط من مخطط أوسع كثيراً مما يرى على السطح، وأن أبطاله هم قمة السلطة في الحكومة الصربية في بلغراد. ولقد أكدت دراسة (الصنداي تايمز) أن مالديتش ما زال حراً طليقاً، وأن الأمم المتحدة والحكومات الغربية لم تحرك ساكناً لإيقاف الجنرال ورفاقه، كما أنهم لم يريدوا أن يكتشف ضعفهم أمام العالم في محاكمات علنية. ولقد بينت استقصاءات الجريدة أن أفراد المراقبة كانوا موجودين سراً في سربرنيتشا، وأنهم كانوا ينقلون تقاريرهم إلى الجنرال روبرت سمث قائد بعثة الأمم المتحدة الإنجليزي عندما هاجم الصرب المدينة. كانت مهمة أولئك الجنود أن ينبهوا المسؤولين كي تقوم طائرات الأمم المتحدة الحربية بضرباتها لصد الصربيين عن سربرنيتشا. إلا أن تحذيرات أولئك الجنود جاءت متأخرة، وذلك حسب أقوال بعض الناجين من المسلمين؛ لأنهم أصروا على الادعاء أن الهجوم الصربي ليس ذي خطر كبير.

كان بين أسرى مالديتش الذين كدسهم فوق بعضهم في استاد المدرسة محيي الدين أوريش وابن عمه حارس أوريش. كان محيي الدين نحيل الجسم يتمتع بنظرات قوية وشعر فاتح.

وكان في منتصف العشرينيات من عمره، بينما كان ابن عمه أصغر منه بسنة واحدة ولديه طفلة عمرها خمسة أشهر.

لقد عاش الاثنان معاً منذ أن كانا طفلين في قريتهما ليهوفيتش التي تقع إلى الشمال قليلاً من سربنيتشا. وقد جلس الاثنان الآن في وسط الاستاد الذي امتلأ عن آخره بالسجناء أمثالهم من المسلمين، حيث كان الرجال يجلسون فوق بعضهم من فرط ازدحامهم في الفراغ الصغير، وقد اختفى الدم من وجوههم وملأت أعينهم نظرات الرعب.

يتذكر محيي الدين منظر مالديتش فيقول: «كنت أراه يبتسم مع جنوده وأعتقد أنهم كانوا سعداء. ولم يعطني منظره أي أمل في الحياة. وهذا ما كنت متيقناً منه». بعد رحيل مالديتش بخمس عشرة دقيقة أمر جنوده المسلحين بالرشاشات والبنادق السريعة الطلقات، السجناء أن يقفوا في صف واحد ويتجهوا نحو باب الخروج.

وقد أرفقوا أمرهم هذا بركل أقرب سجينين لهما بأحذيتهما الثقيلة بأن يقفا، ثم أمروهما بأن يعصبا عيني كل سجين يخرج من الباب إلى نور الشمس. اقتيد المساجين على شكل مجموعات صغيرة نحو عربة عسكرية كان محركها يدور. أخبروا السجناء أنهم سيأخذونهم إلى معسكر باتكوفيتش القريب من بيجلجينا وهي بلدة يحتلها الصرب وتقع في شمال شرق البوسنة.

يقول محيي الدين: «كان كل واحد منا يظن أنه لن يحدث شيء أسوأ مما حدث إلى الآن. لقد كان عددنا كبيراً جداً مما جعلنا نعتقد

أنه من المستحيل أن يقدم الصرب على قتل كل هؤلاء الرجال. إلا أنني لم أصدق أن الصرب كانوا يأخذون الأسرى إلى بيجلجينا؛ لأن الشاحنة العسكرية كانت لا تلبث أن تعود فارغة بعد مدة قصيرة لتأخذ شحنة أخرى من السجناء».

مرت بضع ساعات قبل أن يأتي الدور على محيي الدين ليساق مع آخرين معصوب العينين ويصعد إلى الشاحنة. كان معه فوق ظهر العربة اثنا عشر شاباً آخرين من بينهم ابن عمه حارس. وبينما كانت العربة ترتفع وتنخفض فوق الطريق الوعرة أزال محيي الدين الغطاء من فوق عينيه ليرى إن كان بإمكانه الهرب. كان ذهنه مرهقاً ومشوشاً من جراء أحداث الساعات التي مرت عليه.... يستمر إضافة إلى ذلك فقد شعر بالدوار من جراء نور الشمس الساطع الذي صدم عينيه فجأة. إلا أنه استطاع أن يرى سيارة حمراء ربما كانت أوبل أو فورد تسير خلفهم وبداخلها عدد من الجنود. كان واحد من أولئك الجنود الجالسين في المقعد الخلفي لتلك السيارة يصوب نحوهم فوهة بندقيته وقد بدت على سحنته علامات التهديد.

بعد دقائق توقفت العربة في أرض يغطيها العشب والنباتات.. وتحقق المساجين أن حكاية بيجلجينا لم تكن إلا كذبة قاسية، وأنها اتخذت لإخراجهم من استاد المدرسة دون مشاكل. كانوا قد قطعوا حوالي ميلين فقط عندما أمرهم عساكر الصرب أن يترجلوا من الشاحنة ويقفوا في صف واحد فوق الحشيش...

عند ذلك وجد حارس أنه قد انفصل عن ابن عمه فناداه ليكون بجانبه؛ لأن الرعب بدأ يستولي عليه. إلا أن عسكر الصرب نهروه بقسوة وصاحوا على الجميع أن يلتصقوا ببعضهم. في أثناء ذلك وجد أبناء العم بعضهما ودون كلام مد محيي الدين يداً متسخة وقبض على يد ابن عمه وضغطها بقوة. «عند ذلك قال لي إن الصرب ينوون قتلنا وأجبت بالنفي لأطمئنه». يقول محيي الدين ويضيف: «لقد نشأت مع ابن عمي وأمضينا حياتينا معاً وأكن له حباً كبيراً. في تلك الأثناء بدأ جنود الصرب يطلقون النار علينا».

مزق صوت الرصاص سكون الفضاء وتجاوبت أصداؤه مع الجبال القريبة من المنطقة. وكان حارس من بين الأوائل الذين سقطوا. يقول محيي الدين: «عندما صرخ تركت يده ورميت بنفسي على الأرض. أدركت أنني لم أمت لأنني كنت أسمع صرخات الموت من حولي بينما لم أشعر أنا بأي ألم. جاء سقوط حارس فوقي وكان لا يزال حياً إلا أنه سرعان ما مات وقد أنقذ حياتي بسقوطه فوقي».

مكث محيي الدين مستلقياً على بطنه عاجزاً عن الإتيان بأي حركة. كان الدم الذي تسرب من خلال ملابسه إلى جسمه ومنه إلى الأرض تحته هو دم ابن عمه. بقي هكذا قابعاً في مكانه كالفأرة المذعورة ممثلاً دور الميت وجسد ابن عمه الميت فوقه مدة تسع ساعات كاملة. كان أنفه وعيناه وفمه تلامس الأرض. والأدهى من ذلك كانت لسعات النمل الذي بدأ يتجول فوق أنحاء جسمه والتي كانت أشبه بحروق النار. وما إن خف تدريجياً إطلاق النار حتى بدأ

بقوة مرة أخرى عندما أحضرت مجموعة جديدة من المساجين وأخذوا إلى نقطة أخرى غير بعيدة عن مكان المجزرة الأخيرة.

كان محيي الدين يسمع أنات الألم من بعض المساجين الذين لم يقضوا نحبهم من الرصاصة الأولى قبل أن يتلقوا زخة جديدة من الرصاص تسكتهم في الحال. يقول محيي الدين: «كان الصرب يتجولون بين أكوام الأجساد المسجاة على الأرض وإذا رأوا واحداً لم يمت بعد كانوا يضحكون ثم يركلونه بأرجلهم ويخاطبوه قائلين: ما هذا الذي نراه يا جدي.. هل جرحت؟ وهل تريد ضمادة أو أية مساعدة؟ ثم بعد ذلك يطلقون عليه رصاص رشاشاتهم. هذه كانت طريقتهم».

كان محيي الدين يسمع بين آونة وأخرى جنود الصرب وهم يضحكون ويتلفظون بأبشع أنواع الشتائم التي تنصب كلها على المسلمين الذين يقتلونهم. «كانوا يتكلمون مع ضحاياهم الميتين وكانوا يصيحون بسعادة: نشعر بأكبر الأمان عندما نراكم هكذا ميتين يا أبناء...». ولقد سمع محيي الدين رجلاً كهلاً يتوسل لجنود الصرب أن لا يقتلوه. كان يقول لهم: «أرجو أن لا تقتلونا هكذا يا أبنائي فنحن لم نؤذكم بشيء». إلا أنهم قتلوه هو الآخر.

كان هناك حفار كبير يحفر قبراً جماعياً. توقف الحفار في المساء إلا أن طلقات البنادق لم تتوقف طوال الليل، وكان محيي الدين يرى بريق الرصاصات وهي تنطلق من فوهات البنادق. قال: إنه يعتقد أنه كانت هناك مجموعتان من جنود الصرب الذين قاموا بعمليات الإعدام الجماعية، وكانت المجموعة تتكون من حوالي خمسة جنود.

كانوا يضحكون عندما يتسابقون فيما بينهم في إعادة تعبئة رشاشاتهم بطلقات جديدة. لقد أحالوا الحقل الرابع إلى سلخانة رهيبة. عندما توقف إطلاق الرصاص سمع محيي الدين صوت عربة تقترب ويترجل منها رجل ليسأل الجنود إن كانوا قد أنهوا مهمتهم ثم أضاف: «إن الوقت متأخر لدفن الموتى هذا المساء ولكن ستكون هناك حراسة على الجثث. بعد ذلك بدؤوا يتخاصمون فيما بينهم إذ لم يكن أحد منهم يريد أن يمكث طوال الليل في حراسة كل أولئك الأموات. أبناء الـ... إنهم كلهم أموات ولا يحتاجون إلى حراسة. لماذا لا نغادر هذا المكان ونستريح باقي الليل؟ ثم أوقفوا حفارهم واعتلوا ظهره وغادروا».

عاد الهدوء المخيف يخيم على المكان بعد أن تلاشى صوت الحفار، ومع تلاشي الصوت عاد الأمل إلى محيي الدين في أن يبقى حياً. وفي الظلام الكثيف أزاح جسم ابن عمه الملقى فوقه منذ ساعات عديدة ووقف على قدميه. استطاع من خلال ضوء القمر أن يرى أكواماً من الأجساد الميتة فوق بعضها. جلس مرة أخرى بين الأشلاء الممزقة حوله وبكى. بعد ذلك صاح طالباً المساعدة ورأى شبحاً يخرج من قلب الظلام متجهاً نحوه - إنه حورم سلجق وهو مسلم آخر نجا من المجزرة بأعجوبة. بحث محيي الدين عن حذائه بين الأجساد الميتة الممدة حوله ولم يجده. كان عليه أن ينتظر وقتاً طويلاً قبل أن يعود الدم يجري في أطرافه التي تيبست طيلة الساعات الماضية. في أثناء ذلك سمع أنات رجلين ما زالا على قيد الحياة؛ وعندما أنصت جيداً

جاءته أناتهم أكثر وضوحاً وإيلاماً. كانا ممدين بين الجثث التي أحاطت بهما وكان أحدهما مصاباً برأسه بينما الآخر كانت إصابته في ساقه. جلس على ركبتيه بينهما وعبر لهما عن أسفه لما حدث وحزنه عليهما وعلى الآخرين الذين قضوا، وأضاف أنه لا يمكنه عمل شيء.

كان أحد الجريحين يشتكي من البرد الشديد فخلع محيي الدين قميصه ولفه حول الرجل الذي كان في نزاعه الأخير وأمسك بيده وضغط عليها قبل أن يتركه ويتوجه مع سلجق نحو التلال حيث وجدا إسماعيل هوجيش وهو مسلم آخر نجا من مجزرة مشابهة. وبعد هيامهم على وجوههم بعض الوقت وصل الثلاثة إلى منطقة تسيطر عليها الحكومة البوسنية.

كان محيي الدين قد تلقى تحذيراً قبل أسبوعين من مأساته هذه أن الصرب يخططون لاحتلال سربرنيتشا.

كانت المدينة الصغيرة التي تحوطها التلال العالية الواقعة في شرق البوسنة التي تبعد أميالاً قليلة عن نهر درينا قد تعرضت قبل ذلك إلى مصاعب كثيرة في السنوات الثلاثة الماضية في أثناء الحرب، إلا أنها كانت بصفة خاصة هادئة في ذلك الوقت من نهاية يونيو. لقد كانت حرب البوسنة دائماً وكأنها حدث بين أناس تربطهم ببعضهم صلات حميمة؛ ولم تكن تلك الصلات أكثر وضوحاً مما هي في سربرنيتشا، حيث كان الجنود من المسلمين والصرب جيراناً تعلموا في

المدارس نفسها وصادقوا الفتيات أنفسهن. وعلى الرغم من أن تلك الجيرة لم تمنعهم من ارتكاب أفظع الجرائم ضد بعضهم عندما بدأ القتال، مثل: الاغتصاب ونهب الممتلكات وقطع الرقاب، إلا أنها على الرغم من كل ذلك كانت لها حسنة واحدة. كان السعداء من الطرفين في بعض ساعات النهار يضعون أسلحتهم جانباً ثم يخرجون من خنادقهم ويتكلمون مع بعضهم عبر الخط الفاصل بين مناطقهم كما كانوا يتكلمون كأصدقاء عندما كانوا يعيشون في سلام، ثم بعد ذلك يستأنفون القتال ضد بعضهم!... هكذا كان الحال في سبربرنيتشا. في يوم من أواخر أيام يونيه نادى ماكوزيكش، وهو صربي كان جاراً لمحيي الدين، من موقعه في الخندق الصربي غرب المدينة على محيي ليهوفيتشي، وهو اللقب الذي يطلق على محيي الدين. إلا أن محيي الدين كان في ذلك اليوم في منزله مع زوجته وبناته الثلاثة. وأجاب الجنود المسلمون أن محيي سوف يعود غداً إلى الجبهة. وأبلغهم ماكو أن ينقلوا تحياته إلى محيي. ثم أضاف «أخبروا محيي أننا سوف نكون أمام منزله بعد شهرين من الآن!..».

عندما سمع محيي الدين الرسالة قال: «كان مغزى الرسالة مريباً. فقد كان واضحاً أن الصرب يخططون شيئاً ما ضد سربرنيتشا. إلا أنني كنت أشعر أنه بإمكاننا أن ندافع عن المدينة، وسرعان ما أزحت الشكوك من رأسي». ومثل غيره من سكان المدينة كان محيي الدين على ثقة أن الأمم المتحدة سوف تحميها من السقوط بأيدي الصرب كما وعدت.

في أبريل من عام ١٩٩٣ أوشك صرب البوسنة على الاستيلاء على سربرنيتشا إلا أن الجنرال فيليب موريون قائد قوات الأمم المتحدة الفرنسي قاومهم وأبعدهم عن دخولها. وعلى الرغم من ذلك فقد كانت في وضع مأساوي بالغ الصعوبة. لقد كانت دفاعات البوسنيين تتهاوى لعدم وجود الذخيرة لديها. كان عدد القتلى لا يقل عن ثلاثين كل يوم، وكنت ترى الجوع واضحاً على ملامح كل وجه من أبناء المدينة. وعندما حاول الجنرال الفرنسي أن يغادر البلدة تصدى له نساؤها وأطفالها الجياع الذين كانت ملامحهم تنطق بالرعب، ومنعوا قافلته من التحرك، وذلك بناء على أمر من محافظ المدينة الذي كان في ذلك الوقت في سراييفو، ولكنه حذر سكان بلدته أن يتركوا الجنرال يغادرها قبل أن يحصلوا على ضمانات من الأمم المتحدة بسلامتهم. وعندما شاهدهم موريون وهم على تلك الحالة من الرعب وعدهم بصوت غلبت عليه العاطفة أنه لن يتركهم.

كانت تلك المرة الأولى في الحرب التي تتعهد فيها الأمم المتحدة من خلال الجنرال أن تدافع عن مسلمي سربرنيتشا. إلا أنه بينما بدا ذلك الجنرال بطلاً منقذاً في عيون سكان البلدة سبب موقفه النبيل إحراجاً كبيراً لرؤسائه في مركزهم في نيويورك. لقد كان موقف موريون السبب المباشر الذي جعل مجلس الأمن بأعضائه الدائمين يعلن على عجل بلدة سربرنيتشا منطقة آمنة، وكان ذلك في ٦ أبريل ١٩٩٣، كان ذلك يعني أن على القوات الصربية أن تنسحب من المناطق المحيطة بها. إلا أن القرار سرعان ما جابه صعوبات، فقد أصر

مالدتيش الجنرال الصربي أنه لكي يوقف عمليات القتال يجب على القوة المدافعة عن البلدة من البوسنيين أن تستسلم له. ولم يجد سفر خليلو فتش القائد البوسني بداً من التسليم بطلب القائد الصرب ووقع وثيقة التسليم تحت إشراف الأمم المتحدة، وكان ذلك في مطار سراييفو. إلا أن علي عزت بيجوفيتش الرئيس البوسني تقدم بطلب إلى الأمم المتحدة يطلب تأكيد إعلان سربرنيتشا مدينة آمنة بدلاً من تسليم القوات المدافعة عن المدينة.

وكان الحل البديل الذي توصلت إليه كل الأطراف هو أن تسلم القوات البوسنية بعضاً من عتادها على الأقل بينما تتحرك قوة كندية تابعة للأمم المتحدة إلى بلدتهم. إلا أن الصرب الذين كانوا يسيطرون على كل الطرق المحيطة بسربرنيتشا رفضوا الدخول أو الخروج منها لكائن من كان.

وأصرت الأمم المتحدة على الرغم من ذلك أن الاتفاق سوف يقود إلى حماية جيب سربرنيتشا، ولكنه كان واضحاً من البداية أن الاتفاق كان يحمل في طياته خللاً تراجيدياً؛ إذ إن الدول الغربية المشاركة بقواتها الرمزية بما فيها بريطانيا رفضت أن تزيد عدد تلك القوات لتستطيع أن تحمي منطقة سربرنيتشا التي أعلنتها منطقة آمنة.

دعا بطرس غالي أمين عام الأمم المتحدة إلى إرسال ٣٤,٠٠٠ جندي إلى البوسنة لتتمكن المنظمة من تنفيذ قراراها بجعل سربرنيتشا منطقة آمنة. إلا أن طلبه قوبل بالموافقة على إرسال ٧٦٠٠

جندي فقط، لم يتمكن من الوصول منهم إلى منطقة سربنيتشا إلا بضع مئات مما جعل حضور ودور الأمم المتحدة رمزياً لا أكثر. وعلى الرغم من الوضع في سربرنيتشا في شتاء عام ١٩٩٤ - ١٩٩٥ كان صعباً للغاية إلا أنه ازداد سوءاً عندما حل الصيف. فقد منعت القوات الصربية دخول هيئة إغاثة اللاجئين التابعة للأمم المتحدة إلى المدينة. استمر المنع مدة ثلاثة أشهر، وكان هناك ثلاثون ألف شخص يعتمدون اعتماداً كلياً على مساعدة هيئة الإغاثة ويتهددهم الموت جوعاً. ومما زاد الأمر سوءاً على سوء أن البلدة عانت أسبوعاً كاملاً من البرد والمطر والفيضانات؛ مما أفسد معظم إنتاجها الزراعي. وفقد معظم الناس ثقتهم في جدوى وجود سربرنيتشا كمنطقة آمنة، وكان الحديث الشائع بين السكان هو عن أنجح السبل للهرب منها. ولكي يشددوا من قبضتهم على المدينة بدأ الصربيون في تصعيب وصول الإمدادات لها أكثر مما كان قائماً من قبل؛ ففي شهر يونيو مثلاً سمحوا فقط بثلاث شحنات من الأغذية من أصل اثنتي عشرة شاحنة، وهذه كانت تمثل ثلثي ما تحتاجه المدينة فقط.

كانت القوة الهولندية المعسكرة في سربرنيتشا تعاني من نقص في أعداد أفرادها، إذ إن الجنود الصرب رفضوا السماح بدخول ١٢٠ جندياً حلوا مكان زملائهم ممن غادروا البوسنة. كما أن الجنود الموجودين كانوا يعانون من انعدام الروح المعنوية. أصبح وضع المدينة من السوء بحيث بدا للكثيرين بمن فيهم الحكومة البوسنية نفسها أن سقوطها في أيدي الصرب لن يكون بذلك السوء الذي يتصوروه.

أصبح ثلاثة أرباع سكان سربرنيتشا الآن من المهاجرين الذين لم يكونوا يرغبون في البقاء فيها وليسوا على استعداد كبير للدفاع عنها. أما في دوائر الأمم المتحدة العليا وفي لندن وباريس وواشنطن فإن بقاء سربرنيتشا ومناطق أخرى جيوباً آمنة كان يقف عقبة في طريق الحل السلمي!.. وعلى الرغم من ذلك فقد كان بعض المراقبين يرون أن بإمكان سربرنيتشا أن تصمد لمدة شهر آخر أو أكثر. وكان دفاعها يرتكز على ثلاثة عوامل: القوة الهولندية، الجنود البوسنيين الذين كان يظن أنهم مسلحون أحسن مما كانوا فعلاً، ثم أخيراً الضربات الجوية للطيران الحربي التابع لحلف الأطلسي.

كان العامل الرئيس بين الثلاثة هو القوة الجوية؛ إلا أن ذلك أثبت عدم فعاليته بعد قصف بيل، مقر القيادة الرئيسة للقوات الصربية، إذ قام مالديتش على أثرها باعتقال المئات من قوات حفظ السلام التابعة للأمم المتحدة وربط بعضهم بسلاسل إلى أهداف صربية. اقترف مالديتش بفعلته تلك سابقة خطيرة: فإذا كان قد تجرأ على اعتقال جنود الأمم المتحدة فإنه يستطيع بعد ذلك اقتراف أية جريمة دون أن يخشى الحساب. إن أسر جنود حفظ السلام وضع الأمم المتحدة وحلف الأطلسي في صراع عنيف حول توجيه ضربات جوية لإخضاع الصرب المتمردين. وكان ذلك صراعاً أسعد قائد القوات الصربية، إذ بينما كان يتقابل مع قادة القوات التابعة للأمم المتحدة ويوهمهم أنه يحبذ وقف إطلاق النار كان يعد لهجوم سريع كاسح على سربرنيتشا وغيرها من المناطق الآمنة في شرق البوسنة خطط له مع

أعلى السلطات في حكومة بلغراد. كان يريد اكتساح تلك المناطق بسرعة كي يرسل قواته نحو العاصمة سراييفو ليرغم حكومة البوسنة المنهكة على تنازلات مميتة عندما يتقابل معها على طاولة المفاوضات.

لاحظت قوات الحكومة البوسنية المعسكرة حول سربرنيتشا أن الصرب يعززون قواهم في جنوب وجنوب شرق الجيب الآمن. وذهبت كل تنبيهاتهم حول ذلك الوضع للقوات الهولندية أدراج الرياح. لقد أصر الهولنديون على القول: إن الهدف من تعزيز القوات الصربية هو لسد الطريق على سربرنيتشا من الجنوب، كان يجب أن يصبح هدف الصرب واضحاً عندما ضم جنودهم نقطة مراقبة جنوب الجيب الآمن، كان الهولنديون يستخدمونها وأجبروهم على التراجع مئة وخمسين ياردة. ولكن أحداً لم يتنبه إلى الخطر القادم. وعندم بدأ الهجوم الجاد في الساعة الثالثة والنصف صباحاً بوابل من طلقات المدافع والرشاشات أسقط في يد الجنود الهولنديين الذين لم يحركوا ساكناً. أطلق الصرب ستة صواريخ باتجاه مواقع الكتيبة الهولندية المتمركزة في بوكوكاري على الجانب الشمالي من سربرنيتشا؛ اثنتين من الستة فقط انفجرت ولكن ذلك كان كافياً لإخافة الهولنديين الذين لم يبدوا أية مقاومة طيلة عملية الهجوم التي امتدت إلى خمسة أيام كاملة.

وفي تقدم القوات الصربية نحو الاستيلاء على المدينة أصبحت العلاقة بين القوات الهولندية والمسلمين التي لم تمكن أصلاً طيبة، أصبحت أكثر توتراً، وفقد المسلمون كل ثقة في تلك القوات. وفي تعبير عن مدى سخط المسلمين على تراخي القوة الهولندية في وجه

الجنود الصرب ألقى أحد المسلمين قنبلة يدوية على مدرعة كانت تتراجع مسرعة أمام تقدم القوات الصربية فقتل واحداً من الجنود ممن كانوا على ظهرها. ادعى الهولنديون أنهم كان كل يوم يطلبون من ممثل الأمم المتحدة في سراييفو إعطاء الإشارة بتوجيه ضربات جوية. كان السبب الذي يتذرع به المسؤولون في المنظمة أن هناك عوامل تقنية تمنع اللجوء إلى القصف الجوي.

وعلى أي حال فقد حدث أنه في الساعات الأولى من يوم ١١ يوليه أخبرت القوة الهولندية المدافعين البوسنيين عن سربرنيتشا أنه قد صدر إنذار للصرب بأن يوقفوا هجومهم على البلدة وإلا سوف يتعرضون لهجوم جوي كاسح. ونقل الهولنديون أيضاً للسكان أنه ستتحدد منطقة تتحرك فيها ٤٠ طائرة حربية تابعة لحلف الأطلسي، وأن تلك الطائرات سوف تصد أي هجوم على المدينة، وطلبوا من السكان أن يلزموا بيوتهم. واستبشر السكان والمدافعون عن المدينة خيراً، وتفاءلوا بقرب الخلاص من محنتهم. إلا أن تلك الأقوال لم تنطل على محافظ المدينة وشكك في صحتها. كان الضباب صباح اليوم التالي يغطي المنطقة، وعندما انقشع تجمع السكان في الشوارع ليشاهدوا الطائرات التي قيل لهم إنها سوف تغطي سماء مدينتهم لحمايتها وحمايتهم. إلا أن آمالهم خابت هذه المرة أيضاً فلم تظهر في السماء طائرة واحدة. نظر المحافظ إلى الناس الذين تجمعوا وعيونهم تحلق إلى أعلى: «أين هي الضربات الجوية يا إخواني»؟ كان بين الحاضرين ضابط هولندي أجاب على تساؤل المحافظ بقوله: «إنني

أقدر شعورك. لقد تسلمت منذ دقيقتين أمراً من رؤسائي. لقد أمرنا أن ندعو إلى الضربات الجوية فقط عندما يرى أحد جندنا بأم عينيه الجنود الصرب وقد دخلوا المدينة». وقفز محافظ المدينة من كرسيه وهو يغلي من الغضب، وانفجر القائد العسكري للمدينة صائحاً بوجه الضابط الهولندي: «كولونيل رامز ما هذا الذي تتحدث عنه؟ إن الصرب قد دخلوا المدينة. ماذا تريدني أن أعمل لأثبت لك ذلك؟ هل تريدني أن أقبض على واحد منهم وأسلمه لك»؟.

في تلك الأثناء كان فريق من ثلاثة أفراد من رجال الاستكشاف المتابعين لقوات الحلف الأطلسي الجوية الذين لعبوا دوراً في المأساة التي كانت تحدث أمام أعينهم، يعمل في سربرنيتشا تحت قيادة ضابط من الأمم المتحدة اسمه الماجور جاكو. كان أولئك الثلاثة قد أتوا منذ أسابيع إلى سربرنيتشا. لم يكن مطلوب منهم الاتصال بأحد في المدينة، بل كان عليهم أن ينقلوا أية معلومات يحصلوا، عليهم أن يوجهوا طائرات حلف الأطلسي الحربية إلى الأهداف الصربية التي تقصفها عندما يطلب ذلك منهم.

في صباح ١١ يوليه، وبعد أن ركز الجنود الصرب مواقعهم في جنب المدينة وآلاف الناس في حيرة من أمرهم حول الجهة التي سيهربون إليها، توجه الرجال الثلاثة إلى موقع قائد القوات البوسنية في مبنى البريد المركزي. هناك طلبوا أشخاصاً يترجمون لهم ويأخذونهم إلى مواقع القوات الصربية التي دخلت المدينة. جاؤوهم بضابط اسمه إكرام وفتاة بوسنية اسمها سانيلا كانت تعمل في بار في

مقر القوة الهولندية. كانت معرفتها بالإنجليزية ضعيفة نوعاً ما ولكنها هي نفسها كانت فتاة حسناء. بعد رحلة بسيارة وعلى الأقدام وبعد مخاطر عديدة من رصاص القناصة وصل الجميع إلى منطقة ورأوا على بعد قليل دبابتين حربيتين أشار إليهما الضابط البوسني والفتاة ليريهما للرجال الثلاثة الذين يمثّلون قوات الأمم المتحدة. وأشار إكرام مرة أخرى إلى الدبابتين وإلى الثلاثين جندياً حولهما. كانت المسافة بين المجموعة الصغيرة والدبابتين والجنود المحيطين بهما لا تزيد على ٢٠٠ ياردة، وكان من السهل رؤية الجميع بالعين المجردة. إلا أن الجنود الإنجليز الثلاثة قالوا: إنهم لا يرون الدبابات ولا الرجال. ورددوا قولهم: «أين؟ إننا لا نرى أي شيء» مرة أخرى أشار إكرام إلى الدبابات والرجال حولها ومرة أخرى أنكر الجنود أنهم يرون شيئاً!. تبع ذلك حوار غاضب بين الرجل والمرأة البوسنيين والجنود الإنجليز، وعاد الجميع إلى وسط المدينة. هنا ترك رجال الاستكشاف مقر القوة البوسنية وعادوا أدراجهم إلى مركز قيادة القوة الهولندية. بعد ست ساعات بدأت طائرات حلف الأطلسي قصفها إلا أن الهجوم جاء متأخراً فقد أصبحت سربرنيتشا بأيدي القوات الصربية.

لقد ذبح آلاف من سكان مدينة سربرنيتشا الذين اعتقدوا في وقت ما أنهم كانوا تحت حماية قوات الأمم المتحدة. ذبحوا بجريمة خطط لها مع سبق الإصرار والترصد دونما ذنب جنوه وفي أيام قليلة. وقد ذبح معظمهم تحت سمع وبصر القوة الهولندية التابعة للأمم المتحدة... ■

نهاية الجزء الأول

أيـام العـار

(١-٣)[1]

كتبها: جون سوين، جريدة الصنداي تايمز ١٩ مايو ١٩٩٦م

مقدمة:

هذه مقالة كتبها مراسل إنجليزي في أثناء حرب البوسنة والهرسك ونشرت في جريدة التايمز الإنجليزية. هي في الواقع الجزء الثاني لمقالة سابقة ترجمتها أيضاً ونشرت في المجلة العربية التي يرأس تحريرها الأخ الأديب حمد القاضي - وكان ذلك منذ حوالي سنتين على ما أذكر. كنت ترجمت المقالتين في ذلك الوقت إلا أنني لم أنشر هذا الجزء الثاني الذي نحن بصدده الآن. لقد وجدت أن الحوادث والمآسي التي يتحدث عنها الكاتب الإنجليزي مؤلمة لدرجة أن قراءتها ستصيب القارئ بصدمة قد توثر على ذوي الحس المرهف. إن الآلام التي يصورها المقال تفوق بوحشيتها ودمويتها كل ما سمعنا به أو قرأنا عنه سواء في التاريخ القديم أو الحديث.

(١) نشرت في جريدة الجزيرة في ١٠ / ٣ / ١٤٢١هـ، الموافق: ٢٥ / ٤ / ٢٠٠٢م.

ولا نتكلم هنا - أو بالأحرى لا يتكلم كاتب المقال - عن مجرد شراسة ووحشية صراع بين فريقين متحاربين، بل هو يتكلم عن جريمة نكراء ارتكبت عن قصد وتصميم ضد شعب البوسنة المسلم، وذلك تحت سمع وبصر الدول الغربية الممثلة في الأمم المتحدة.

لقد توخيت من ترجمتي ونشري لهذه المقالة الحزينة أن أنبه إلى أن هناك حرباً شرسة قائمة ومستمرة ومع سبق الإصرار والتصميم ضد مسلمي العالم يقودها العالم الغربي كما سيتضح لكل من يقرأ هذه الترجمة إلى نهايتها. وأن كل ما يقال عن تعايش الأديان ما هو إلا هراء سخيف لا يصمد عندما يجد الجد. والآن إلى المقالة.

❖❖❖❖❖

إنها فقط صورة فوتوغرافية مشوشة لعائلة صغيرة مكونة من زوجين يبتسمان وبجانبهما طفلهما، ولكنها دليل واضح على ما حصل في بلدة سربرنيتشا منذ عشرة شهور عندما ذبح عشرات الآلاف من البشر كخرفان على منبر السياسة العمياء. كانت تلك الصورة هي كل ما بقي لحسن نوهانو، وهو مترجم لقوات الأمم المتحدة، من عائلته المكونة من أمه وأبيه وأخيه الصغير. لقد قتلوا جميعاً في عصر ذلك اليوم من ١١ يوليه. كانت بلدة سربرنيتشا قد أعلنت مدينة آمنة، إلا

أن عساكر الصرب اقتحموها دون أية مقاومة من قوات الأمم المتحدة بعد أن حطموا الحواجز الأمامية التي كانت في طريقهم وكأنها أعواد كبريت ؛ كما أخذوا عدداً من الجنود الهولنديين أسرى.

في بوتوكاري وهي تبعد حوالي ميلين إلى الشمال كانت أعصاب الهولنديين متوترة؛ لأنه كان عليهم على الأقل أن ينقذوا آلاف الفارين من الرجال والنساء والأطفال من سربرنيتشا تجاه معسكرهم. لقد أعطيت الأوامر لهؤلاء الجنود أن يفتحوا منافذ في الأسلاك الشوكية التي تحيط بمعسكرهم، وأن يسمحوا لأكبر عدد من الفارين بالدخول إلى المعسكر دون أن يعرضوا أنفسهم أو معسكرهم الى الخطر !!. كان بين الناس الذين دخلوا المعسكر عائلة حسن نوهانو. فلقد استطاع حسن أن يدخلهم الى المعسكر الهولندي؛ لأنه كان يعمل مترجماً لديهم. إلا أنه اكتشف بعد قليل أن المسألة لم تكن إلا مصيدة ؛ فقد رمى الجنود الهولنديون باللاجئين إلى معسكرهم إلى جنود الصرب الذين كانوا ينتظرونهم خارج الأسلاك. ولا يشك حسن أن أباه وأمه وأخاه قد قتلوا جميعاً مع أكثر من ثمانية آلاف رجل وامرأة وطفل وقعوا في أيدي الجنود الصرب في ذلك اليوم - يوم العار - الذي تركت فيه الأمم المتحدة سربرنيتشا فريسة للقوات الصربية الغازية.

إن الحرب البوسنية انتهت الآن. وحسن ومن نجا معه من المجزرة الصربية يعيشون الآن في حماية القوات الأمريكية. هناك محاولات لإحضار مجرمي الحرب للمحاكمة، ولكن لم يحدد إلى الآن بشكل واضح وصريح من هم أولئك المسؤولون عن كل المجازر التي حدثت.

في ربيع عام ١٩٩٣ عندما كانت سربرنيتشا على وشك السقوط بأيدي القوات الصربية، وبعد أن شاهد العالم أجمع الفظائع التي يرتكبها الصرب ضد المسلمين أعلنت الأمم المتحدة سربرنيتشا وخمس مدن مسلمة أخرى مناطق آمنة، وهددت إن هي اجتيحت أن تتصدى القوات الدولية للقوات الصربية المعتدية بالجنود، وإن دعت الحاجة بالقصف الجوي. مكث الجنرال سميث القائد الإنجليزي سنتين كاملتين وهو ينذر المسؤولين في الحلف الأطلسي والأمم المتحدة أن المناطق الشرقية التي أعلنت آمنة لم تحصل على الأمان الذي وعدت به، بل هي مهددة من بالصرب؛ وأخيراً أكد لرؤسائه أن الاجتياح سيكون غالباً في ذلك الصيف. إلا أن المسؤولين في المنطقة الدولية صموا آذانهم عن تحذيراته، ليس لأنهم لم يصدقوه ولكن لأنهم كانوا مدركين أن من الأسهل أن يتمنوا أن لا يقوم الجنرال مالديتش بمهاجمة المسلمين من أن يبذلوا أي مجهود لمنعه من ذلك. لم تحاول الدول المشتركة في القوات الدولية أن تزيد من عدد قواتها الرمزية التي أرسلتها، وكان المسؤولون يدركون جيداً أن استعداد الصرب وأعدادهم تزيد على ما لدى الأمم المتحدة من قوات، وأنه حتى القصف الجوي لن يؤدي مفعوله؛ لأن مالديتش أخذ المئات من الجنود الهولنديين أسرى وربطهم الى أعمدة أقامها أمام قواته.

في شهر مايو أخبر اللواء برنارد جافيير قائد قوات الأمم المتحدة ورئيس سميث مجلس الأمن أن قواته ليست لديها عملياً أية مقدرة على صد القوات الصربية عندما تهاجم المناطق الآمنة، وأن

جنوده ليسوا أكثر من دروع بشرية أمام المسلمين. في الشهر نفسه أخبر العقيد تون كارمانز قائد القوات الهولندية في سربرنيتشا، أخبر رؤساءه أن قواته ليس لديها الذخيرة الكافية للدفاع عن المناطق المكلفة بحمايتها إذا هوجمت. إلا أن الأمم المتحدة التي كانت قواتها تحمي أيضاً المناطق الشرقية في جورازدا وزابا كانت هي أيضاً تعاني من نقص الذخيرة؛ لهذا لم تعر شكوى العقيد كارمانز أي اهتمام، ولم تكن لديها أية رغبة أو إمكانية لمواجهة مع الصرب، وتمنت فقط أن تنتهي المشكلة بشكل ما.

كانت الروح المعنوية بين القوات الهولندية منخفضة تماماً، وكانت مهارة قادتهم مشكوكاً فيها. إضافة الى ذلك فإن الصرب البوسنيين منعوا ضباط وأفراد القوات الهولندية ممن كانوا في إجازات، منعوهم من العودة الى مراكزهم مما قلص عدد أفراد القوات من ٦٥٠ إلى ٤٠٠ فرد. كذلك لم يتلق الهولنديون أية إمدادات بسبب الحصار المفروض عليهم من الصرب. كانوا يعيشون على وجبات مخصصة لجبهات الحرب بدلاً من طعام طازج. لقد أرسلوا لحماية سربرنيتشا إلا أنهم سرعان ما كرهوا مهمتهم، وكانت غاية أمنياتهم ترك موقعهم الذي وضعوا فيه لحفظ السلام بين قوتين متحاربتين. كانت الفرقة الهولندية السابعة قد أدت مهمتها بشكل أجود من الحالية والمسماة القوات الجوية الثالثة عشرة المتحركة التي احتقر معظم جنودها المسلمين الذين جاؤوا لحمايتهم. إن أسباب ذلك الاحتقار غير معروفة، ولكن قد تعود جذورها إلى الوقت الذي عمل فيه العقيد

كـارمـانـز في لبنـان في السـنين السـابقـة. كـانت النكت التـي تحـقـر المسلمين أمـراً شـائعاً بين الجنود. أصـبـحت سـربرنيـتشـا نفـسـهـا بعد الحصار الصربي حولها غيتو عرقي. لقد أطلق تلك الصفة عليها العقيد دونالد سون - وهو ضابط بريطاني مراقب في الأمم المتحدة - وهؤلاء المراقبون لديهم مهام مختلفة عن جنود حفظ السلام. لقد ذكّره ما شاهده الآن في سربرنيتشا بفلم رآه عن الحياة في وارسو في أثناء الحرب العالمية الثانية، حيث كان الجائعون من الرجال والنساء والأطفال يتدافعون للحصول على لقمة عيش، وكيف كان الأقوياء يلقون بالعجزة والضعفاء خارج صفوف الانتظار ويأخذون مكانهم، وكيف كان أولئك يلجؤون إلى أكوام القمامة بحثاً عن شيء يأكلونه.

لقد قضى القصف الصربي المتصل على سربرنيتشا على الروح المعنوية لدى السكان المسلمين ولدى أولئك الهولنديين الذين جاؤوا لحمايتهم. أصبح الفقر المدقع وانعدام كل سبل الحياة الكريمة شيئاً لم يحدث من قبل.

يقول العقيد دونالد سون: إنه كان يسير ذات مرة في شوارع البلدة مع مساعد جديد له من النرويج، وعندما وصلا إلى المنطقة التي يعيش بها حسن ووالده العجوزان وأخوه الصغير براكو، نظر إليه مساعده وطلب أن يقف لحظة. ويضيف دونالد سون: نظرت إليه فرأيته يبكي. لقد فاتني أن أذكر الأثر الرهيب الذي تتركه المناظر المفزعة والروائح الكريهة في شوارع سربرنيتشا على القادمين الجدد. وعلى الرغم من أن مساعدي كان رجلاً ضخماً قوياً إلا أنه لم يتحمل

تلك المشاهد المأساوية وقال: «إنني أشعر بأشد الأسف، فأنا أب لأطفال ولا أستطيع أن أتحمل هذه المناظر».

في ٦ يوليه، وكان ذلك بعد عدة أسابيع من انسحاب دونالد سون من سربرنيتشا، بدأ الجنود الصرب يوجهون نيران مدافعهم بكثافة إلى المدينة، ويركزون على المناطق الآهلة بالسكان. بقي بعد رحيل دونالد سون ثلاثة مراقبين آخرين، وقد أحصى هؤلاء من موقعهم في مركز البريد في وسط المدينة ٦٠ طلقة مدفع في واحد وثلاثين دقيقة!.. كانت الشظايا تصطدم في سقف وجدران المبنى. قدم المراقبون تقاريرهم بما يحدث إلى كارمانز الذي كان يرسل بدوره تقارير يومية إلى قوات الأطلسي طالباً التدخل الجوي ضد قوات الصرب البوسنية لعلها تتوقف عن قصف المدينة، ولكن تقريره الأول لم يصل إلى مركز قوات الأمم المتحدة في زغرب. كان الشخص المكلف بإرسال تلك التقارير هو القائد المحلي للأمم المتحدة لشمال البوسنة والموجود في توزلا. لم يرسل التقرير الأول الذي وصله من كارمانز بحجة أن التقرير لم يوضح الأهداف التي يجب قصفها. واختصم الاثنان، وكانت نتيجة ذلك أن كل تقارير كارمانز إلى المندوب الموجود في توزلا أهملت إهمالاً كاملاً.

في يوم ٩ يوليه شاهد قائد فرقة اسمه دافيد تاته وهو مراقب من غانا، شاهد طابوراً من مئة جندي بوسني يسيرون ببطء وإرهاق واضحين في شوارع سربرنيتشا الخاوية، وقد حملوا على ظهورهم معداتهم الحربية، بينما كانت القذائف تسقط من حولهم بمعدل

قذيفة كل عشرين ثانية. لم تكن لديه أية فكرة عن الجهة التي يقصدونها. لقد كانوا مجهدين بائسين، وشبح الهزيمة مسطر على سحنهم. إلا أن شجاعتهم ونبلهم في وسط تلك الانفجارات حركا مشاعره فلم يتمالك نفسه من الاقتراب منهم ومخاطبتهم بقوله: «أرجو من الله لكم الحماية». قالها وكأن حياته نفسها تعتمد على بقاء أولئك الرجال المكدودين البائسين على قيد الحياة. ولم تمض أيام قليلة إلا وهجر تاته وزملاؤه مركز مراقبتهم في قلب المدينة فارين بأرواحهم إلى معسكر القوة الهولندية في بوتوكاري. تركوا خلفهم حسناً ومترجماً آخر استمرا يمدانهم بتقارير عن هجمات الصرب التي لم تتوقف، على الرغم من أنهما قد يقتلا في أية لحظة. وهكذا فإن انسحاب المراقبين وسقوط معظم نقاط المراقبة بأيدي القوات الصربية جعلت معرفة ما يجري في المناطق الآمنة غير ممكن.

لم تعد لدى كارمنز الإمكانية لإرسال أية تقارير إلى مقر الأمم المتحدة في زغرب بطلب توجيه ضربات جوية. كما أن قواته نفسها لم تقم بأي جهود جادة لوقف تقدم الصرب نحو سربرنيتشا. وعلى الرغم من أن مركزاً واحداً للمراقبة بقي في أيدي الهولنديين وبه المعدات اللازمة لإطلاق الصواريخ ضد القوات الصربية المتقدمة، إلا أنه لم يطلق صاروخ واحد على دبابة صربية!.. كان التبرير الذي تقدمت به الحكومة الهولندية هو أن قاعدة إطلاق الصواريخ كانت لا تعمل بسبب الرطوبة التي أثرت على معداتها وبسبب نقص قطع الغيار!.. ولم يتطرق ادعاء الحكومة الهولندية إلى حقيقة أن كثيراً من

جنودهم كانوا على استعداد أن يؤخذوا أسرى من قبل القوات الصربية الغازية؛ لأن ذلك بنظرهم كان أقل خطراً من بقائهم كجنود يحفظون السلام!.. ولم يخيب الصربيون ظنهم، فعندما أخذوا منهم ٥٥ جندياً أسيراً عاملوهم بكرم وغمروهم بالسجائر وعلب البيرة والطعام الطازج!. ■

أيـام العـار

(٢ - ٣) [1]

كان حسن المترجم مثقلاً بواجباته الكثيرة، إلا أن ما كان يشغله هو مصير والديه وأخيه باركو المقيمين بالملاجئ في الجزء الجنوبي من المدينة. كانت العائلة قد انتقلت قبل سنتين إلى سربرنيتشا عندما طردهم الصرب الغزاة مع جميع السكان المسلمين من مدينتهم فلاسينيكا. كان أبو حسن، عمرو، رجلاً بارزاً في تلك المدينة. عندما قامت الحرب كان حسن يدرس في سراييفو إلا أنه التحق بعائلته بعد ذلك وأصبح أيضاً لاجئاً مثلهم. والآن فإن حسناً وعائلته مثل غيرهم من آلاف المسلمين يواجهون الطرد الجماعي أيضاً من سربرنيتشا حسب خطة التطهير العرقي التي ينفذها الجنود الصرب. كانوا مثل غيرهم من سكان المدينة يعتقدون أن الأمم المتحدة ستحميهم من الغزاة، أو على الأقل تنقلهم إلى منطقة آمنة قريبة من مناطق حكومتهم البوسنية. وعندما بدأ الجنود الصرب يدخلون المدينة كان على حسن أن يعدو لمسافة ميل ونصف صعوداً في مناطق مرتفعة ليصل إلى منزله ليطمئن على أهله.

كان القصف عنيفاً، وكان عليه أن يحتمي وراء جدار أو شجرة ليتجنب الموت. لم يكن قد رأى عائلته لمدة ثلاثة أيام، وقد وجدهم لا زالوا

(١) نشرت في جريدة الجزيرة في ١٧ / ٣ / ١٤٢١هـ، الموافق: ١٩ / ٦ / ٢٠٠٠م.

أحياء في منزلهم. أصر والده أن يعود باركو معه إلى مقر عمله على أن يلحق بهما الأبوان فيما بعد. كان الظلام قد أرخى سدوله عندما رأى حسن وباركو فجأة مجموعة من الناس يركضون نحو ملجأ في مدرسة قريبة، فارين حسبما قالوا، من ضربة جوية على المدينة على وشك أن تحدث. انظم حسن وأخوه إلى المجموعة المتجهة نحو المدرسة ومكثوا هناك ساعة واحدة. لم يحدث أي قصف جوي، وكان ذلك خدعة أخرى تبعت ما قبلها من أكاذيب أطلقت لتطمين المسلمين. وغادر الشقيقان المدرسة الى مركز البريد الذي يعمل فيه حسن حيث أمضيا الليلة.

في صباح اليوم التالي صحب حسن أخاه باركو إلى المقر الرئيس للقوة الهولندية في بوتوكاري على ظهر جيب أخذ ينهب الأرض مخترقاً الشوارع والمنعطفات حتى وصلا المقر وانضما إلى المراقبين العسكريين الثلاثة الذين كانو قد هربوا قبلهم، وإلى خمسين جندياً هولندياً كانوا يختبئون في خنادقهم. كان في الخنادق أيضاً ثلاثة أشخاص من الاستخبارات، كانت مهمتهم جمع المعلومات وإرسالها للجنرال سميث يحددون فيها الأهداف التي سيقصفها طيران حلف الأطلسي.

بعد أن اطمأن حسن على سلامة أخيه عاد إلى مقر عمله حيث كان الخراب والدمار يحيطان بالمكان. وجد مجموعة من المذعورين وهم يتمسكون بآخر مجموعة من الجنود الهولنديين الذين كانوا لا يزالون في وسط سربرنيتشا بمركز البريد يحرسون مقراً صغيراً لهم. كنت ترى آلاف الناس المذعورين الفارين بحياتهم من النساء والرجال والأطفال وهم يتزاحمون بشكل انتحاري، كل يحاول الدخول إلى مقر

الجنود الهولنديين لعلهم يهربون بحياتهم فقط بعد أن أوشك الجنود الصرب على دخول بلدهم. كان القادر منهم يحمل على رأسه أو ظهره ما استطاع أن يحمله من ممتلكاته قبل أن يغادر منزله. كانت هناك امرأة تصرخ وعيونها مسلطه على الجنود الهولنديين الذين كانت تخدمهم «أختي ماتت، أختي ماتت! لماذا ماتت أختي؟» ولم يعرها أي من الجنود أي اهتمام على الرغم من أنهم يعرفونها جيداً، فقد كانت هي التي تقوم بتنظيف المركز. كانت بوابة المعسكر تئن وتصرخ تحت وطأة الضغط من الجماهير الغفيرة التي كانت تحاول باستماته الدخول للنجاة بحياتها. وأخيراً انهارت البوابة تحت الضغط الكبير، واندفعت الجموع كالموج العارم نحو عربات النقل العسكريه يقفزون إليها بالعشرات لعلهم يصلون بها إلى بر الأمان كما حدث لمواطنيهم من قبل في عام ١٩٩٣. وفجأة سقطت قذيفة وسط الناس جرحت كثيرين كانت بينهم امرأة توفيت، بينما كان الجنود الهولنديون يضمدون جراحها. ماتت على عتبات المبنى الذي انخلع بابه منذ لحظات وغطاها الجنود بقطعة قماش.

بعد ذلك بدقائق قليلة أتى النبأ أخيراً أن طلب الهولنديين توجيه ضربة جوية قد ووفق عليه !!.. لقد وافق المبعوث الخاص للأمم المتحدة في زغرب السيد ياسوشي أكاشي على مساندة الطيران لجنود الأمم المتحدة بعد كل الأيام التي صمت المنظمة الدولية أذنيها عن سماع الأصوات التي تصلها من مندوبيها ومن الشعب البوسني والحكومة البوسنية. وأقلعت طائرة حربية هولندية واحدة ألقت قنبلتين على دبابة صربية.

بعد ذلك بدقائق أعلن القائد الصربي مالديتش أنه إذا أسقطت قنبلة واحدة أخرى فإنه سوف يأمر بقتل الخمسة وخمسين جندياً هولندياً الذين كان جنوده قد أخذوهم أسرى، وأنه إضافة إلى ذلك سوف يمحي المعسكر الهولندي من الوجود. اتصلت الحكومةالهولندية بأكاشي طالبة منه التوقف عن القصف الجوي، وتبع ذلك هروب الجنود الهولنديين من معسكرهم في سربرنيتشا!.. كان الجنود يقودون مركباتهم وقد غصت عن آخرها بالبوسنيين الفارين من نار الصرب ؛ ومن لم يجد مكاناً داخل حوض العربة تشبث بأية قطعة من السيارة وصلت إليها يده هرباً بحياته. كانت الفوضى عامة لدرجة أن الجنود دهسوا عشرات الأشخاص وهم يتسابقون إلى الفرار من النيران المتساقطة عليهم ينشدون السلامة في مركز الأمم المتحدة الرئيس في بوتوكاري. إلا أنه في بوتوكاري نفسها كانت الفوضى والضياع أسوأ مما هما عليه في سربرنيتشا . ففي ذلك المركز الرئيس التابع للأمم المتحدة سمح الهولنديون لخمسة آلاف شخص معظمهم من النساء والأطفال والرجال المسنين بالدخول الى المعسكر، بينما أوصدوا الأبواب أمام الباقين الذين قدر عددهم بخمسة عشر إلى عشرين ألف إنسان، سارع الجنود الصرب المتقدمون نحو سربرنيتشا بتطويقهم لها جميعاً.

استخدم حسن بطاقة عمله لدخول المعسكر، وكان سروره عظيماً عندما وجد أن والديه قد سبقاه إلى هناك. كان على يقين أن الهولنديين الذين خدمهم بولاء تام سوف يبسطون حمايتهم عليه وعلى عائلته وينقذونهم من الصرب البوسنيين.

كانت لدى الهولنديين تعليمات باتخاذ كل الإجراءات الكفيلة بحماية اللاجئين والمدنيين. إلا أن الفرقة الهولندية لم يكن لديها من الطعام ما يكفي لأكثر من ثمان وأربعين ساعة، إذ اقتصرت فقط على إطعام أولئك الذين سمح لهم بدخول المعسكر، عدا عن الالآف الذين كانوا يحيطون بالثكنة يطلبون الدخول، وكذلك الذين لجؤوا إلى مباني مصانع قريبة مهدمة لحماية أرواحهم من طلقات المدافع الصربية. كان لابد والحالة هذه من نزوح جماعي كبير لتجنب كارثة أصبحت محققة. وللدفاع عن سربرنيتشا والمناطق الأخرى الآمنة في حالة اجتياح مالديتش وقواته لها، توقع الهولنديون عملية حربية كبيرة بإشراف دولي وإشراك الصليب الأحمر والأمم المتحدة والمندوب السامي للاجئين.

ولكن بدلاً من الضربة العسكرية المتوقعة ضد القوات الصربية وجه مالديتش دعوة للهولنديين للاجتماع به حيث احتسى الجميع الشامبانيا. وما إن انفض الاجتماع الذي عقد في ١٢ يوليه حتى أقبلت طلائع ثمانين حافلة وشاحنه صربية لتبدأ نقل الآلاف من المسلمين الذين كانوا قد لجؤوا إلى مقر البعثة الهولندية، وغيرهم من الذين لاذوا بها ولم يتمكنوا من دخولها، إلى المناطق التي تسيطر عليها القوات الحكومية البوسنية. وقف مالديتش يراقب عملية إجلاء كل أولئك المعذبين من النساء والرجال الكبار، ولم يتورع أن يوزع الحلوى على أطفال المسلمين!!.. لقد (فوجئ) الهولنديون بالسرعة التي نفذ بها صرب البوسنة المنتصرون عملية إجلاء المسلمين عن

مناطقهم. كان عدد الشاحنات وكذلك استيلاء الصرب على مائة ألف لتر من الوقود، كانوا قد سمحوا بوصولها إلى قوات الأمم المتحدة، دليلاً على مهارتهم في التخطيط المسبق. كانت خطتهم تقضي بإجلاء المرضى أولاً ثم الضعفاء، فالأطفال والنساء، وأخيراً الرجال ما بين سن السادسة عشرة إلى الستين. كان أفراد الفئة الأخيرة يطلق سراحهم فقط بعد أن يستجوبوا ويتأكد آسروهم أنهم لم يقوموا بأي (جرائم حربية) ضد الصرب.

كانت الحكومة البوسنية في سراييفو ترسل النداء تلو النداء إلى الأمم المتحدة كي تمنع عملية التطهير العرقي التي تقوم بها القوات الصربية. كانت الحكومة تعرف أن عملية الإخلاء إذا تمت على أيدي القوات الصربية نفسها فإن مصير الأسرى وخاصة الرجال سيكون القتل كما حدث في حالات سابقة. إلا أن كل نداءات الحكومة البوسنية ومناشداتها ذهبت أدراج الرياح. وكل ما عمله الهولنديون أن أعلن العقيد روبرت فرانكلن نائب قائد قواتهم الذي تسلم القيادة بعد مرض القائد كاريمانز، أعلن أنه سيرسل سيارة بها جنديين هولنديين مع كل مجموعة من الشاحنات الصربية للتأكد من سلامة المهجرين. إلا أن تلك الخطة لم تنفذ على الإطلاق، ونتيجة لذلك حدثت مآس محزنة ومخزية في ذات الوقت، إذ كان الجنود الصرب يوقفون الشاحنات في الطريق ويطلبون من النساء والكبار أن يهبطوا منها حيث يكيلون لهم كل أنواع الإهانات مع الضرب والتهديد وإرغام المساكين على التخلي عن كل ما يمكن أن يكونوا قد استطاعوا حمله

معهم من نقود أو حلي أو غيرها. ومن كان حظه طيباً من النساء والأطفال فقد وصل إلى المناطق التي تسيطر عليها الحكومة البوسنية بعد رحلة ذاق بها الأهوال وقاسى من العذاب ما يعجز عنه الوصف. لقد كان هؤلاء يشاهدون ذويهم من الرجال يؤخذون ويضربون ويعذبون ثم يطلق عليهم الرصاص. كان الطريق مغطى بجثث رجالهم. بعض الجثث التي كانت منتشرة على الطريق الذي سلكته الشاحنات الصربية المحملة بالمسلمين كانت لبعض أفراد من فرقة قوامها تسعة عشر ألف رجل من القادرين على حمل السلاح، والذين تصدوا للصرب عند هجومهم على مدينتهم سريبرنيتشا، ثم فروا بعد ذلك عندما تأكدوا من عدم مقدرتهم على صد القوات الغازية، واتجهوا نحو التلال في طريقهم إلى المناطق التي تسيطر عليها الحكومة البوسنية. لقد ذاق أفراد تلك الفرقة الأهوال من شراسة الجنود الصربيين ووحشيتهم. فقد كان هؤلاء لا يترددون في الترصد لهم مرتدين بزات الأمم المتحدة التي سرقوها من الجنود الهولنديين ثم يقطعونهم إرباً بعد القبض عليهم.

وكأنما لم يكتف الصربيون بكل الفظائع التي أنزلوها بالمسلمين فقد كانت هناك مأساة أخرى تجري تحت سمع وبصر مركز الأمم المتحدة في بوتوكاري. فقد قام الجنود الصرب أمام أعين الهولنديين بفصل كل الرجال والأولاد عن عائلاتهم، وانهالوا على الجميع ضرباً بأعقاب بنادقهم وعصيهم أمام ذويهم من النساء، ثم بعد ذلك أخذوهم وذبحوهم ودفنوهم في قبر جماعي واحد.

يروي حورم سلجوق، وهو واحد من القلائل الذين نجوا من المذابح الصربية، يروي قصته فيقول: «توجهت إلى الحافلة مع عائلتي ولكن جندياً صربياً وضع يده على كتفي قائلاً: أيها الرجل العجوز عليك أن تتجه إلى اليسار. وأجبته: لا أستطيع أن أذهب أنا رجل مريض ويجب أن أبقى مع عائلتي. أخذت عائلتي تبكي وتتوسل إلى الصربي أن يتركني وشأني. ولكن لم يزد على قول اذهب قبل أن نبقيك هنا.. اذهب واصعد إلى الحافلة التي أشرت لك عليها. ولم يكن هناك بد من أن أشير إلى عائلتي أن تذهب وتتركني. لقد ظننت وقتها أنني لن أراهم أبداً. كنت آدرك أننا إذا انفصلنا إلى مجموعتين فإنني ميت لا محالة. ويضيف سلجوق أنه توسل إلى الجنود الهولنديين للتدخل إلا أنهم اكتفوا بالضحك ولم يعملوا أي شيء. لقد قتل الجنود الصرب بإشراف مالديتش جميع الرجال المسلمين الذين انضم إليهم سلجوق ! هو وحده فقط نجا من الموت!!.

في ليلة ١٢ يوليو بدأت الأخبار تنتشر في القاعدة الهولندية عن المجازر التي تحدث للمسلمين وعن فصل أفراد العائلات بعضهم عن بعض. كان حسن لا زال مع عائلته مع مئات من المسلمين الآخرين في حماية القوة الهولندية. جاءت امرأة تجري وتمتمت من خلال لهاثها أن الصرب قد أطلقوا النار على تسعة رجال مسلمين في مؤخرة رؤوسهم، وأن هناك مجموعات أخرى من الأسرى سيقوا للاستجواب. وعندما استفسر اللاجئون المرعوبون عن الأمر أجاب العقيد فرانكلن نائب قائد القوة الهولندية: هذا هراء. لا تنشروا هذا الكلام الفارغ

بين الناس فلن يكون له فائدة إلا خلق حالة من الرعب. حاولت المرأة التي أتت بتلك الأخبار فيما بعد أن تنتحر!.. لقد وجد الجنود الهولنديون في الواقع جثث تسعة رجال أعدموا بإطلاق الرصاص عليهم في مؤخرة رؤوسهم. ■

أيـام العـار

(٣ - ٣) [1]

وقد أمر رئيس أركان الجيش الهولندي بإعدام شريط الفيديو الذي سجل المجزرة؛ لأنه حوى صوراً لجنود هولنديين من حفظة السلام وهم يشاهدون عملية الإعدام الجماعية!!.. ولقد اشتكت جماعات حقوق الإنسان من أن عملية إعدام شريط الفيديو حرمت محكمة مجرمي الحرب في لاهاي من دليل واضح.

لم ينم اللاجئون داخل المعسكر الهولندي تلك الليلة، فقد كانوا يسمعون طلقات الرصاص المتتابعة يرافقها صرخات آدميه تدمي القلوب. كان الجنود الصرب وبرفقتهم كلابهم البوليسية يحرسون الأسلاك الشائكة التي تحيط بالمعسكر خشية أن يفر أحد من المسلمين الذين التجؤوا إليه. كان التوتر باد على الجنود الهولنديين وخاصة أولئك الذين وصلوا إلى المعسكر بعد هبوط الليل. لقد وصف أحد المترجمين في المعسكر حالهم بقوله: «كنت تقرأ في وجوههم أن شيئاً رهيباً يجري في الخارج ولكن أحداً منهم لم يقر بما كان يحدث». وعلى الرغم من معرفة الهولنديين لما كان يجري وأن الصرب كانوا يفصلون الرجال عن عائلاتهم بعد خروجهم من المعسكر ويسوقونهم إلى حتفهم، إلا أنهم أجبروا كثيراً من المسلمين الذين لجؤوا اليهم على ترك المعسكر. قال لهم فرانكلن: إنه

(١) نشرت في جريدة الجزيرة في ٢٤ / ٣ / ١٤٢١هـ، الموافق: ٢٦ / ٦ / ٢٠٠٠م.

سوف يسجل أسماءهم جميعاً ويرسل نسخة منها إلى الأمم المتحدة وأخرى إلى الصليب الأحمر وثالثة إلى الحكومة الهولندية ويحتفظ بنسخة في (سراويله!) كضمان أنهم لن يؤذوا بواسطة صرب البوسنه!.. ولقد كانت فجيعة رهيبة عندما وجد حسن أن عائلته نفسها لن يسمح لها بالبقاء في المعسكر.

وعندما راح يرجو الضباط الهولنديين الذين خدمهم بإخلاص طوال فترة الحرب أن يسمحوا لأهله بالبقاء لم يزد هؤلاء أن مصمصوا شفاههم وأطرقوا بأعينهم إلى الأرض، وراحوا ينقلون ثقل أجسامهم من قدم إلى القدم الأخرى. كانت الحجة التي استطاعوا أن يأتوا بها أخيراً هي أن فرانكلن أمر بترحيل كل الأشخاص غير المصرح لهم بالبقاء حتى لا يعرض حياة الآخرين للخطر!!.. لم تجد توسلات حسن، فقد حسم فرانكلن الأمر بقوله: «لدي مشاكل أخرى كثيرة ولا أريد الخوض في هذا الأمر أكثر من ذلك». لجأ حسن إلى رجال المراقبة الثلاثة الذي لجؤوا بأنفسهم إلى المعسكر الهولندي. وكان الرد أن نهره أضخمهم جثة قائلاً: «اغرب عن وجهنا»..!!..

في يوم ١٣ يوليه خرجت عائلة حسن من المعسكر الهولندي وسلمت مصيرها إلى أيدي القوات الصربية. كان حسن يبكي وقد أمسك بيد أخيه الأصغر الذي كان على يقين أنه سيقتل؛ لأنه في سن الجندية. كان وجه الأم أشبه بوجوه الأموات. أما ملامح الأب والأخ الأصغر فقد كانت صارمة جامدة. أراد حسن أن يرافقهما إلا أن أخاه طلب منه بهدوء أن يعود لعمله.

في منتصف الطريق إلى البوابة قابلهما العقيد فرانكلن وأخبرهما أن بإمكان الأب فقط أن يبقى في المعسكر؛ لأنه كان في الأربع وعشرين ساعة الأخيرة يعمل كواحد من ممثلي المسلمين في اجتماعات عديدة عقدت بين الهولنديين والقوات الصربية. إلا أن الرجل الكبير رفض عرض العقيد الهولندي قائلاً: «كيف أبقى هنا وأدع زوجتي وابني يذهبان وحدهما؟ ورد فرانكلن قائلاً: «حسناً طالما أن هذا قرارك»!.. يقول حسن: إن فرانكلن أراد من عائلة واحد أن تنفصل إلى جزأين. وأن تقرر ذلك خلال ثانيتين فقط. كانت آخر كلمات حسن إلى أبيه: «أخبر باركو أنني أحبه». قبل مغادرة المعسكر قبَّل والد حسن العقيد فرانكلن وذلك محاولة أخيرة للظهور أمام الجنود الصربيين أنه قريب من الضابط الهولندي وقوات حفظ السلام. تقول بعض الروايات إن باركو قد انتزع من عائلته حالما خرجت العائلة من المعسكر، وأن الأب ضرب ضرباً مبرحاً. بقي حسن يدور في المعسكر على غير هدى وقد فقد كل إحساس بوجوده بل وبالحياة حوله. في الليلة نفسها وصلت شحنة غذائية ومشروبات كحولية من القوات الصربية إلى المعسكر الهولندي أمضى على أثرهما الجنود الهولنديون ليلتهم في احتساء الخمر والغناء والرقص على أنغام الموسيقى.

يعاني حسن اليوم معاناة رهيبة من الشعور بالذنب الذي يحسه الإنسان إذا ظن أنه أنقذ نفسه بالتضحية بالآخرين. لقد غسل الهولنديون أيدهم من حكاية عائلته مدعين أنهم عملوا ما يمكنهم عمله في ظل الظروف التي كانت سائدة.

يقوم دفاع الهولنديين عن تقصيرهم على أساس أنهم كانوا أقل عدداً من صرب البوسنة وأضعف تسليحاً. ولكن السؤال الرئيس الذي ما زال يحير العالم هو: إلى أي مدى كان اهتمام أولئك الهولنديين بالمسلمين الذين جاؤوا لحمايتهم؟!. إن الحكومة الهولندية تضع اللوم كله على الأمم المتحدة التي تقاعست في إصدار الأوامر بتوجيه ضربات جوية ضد القوات الصربية قبل هجومها الرئيس الأخير. لقد أصبح ممكناً الآن إظهار الحقيقة المؤلمة البشعة حول المجزرة البشرية التي حدثت عند احتلال الصرب لسربرنيتشا. هذه الحقيقة هي أن المجتمع الدولي بأكلمه قبل بفناء جميع الرجال المسلمين البوسنيين القادرين على حمل السلاح والدفاع عن بلادهم، وأن تلك اللعبة السياسية كانت أشمل حتى من المؤامرات التي كانت تحاك ضد المسلمين في العواصم الغربية! نتيجة لذلك لم يعد هناك مكان للاستغراب أن الجيوب التي أعلنت آمنة كانت تستباح واحدة بعد الأخرى دون أن يحرك أحد ساكناً!..

أصبحت الأمم المتحدة هي البقرة التي سقطت وتكالبت عليها السكاكين، وخاصة من قبل الولايات المتحدة، عندما سقطت سربرنيتشا. لقد ازدادت المأساة سوءاً عندما حدث خلاف بين جناحي الأمم المتحدة العسكري والمدني اللذين عادة ما يسود الانسجام بينهما. كان من الواضح أن الهولنديين لن يتحدثوا عن أفظع مأساة إنسانية حدثت في العصر الحديث، حيث انتهكت إلى الحضيض أبسط حقوق الإنسان في البوسنة، وجرى من الآلام والعذاب للمسلمين في أواخر القرن العشرين ما لم يسمع بمثله من قبل. لم

يتكلم الهولنديون عن ذلك؛ لأن فرقتهم كانت المكلفة بحفظ السلام والإبقاء على أرواح المدنيين ولم تفعل من ذلك شيئاً. كما لم يتكلم الهولنديون عما حدث خوفاً على أفراد فرقتهم نفسها من الهلاك على أيدي الصرب. لقد جرى إخلاء خمسة وخمسين جندياً هولندياً من سربرنيتشا في ١٥ يوليه. لقد شاهد أولئك الجنود الهولنديون مناظر مأساوية ينفطر من هولها القلب ويقطر لها الضمير ألماً وخزياً. كانت هناك عشرات الجثث لرجال ونساء مسلمين مبعثرة على الطريق؛ كما كانت هناك شاحنات تسير بمحاذاة شاحنات الجنود الهولنديين وقد غصت عن آخرها بالرجال والنساء الذين كانت أيديهم مربوطة ومرفوعة فوق رؤوسهم وهم في طريقهم بحراسة الجنود الصربيين إلى حقول القتل!!.. وعند وصول جنود هولندا إلى زغرب أخفتهم وزارة الدفاع الهولندية عن أعين العالم. لم يتكلم الهولنديون عن المآسي التي حدثت في سربرنيتشا إلا بعد أن غادر آخر جندي هولندي موقعه في بوتوكاري ووصل إلى زغرب. بعد ذلك فقط قص الهولنديون على موظفي الأمم المتحدة ما رأوه من فظائع اقترفت ضد المسلمين. ولو كانوا كشفوا عما يعرفوه بوقت مبكر لتغيرت الصورة تماماً. إن مراعاة الهولنديين لمصالحهم الخاصة، وأولها حماية جنودهم، جعلتهم لا يترددون في منع إيصال المعلومات عن حقيقة الأوضاع في البوسنة، وخاصة في المناطق المسماة الآمنة وأهمها سربرنيتشا، إلى الجنرال سميث قائد قوات الأمم المتحدة في البوسنة. وعلى الرغم من ذلك فإنه يبقى من غير المعقول أن لا يكون لدى الجنرال سميث معلومات كافية عن المذابح التي كانت تقترف

ضد المسلمين. كان بإمكان الجنرال أن يحصل على المعلومات التي يريدها من العواصم الغربية وخاصة الولايات المتحدة التي كانت أقمارها الصناعية تلتقط صوراً لمناطق الذبح الجماعي الذي حل بالمسلمين. ولكن واشنطن لم تكشف عن وجود تلك الصور إلا في ١٠ أغسطس!!.. لم يعلق الجنرال سميث نفسه على الموضوع. ولكن بعض مساعديه المقربين يقولون: إن الهولنديين لم يطلعوا الجنرال على تفاصيل ما عرفوه عما كان يجرى في سربرنيتشا قبل أن يغادرها، وقبل أن يوقع الجنرال اتفاقاً مخجلاً مع الجنرال زعيم صرب البوسنة اعتبره جنرال الأمم المتحدة «خطوة أولية محدودة» نحو تطبيع العلاقات معهم بعد المذابح التي اقترفوها في سربرنيتشا!!!... لقد تقابل سميث ومالديتش في مطعم هان كرام، وكان ذلك أول اجتماع لهم منذ مارس. ولم يكن ما يشغل سميث في ذلك الاجتماع وهو يقابل زعيم الصرب في مطعم، معرفة الأهوال التي اقترفها الجنود الصربيون في سبرنيتشا. كان همه أن يسهل خروج الفرقة الهولندية من الجيب الذي يسيطر عليه الصرب وكذلك أن يزيل أي سوء تفاهم مع زعيمهم مالديتش حتى يتمكن من سحب جميع جنود الأمم المتحدة من المناطق التي يهددها الجنرال الصربي وجنوده!!.. ونتيجة لذلك الاتفاق لم تقل كلمة واحدة عن آلاف المفقودين من الرجال المسلمين في سبربرنيتشا!.. كما حذفت من الاتفاق أية إشارة إلى أسرى الحرب والمحتجزين. إن الإشارة إلى (أسرى حرب) كانت ستعطي المسلمين حقوقاً كفلها لهم اتفاق جنيف، بينما لا تعطي تلك الحقوق إلى (المحتجزين) وعندما اختلف سميث ومالديتش حول أي كلمة

تستخدم وافق سميث على شطب الكلمتين كليهما من فقرة كانت مخصصة لإطلاع الصلب الأحمر، وكان ذلك كما يتمناه مالديتش؛ لأنه ورجاله كانوا يقومون بذبح المسلمين في ذلك الأسبوع نفسه. قال أحد الدبلوماسيين الغربيين فيما بعد: «لقد كان سميث يعرف أن ذلك الاتفاق مشين وأن رائحة العفونة والخيانة تنبعث منه ولكن لم يكن لديه خيار آخر».

كان هناك بين الدول الغربية، مجموعة تسمى (مجموعة الاتصال) وهي تتكون من بريطانيا وفرنسا وأمريكا وألمانيا وروسيا. لقد استخدمت تلك المجموعة سميت بحيث جعلته يبرم اتفاقاً مع مالديتش بينما هي تعد لقصف جوي ضد القوات الصربية. كان هدف المجموعة أن تخرج الفرقة الهولندية من سربرنيتشا بأقل قدر ممكن من الخسائر في الأرواح، بينما في الوقت نفسه كانت قد قررت تنفيذ القصف الجوي ضد القوات الصربية. حول هذه الصفقة يقول كريس جنيس المتحدث باسم الأمم المتحدة في زغرب: «أعتقد أنه لم يكن هنا مفر من اتخاذ القرار بالتضحية بجميع شباب البوسنة من المسلمين القادرين على حمل السلاح كي يتسنى الوصول إلى حل سياسي، كان قد قرر في مؤتمر لندن وهو استخدام السلاح الجوي بشكل واسع بعد أن يكون تم سحب جنود الأمم المتحدة حتى تبدأ الأحداث تتحرك بسرعة نحو نهاياتها». إن الخطة كانت خبيثة للغاية، حيث إنه في تلك المرحلة بدأت الدبلوماسية تتحرك بحيث كان على طاحونة السياسية أن تطحن في طريقها بعض الناس، ومن سوء حظ المسلمين أن هذا البعض كان المسلمون.

لقد هزت مأساة سربرنيتشا ضمير العالم ودفعته للتحرك ولكنها دفعت مقابل ذلك الثمن غالياً من دماء أبنائها. أصدر سميث أمراً بالقصف الجوي، كانت نتيجته التوصل إلى وقف إطلاق النار ومن ثم اتفاق دايتون للسلام الذي أعطى مذابح سربرنيتشا شكلاً قانونياً. لم يكن جيب سربنيتشا ضمن الخطة الأمريكية للسلام، كما أن كل الأطراف الأخرى تغاضت عما حدث في تلك المدينة البائسة، ولكنهم جميعاً بمن فيهم الجنرال سميث لم يدركوا مدى تصميم الصرب على مسح أعدائهم المسلمين من الوجود.

في كلمة وداع حزينة لسربرنيتشا يقول قائد الجناح: مراقب الأمم المتحدة الغاني دافيد تيتش: «لن ترى هذه الأرض بعد الآن طفلاً مسلماً يولد بها، كما أنها لن ترى كهلاً بوسنياً يدفن في ترابها. لقد أصبح كل هذا الآن تاريخاً. لقد انتهى كابوس سربرنيتشا، وقد تشتت أهلها مثل قطيع بلا راع. لقد انتصر المعتدي» ■

أيرما .. أب يتذكر

(١-٢) [1]

كتبها: رامز حاجي مورتوفيتش، جريدة الصنداي تايمز ١٥ يونيه ١٩٩٧م.

القصة التالية هي قصة طفلة صغيرة كانت واحدة من ضحايا الحرب البوسنية اسمها أيرما، كانت قد استطاعت بطريقة ما أن تصل إلى بريطانيا، وأن تعالج في إحدى مستشفياتها، وفيما يلي الحكاية كما يتذكرها والد الطفلة رامز حاجي مورتوفيتش. القصة من جزأين وظهر الجزء الأول من القصة في جريدة الصندي تايمز اللندنية في ١٥ يونيه ١٩٩٧م.

يقول رامز: كنت مع أخي زوجتي في تلك الليلة، وفضلت أن لا أكون بمفردي، وأحضر لنا مائدة من لحم البقر المدخن وبعض الشراب الذي ينتج في هلزجوفينا، كان يتكلم معي، ولكن إذا سألتني الآن ماذا كان يقول فلن أتذكر، كانت أفكاري تسبح على بعد أميال عديدة مع زوجتي ألڤيرا، التي كانت في المستشفى لولادة طفلنا الأول، أخيراً رن جرس الهاتف وأخبروني أننا رزقنا بطفلة. لن أنسى تلك الليلة قط فقد كان اليوم هو الرابع من أكتوبر ١٩٨٧، كنت أتمنى أن يكون المولود طفلاً؛ وذلك لأكون صادقاً مع ما أريد، ولكن الطفل يبقى هو الطفل والإنسان يكون سعيداً بعد الولادة سواء جاء المولود ذكراً أو أنثى.

(١) نشرت في جريدة عكاظ.

كان صحيحاً أنه في البوسنة وخاصة بين الفلاحين فإن الناس هناك يفضلون الأولاد على البنات، كان ذلك اعتقاداً قديماً في الماضي، كان السبب في ذلك هو المهر، فإذا ولد للشخص ولد وكبر هذا الولد وتزوج فإنه يحضر إلى البيت مع الزوجة أو العروسة. كان يأتي أيضاً بالمهر، وكان في العادة يشمل من ضمن ما يشمل بقرة يهديها والد العروس إلى العريس. هذا ما كان عليه الحال في السابق، ولكن أجيالاً جديدة من الشباب تركوا القرى ووجدوا لأنفسهم أعمالاً في المدن؛ ونتيجة لهذا تغيرت نظرتهم للحياة عموماً؛ لذلك كنت سعيداً جداً عندما سمعت بأنني رزقت بابنة، حيث عندما تحين وفاة الأب فسيكون هناك على الأقل ابنة تغلق له عينيه، أما الأولاد فهم مغامرون، وعادة ما يتركون بيوت آبائهم ويبحثون لأنفسهم عن مساكن لهم، وغالباً ما يستمعون إلى ما تقول لهم زوجاتهم، بينما البنات يبقين دائماً قريبات من والديهم حتى بعد الزواج فإنهن لا ينسين آباءهن، وهن في الغالب أرق ولديهن نفوس طيبة.

لم يسمح لي بالذهاب إلى المستشفي في ذلك المساء؛ ولهذا بقيت مع أخي زوجتي في البيت، وفي اليوم الثاني شعرت أن رأسي بحجم جبل (أجمنت)، كان هناك بعض الأصدقاء في المكتب من زملائي وبيدهم بعض الهدايا للمناسبة، كانوا يمزحون معي ماذا حدث يا رامز نهايتك بأن ترزق ببنت، لماذا لم تسأل الخبراء منا؟! ولكن كانوا يمزحون فقط ويتمنون أن يكون طفلي القادم ولداً، كانوا يتكلمون هكذا وكنت أعرف طوال الوقت أنهم سعداء من أجلي، كانوا يعرفون أنني أريد طفلاً، ويعرفون أيضاً أن زوجتي كانت تريد طفلة.

كنت أتمنى أن تكون ابنتي بمثل جمال أمها التي كان يتوج رأسها تاج من الشعر الأسود الكثيف الطويل، وتتمتع بعيون داكنة وملامح وبشرة تشبه لون الخوخ النقي الناضج. كانت زوجتي أجمل امرأة فيما بين سراييفو وجوراجده. مكثت أدير رقم هاتف المستشفى، كنت أريد أن أرى طفلتي وكان هناك رجلٌ يجيب على رغبتي في كل مرة أن لديه تعليمات بأن الزيارة ممنوعة لكل إنسان، وفي اليوم الثالث قال لي: تستطيع أن تأتي اليوم، حضَّرت نفسي بأن حلقت ذقني واغتسلت وارتديت قميصاً، كانت ألفيرا زوجتي قد غسلته وكوته قبل أن تذهب إلى المستشفى. ذهبت إلى أقرب دكان للزهور وطلبت منه إحدى عشرة وردة حمراء.

إن الزهور في سراييفو في أكتوبر غالية نوعاً ما، وربما كان على أصحاب محلات الزهور أن يحضرونها من موستار حيث الطقس أدفأ، أيضاً هم لديهم بيوت محمية، كان الجو بارداً، وكان جبلي (أجمنت وجوهرينا) الشامخين في أفقي سراييفو مغطين بالثلوج، كان الناس يرتدون المعاطف والقبعات، أما أنا فقد كنت سعيداً لدرجة أنني لبست بدلتي دون أن أعنى بتثبيت أزارير معطفي. كان هناك بعض المارة، كانوا ينظرون إلي وكأنهم يقولون: إن هذا الرجل مجنون، إن الدنيا تكاد تتجمد.

عندما وصلت المستشفى ورأيت ألفيرا كنت على درجة من الإثارة حيث نسيت كل ما حضَّرت في رأسي أن أقوله لها، وإذا هي تبادرني بقولها: ضع الزهور جانباً يا رامز لقد رزقنا بطفلة. قبلت زوجتي ولازلت غير قادر أن أنطق بشيء، وفي تلك الأثناء سألتني الممرضة إن

كنت أحب أن أرى ابنتي؛ تبعتها إلى حائط كبير من الزجاج، كانت خلفه غرفة كبيرة مكتظة بالأطفال، كانوا كلهم يرتدون الألبسة نفسها، وكلهم يبدون كأنهم أرغفة من الخبز الطازج. إن ابنتك.. هكذا بدأت الممرضة تخاطبني، ولكنني قاطعتها بقولي أعرف أي طفلة من بين هؤلاء هي ابنتي، إنها تلك الطفلة هناك، وأشرت إليها إنها تشبهني، قلت للممرضة. كان هناك بعض الأطفال يبكون، ولكن طفلتي كانت نائمة، وخاطبتها بسري: أهلاً بك يا ابنتي.

إن من العادة في البوسنة أن يأخذ الآباء أطفالهم من المستشفى؛ لذلك عندما تناولت ابنتي من الممرضة كانت يداي ترتجفان قليلاً، أعطيت الممرضة هدية صغيرة لا تستحق الذكر ولكن تلك كانت العادة. كنت خائفاً من أن تسقط الطفلة الصغيرة من بين يديّ، مشيت، وعندما نظرت إلى نهاية الممر الذي يؤدي إلى الغرفة التي كانت فيها زوجتي كانت تتكئ على ذراع والدتها وقد بدت لي أصغر مما كانت عندما جاءت للمستشفى، وعندما رأتني والطفلة بيدي ابتسمت ثم ضممنا بعضنا وبكت زوجتي. استيقظت الطفلة وبكيت قليلاً أنا أيضاً، أعرف أن هذا ليس من الرجولة في شيء ولكنني بكيت قليلاً.

اختلفت الآن حياتنا قليلاً بوجود طفلة صغيرة معنا في البيت. لو كان أحد قد أخبرني قبل أن تولد الطفلة أنني سوف أشعر بذلك القدر الكبير من السعادة لما صدقته. صرت أبقى في المنزل مع ألڤيرا ومع ابنتنا الجميلة معظم الوقت نفسه، في أثناء النهار كنت أستقبل الزوار وأتحدث معهم، وفي المساء كنت أساعد في تنظيف البيت

وترتيبه، أما الطفلة فكانت تأكل ثم تنام. وبين الآونة وأخرى كانت زوجتي تطلب مني أن ألقي نظرة على الصغيرة لأتأكد أنها تتنفس، وفي كل مرة كنت ألقي عليها تلك النظرة.

في البداية كانت الطفلة تستيقظ وتبكي في منتصف الليل، ولكني كنت أرى بكاءها أجمل من ضحكة طفل أكبر منها، إن بكاءها عندي مثل أغنية جميلة.

في الليلة الثالثة أو الرابعة سألت ألفيرا إن كانت فكرت بإطلاق اسم معين على ابنتها، وأجابت بأنها لم تكن تريد أن تقترح اسماً، ولكنها أضافت: إنها تحب أن تدعوها أيرما. كان اسم أيرما جديداً عليَّ ويعتبر غريباً أيضاً شيئاً ما ولم أكن متأكداً أنني أحببته، ولكنني عندما تذكرت أن ألفيرا حملتها في بطنها تسعة أشهر، وعانت تلك الأشهر التسعة، وعانت في ولادتها أجبت أن أيرما اسم لطيف، وأنه اسم جديد، وعليه سجلنا طفلتنا أيرما حاجي مورتوفيتش. عندما حان الوقت لتعود ألفيرا إلى عملها بعد أن انتهت إجازة الوضع صارت والدتي تعنى بأيرما. المشكلة الوحيدة أننا كنا نراها في نهاية الأسبوع؛ لأن أبويَّ يعيشان في الريف. كانت ألفيرا تبكي أحياناً، وكانت تقول: إننا نحن آباء لبعض الوقت فقط. آباء نهاية الأسبوع. كان ذلك يدفعني أنا أيضاً إلى البكاء، لكني كنت أتحاشى أن تراني زوجتي كذلك، فأخرج إلى حديقة منزل وَالديَّ لأختفي عن أنظار زوجتي، وبينما كنا نفكر فيما يجب أن نفعله مرضت والدتي، كان مرضها نتيجة لسنين طويلة للعمل الشاق، ونتيجة لمرض أمي أرجعنا أيرما

معنا، وبطريقة ما استطعنا أن نجد لها مكاناً في روضة أطفال قريبة من منزلنا.

لم ترحِّب أيرما نفسها بوجودها في روضة الأطفال؛ لذلك عندما ذهبت يوماً ما لأحضرها إلى المنزل كانت حزينة. وفي يوم وكانت قد كبرت الآن قالت لي ونحن في طريقنا إلى المنزل بالترام: أبي إنني متعبة، حملتها بين يدي ولكنها كانت غاضبة وأخذت تخرمش وجهي ولم أستطع في تلك اللحظة أن أدافع عن نفسي؛ لأنني كنت أحملها وأحمل أشياء أخرى أيضاً بيدي معها. حاولت أن أتكلم معها وأقول لها بأنني وأمها مشغولان فنحن كلانا يعمل، ولكن ذلك لم يهدئ من غضبها، ولكن في الوقت نفسه كانت هناك أوقات سعيدة.

كنا عائلة كبيرة متقاربة وكلاً منا يعيش حياة طيبة. كنا نقوم بزيارة أقاربنا بانتظام، وكان بعضهم يمدنا بكثير من الفاكهة الطازجة من مزارعهم، وكنا نحن في المقابل نشتري لهم بعض الأشياء التي نستطيع شراءها من المدينة، أشياء قد لا يجدونها في دكاكين القرية الصغيرة.

في عام ١٩٩٠ رزقنا بطفلة أخرى أسميناها مدينة، كنا نتوقع أن تصبح أيرما غيورة أو تصاب بالغربة من وجود المولودة الأخرى الصغيرة، ولكنها لحسن الحظ كانت رقيقة ولطيفة مع أختها الصغرى. وكانت دائماً تطلب من أمها حمل الصغيرة في حضنها.

كنا مشغولين بأنفسنا لدرجة أننا لم نلاحظ التغييرات السياسية التي كانت تحدث من حولنا، كانت القومية بدأت تنتشر. بدأ انتشارها

في صربيا في البداية، ومن ثم زحفت إلى أماكن أخرى. لم نكن أنا أو زوجتي ممن يهتم في السياسة، ولكن عندما تنتشر القومية في كل أنحاء البلاد سوف تصاب أنت أيضاً بالعدوى سواء أحببت ذلك أم كرهته. كنت أرى الناس يتكلمون عن القومية في كل مكان أذهب إليه، إن كان بين الجيران أو أي مكان آخر. كان ذلك هو الموضوع الرئيس الذي يتحدث الناس عنه. أما نحن كنا نحاول أن نتجنبه، كنا نلجأ إلى أفراد عائلتنا ولكن لم نكن مرة نشاهد التلفزيون إلا ونسمع أحاديث عن القومية. لم أكن أنا نفسي خبيراً في الشؤون السياسية، ولكني قلت لألفيرا ذات مرة: إن الأمور لا تبشر بالخير، لكنها ردت بألا أكون متشائماً ولا داعي لمثل هذا الحديث.

شيئاً فشيئاً بدأت الأحزاب السياسية تتصارع. كانت البداية أن أبعدت سلوفينيا نفسها من الاتحاد الفيدرالي اليوغسلافي، ثم تبعتها كرواتيا، وبعد ذلك بدأ القتال، كنا نشاهد على شاشات التلفزيون المدن المحترقة والدبابات تجوب الشوارع، لقد بدأت الحرب فعلاً. كنا نظن أنها لن تطالنا، إنها حرب تدور رحاها في مكان آخر، من السهل جداً أن تلف نفسك في بطانية من الشعور الخادع بالأمان وتبقى كذلك إلى أن تجد القنابل بدأت تتساقط في فناء منزلك.

في ٨ مارس ١٩٩٢ زرنا أقرباءنا لآخر مرة، أخذنا معنا بعض القهوة والسكر لوالدتي، ووضعنا أشياءنا في السيارة. كانت الدكاكين قد أصبحت نصف خاوية، كان الناس يشترون الأشياء ويشترون المواد المعروضة وكأنه لن يكون هناك غد آخر. كان يوم ٨ مارس هو يوم

النساء العالمي، وكان يحتفل به في يوغسلافيا السابقة؛ ولذلك كنت في ذلك اليوم من كل عام أزور والدتي وآخذ لها بعض الهدايا.

في هذه المرة كنت قلقاً من الرحلة، نرى أناساً مسلحين في الشوارع لكننا وصلنا بسلام إلى منزل والدتي، فاجأتني عندما قابلتها بقولها: «رامز يا بني، إن الأمور لا تبدو طيبة، إن الحرب ستندلع ومن الأحسن أن تبقوا هنا جميعاً أنت وعائلتك ولو لم يكن لأي شيء آخر، على الأقل كي لا تجوع أنت وعائلتك، يكون لدينا دائماً بعض البطاطس والخوخ والتفاح ولن يكون باستطاعتك أن تحصل على هذه الأشياء من المدينة في أثناء الحرب، أرجو أن تستمع لي وأن تبقى هنا، إنني غير متعلمة وغير ماهرة، ولكنني استطعت أن أبقى على قيد الحياة بعد أن مررت بتجربة حرب سابقة».

على كل حال لم أستمع إلى نصيحة والدتي، ليس ذلك لأنني لم أصدقها، الواقع أنني كنت مقتنعاً بكل كلمة قالتها، ولكن كنت أيضاً أرى أن موجة الجنون التي عصفت بالناس سوف تنتهي وسيعودون إلى عقولهم. كان باعتقادي أن الناس لا يزالون يتمتعون بكل قواهم العقلية، وأن الحرب لا يمكن أن تندلع في سراييفو نفسها. لقد كنَّا صوتنا قبل بداية الحرب بوقت قليل لصالح السلام والتعايش السلمي مع بعضنا، نتيجة لتفكيري هذا عدنا إلى سراييفو، ولو كنت أعرف ماذا كان سيحدث لكنت بعثت بألفيرا والبنتين إلى أي مكان؛ ليكونوا آمنين أو لأبعدهم عن الخطر.

حدث أن قام بعض الناس بمظاهرة سلمية أو قاموا بمظاهرة يدعون فيها للسلام، ولكن أطلقت عليهم النار من بعض القناصة على الرغم من أن المتظاهرين لم يكونوا مسلحين، كان ذلك قرب فندق هوليدي إن، وتلك الحادثة جعلتني أدرك مدى خطورة الوضع. قررت عندها أن أرسل ألڤيرا والطفلتين إلى أي مكان آمن.

لم أعرف إلى أين سأرسلهم، ولكنني كنت أرغب فقط في إبعادهم عن سراييفو. قلت لألڤيرا: إنني سأبقى، لقد كنت رجلاً وواجبي هو أن أبقى وأدافع عن بلدي، ومن العار أن أهرب بعيداً. كنت أخطط لحماية منزلي حتى تعود ألڤيرا وابنتاها عندما تنتهي النزاعات، وقلت لألڤيرا: لا شيء يدوم للأبد، ومثل كل شيء سوف تنتهي الحرب أيضاً، وبينما كنت أنا أقول لها ذلك أمسكت هي بي وأخذت تبكي، وحيث إنني لم أكن أبداً جيداً في تعاملي مع دموع النساء فقد أسقط بيدي ولم أعد أعرف ما أقول لها وهي تحتضنني، فقد كانت تصيح: لن أذهب إلى أي مكان يا رامز هل تسمعني؟... لن أذهب. إذا كنا قد اقتسمنا السعادة معاً علينا أن نقتسم ما يأتي الآن معاً.

كنت حزيناً وقلقاً، ولكنني أكذب لو لم أعترف أنني أيضاً سعدت بما قالته ألڤيرا، وعليه فقد قررنا كلانا أن نبقى، لكننا قررنا أيضاً أن نترك المنزل؛ لأنه كان في منطقة مفتوحة ومن السهولة أن يرى من فوق التلال.

في اليوم التالي حزمنا حقائبنا وأخذنا ما كان في الثلاجة من طعام وأقفلنا منزلنا وتوجهنا إلى شقة زوجتي التي كانت إلى حدٍ ما محمية قليلاً، وكان بها أيضاً قبو فيه موقد. قالت زوجتي: إننا سنكون هنا، كانت توجه هذا الكلام لي قدر ما كانت أيضاً توجهه لنفسها لتطمئن، ولكن ذلك كله كان خداعاً فقط؛ لأننا لم نلبث أن وجدنا أنفسنا في وسط الجحيم. كانت نيران المدافع والقنابل تتساقط علينا من كل ناحية. كان الناس يسقطون قتلى من جراء الشظايا والقنابل، كما كانوا يقتلون أيضاً على أيدي القناصة، والأمرُّ من ذلك أنه لم تكن لدينا الوسائل للدفاع عن أنفسنا. لم يكن حزني على نفسي ولكنه على طفلتينا، حاولت مرة أخرى أن أقنع ألڤيرا بمغادرة سراييفو مع الطفلتين ولكنها بكت وصاحت وقالت: إنها لن تتركني. لم أحاول بعدها أن أفتح الموضوع مرة أخرى.

من البدهي أن أي حرب تسبب مشكلات كثيرة أخرى غير الشيء الرئيس الذي تعلمه وهو قتل الناس. من تلك المشكلات أن الطعام أصبح نادراً ولم يعد هناك كهرباء ولا غاز ولا ماء، كانت تلك الضروريات حرمنا منها. كنت أشعر بالأسى الشديد والحزن لسبب أطفالي. كان على تلك الطفلتين وغيرهما من آلاف وملايين الأطفال أن يكبرن بين يوم وليلة، أن يتخطين وقت الطفولة ويدخلن في دوامة البؤس والشقاء والهموم، لقد سلبت منهما براءة طفولتهما بين يوم وليلة، وعلى الرغم من كل شيء لقد كنا أنا وألڤيرا نحاول أن نوفر لهما ما يمكن توفيره في ظل الظروف القائمة. تطوعت للدفاع عن

المدينة، كنا نفراً قليلاً من المتطوعين، وكان لدينا الأقل من الأسلحة، ولم نكن منظمين، وبالتالي قطعاً لم نكن على مستوى كفاءة أولئك الذين كانوا يترصدون لنا فوق التلال. لم يكن هناك جيش بوسني بعد، ذهبت إلى الجبهة المتقدمة بضعة مرات ولكن أخبروني في المصنع الذي أعمل به أنهم في حاجة إلى خدماتي فعدت بعد أن أخلو سبيلي من واجب التطوع. ألفيرا أيضاً توقفت عن العمل، كان عليها أن تبقى في المنزل مع الطفلتين. كنت أعمل في المصنع ولكن كان عقلي وتفكيري دائماً في بيتي، وكانت القنابل تتساقط على سراييفو كالمطر وكان كل انفجار يهزني.

كنت أدعو الله أن يبعد عني الشر، وكنت أسرع إلى البيت حالما أنتهي من العمل، والغريب أنه لم يخطر في بالي قط أنني ربما أقتل بينما أنا في طريقي إلى البيت، والأغرب من ذلك أن الناس عموماً يعتادون في حياتهم على الأحداث التي تصبح روتينية حتى ولو كانت خطرة.

في البداية كانت البنتان تصيحان من الخوف عندما تتفجر القنابل، كانتا تجريان نحوي ونحو أمهما وتدفنان رأسيهما في أحضاننا، إنما بعد مرور مدة بسيطة اعتادتا على سماع انفجار القنابل ولم يعد ذلك يثيرهما. كانت مدينة لا تزال صغيرة على توجيه أية أسئلة لنا، أما أيرما فكانت قد بلغت الخامسة من العمر عندما بدأت الحرب. كانت تفهم ما يتحدث عنه الكبار، وتدرك أيضاً ما تسمع عن طريق الراديو عندما كانت الكهرباء تعود بين فترة وأخرى.

اعتاد الأقرباء والجيران أن يزورونا في المساء ونتحدث جميعاً، وذلك حتى إذا لم تعد هناك كهرباء، فقد كنا نتحدث في الظلام، وكانت أسوأ الأوقات هي في المساء. عند كل انفجار كان هناك وميض يتلألأ في الجو، ولم يكن أحد يعرف مسافة الانفجار عن مكاننا.

كانت أيرما وأختها الصغيرة مدينة دائماً تتفززان في نومهما، كانتا تصحيان من نومهما فجأة، ويرى على وجيههما الخوف والقلق، وكان علينا دائماً أن نهدئ من روعهما. كنت دائماً أجد الصعوبة في الصباح في الذهاب إلى عملي، إنني في كل وقت كنت أودع زوجتي وبنتي كنت أخشى أن تكون آخر مرة أراهما فيها، كنت دائماً أقبل البنتين أما زوجتي كانت ترافقني إلى الباب وتقول: احترس يا رامز. ماذا كان يمكنها أن تقول غير ذلك..

مرت الأشهر وعاد فصل الصيف إلى سراييفو، بدت الأشجار خضراء، والزهور بدت أيضاً فيما بدأت فاكهة الخوخ بالنضوج. كانت السماء صافية، والقمر في كبد السماء يرسل ضوءه الفضي. بينما كانت رائحة أشجار الليمون قوية وجميلة.

إنما لا أتمنى صيف عام ١٩٩٣ لأي إنسان على وجه الأرض. كان الوقت هو في ٣٠ يوليه في الصباح. كنت أستعد للذهاب إلى عملي، وكانت البنتان أيرما ومدينة نائمتين وهما يحتضنان بعضهما، مشيت نحو سريرهما وقبلتهما. أما مدينة تقلبت قليلاً في نومها، أما أيرما فقد فتحت عينيها وابتسمت وسألتني هل حان الوقت للاستيقاظ يا

أبي؟.. نعم، يا صغيرتي الجميلة، هل أنت ذاهب إلى العمل؟ نعم يا طفلتي، بابا يجب أن يذهب إلى العمل. إنما أنا لست طفلة وردت أيرما أنا لم أعد طفلة، يا أبي إنما مدينة لا تزال طفلة. بينما كانت تقول ذلك جاء صوت انفجار قنبلة في مكان ما من حولها. سمعت ذلك أيرما وضمتني بقوة، وكان لا يزال جسمها دافئاً ورطباً من أثر النوم. مرة ثانية تقلبت مدينة ولكنها لم تستيقظ. أخيراً سألتني أيرما: ولكنك يا أبي لن تقتل أليس كذلك؟ فأجبتها: طبعاً طبعاً لن أقتل، ثم قبَّلتها ومشيت للخروج.

كان هذا الحديث حزيناً لدرجة أنني وجدت الدموع تملأ عيناي، جاءت ألڤيرا أخيراً من المطبخ وقالت: ما هي الحكاية يا رامز؟ وأجبتها: لا شيء، فقط لدي ذلك الشعور الغريب، ولم أكمل بل خرجت من البيت، وكالعادة سمعتها تقول وأنا أهبط من الدرج: انتبه لنفسك.

كان اليوم حاراً ورطباً، وكان الهواء ساكناً، وكان من الصعب على المرء أن يتنفس، وكما هي العادة فإن المجانين الذين يراقبوننا من على ظهور التلال لم يتركونا وشأننا. لقد كنت أخشى على بيتي وأطفالي كلما سمعت انفجار قنبلة، وكنت أتساءل هل يا ترى يمكن لهذه القنابل أن تخترق الجدران والسقوف وتصل إلى الطابق الموجود تحت الأرض. في تلك اللحظة جاءني زميل في العمل قال: إن بعض الأشخاص يريدون مقابلتي وهم ينتظرون خارج بوابة المصنع. لم تعجبني الطريقة التي أخبرني بها الزميل عن الناس الذي ينتظرون، ولكنني سرعان ما

نفيت الفكرة من رأسي وأنني فقط أتوهم أشياء ليست صحيحة. قد لا يزيد الأمر عن شخص ما يريد أن يراني. عندما وصلت إلى مكتب الاستقبال الموجود عند البوابة وجدت ابن أخي نيزاب وفاجأني بقوله: إن أيرما قد جرحت يا عمي، سمعت ذلك وفجأة أصبت بنوع من البلادة الحسية، وكل ما استطعت أن أقوله هل لا تزال حية فأجاب: بنعم، وأنها موجودة في المستشفى العسكرى. أعطوني سيارة من الشركة وسائقاً أخذني إلى المستشفى. لم أعد أذكر الطريق التي سلكها إلى هناك ولكن أتذكر فقط أنه كان يقود السيارة بسرعة ويحاول طوال المسافة أن يتجنب القناصة، لم أكن أشعر بذلك، كنت أفكر بابنتي. عندما دخلت قابلني الطبيب وأخبرني أن جراح أيرما خطيرة ولكنها لم تفقد وعيها وأن حياتها ليست في خطر، وأضاف إنه لن يستطيع أن يقول شيئاً قبل أن يصورها بالأشعة، ولم يكن لديهم كهرباء في ذلك الوقت في المستشفى، كان عليهم أن ينتظروا. قال لي: إنها جرحت في رأسها وبطنها وظهرها أيضاً، مرة أخرى ارتعبت ولكن أكد لي الدكتور أن حياتها ليست في خطر وأستطيع أن أراها.

عندما دخلت ورأيتها كانت تنام على جنبها وبدا لي أن شيئاً غير طبيعي يلفها: إن شعرها لزج، ربما كان ذلك من العرق، هكذا ظننت، وكان رأسها ملفوفاً بشاش طبي. حالما رأتني امتلأت عيناها بالدموع، كانت تبكي بصمت، وكانت حبات الدموع تجري فوق خدودها وتسيل على رقبتها. كدت أن أصيح من الخوف والفجيعة، ولكنني تمالكت

نفسي. كل ما عملته أنني انحنيت وقبلت ابنتي، كانت تنبعث منها تلك الرائحة الحلوة رائحة عرق الأطفال مخلوطة برائحة الدواء.

مسحت بيدي على شعرها برقة وسألتني هي أين أمي؟ أجبتها إنها في البيت يا حبيبتي لم تستطع أن تترك مدينة بمفردها، وسوف تأتي لتراك حالما أصل أنا إلى البيت. كنت أريد أن أسرع إلى البيت لأرى زوجــتي، ولكنني لم أرد أن أترك أيرمـــا. جلست على طرف السرير مدعياً أنني أسوى غطاءها فوق جسدها الصغير. لم أكن أريدها أن تراني وأنا أبكي، كانت تحرك يديها أعطاني ذلك بعضاً من الأمل. غير أنه بالرغم من أن إحدى الإصابات كانت في ظهرها إلا أنها تستطيع أن تحرك أعضاء أطرافها. وأخيراً قلت لأيرما: إنني يجب أن أذهب إلى البيت؛ لأن أمها لابد أن تكون منزعجة جداً، وأضفت إنني سأبقى مع مدينة حتى تتمكن أمك من القدوم إليك. رأيت في عينيها أنها لم تكن تحب أن تترك لوحدها ولكنها لم تعترض على ذهابي.

مرة أخرى أوصلني زميلي بسيارة الشركة إلى بيتي، عندما بدأت أصعد الدرج إلى البيت وضعت يدي في جيبي أخرج مفتاح البيت ولم أجده، فقد نسيته في المكتب. نزلت إلى شقة جارتنا فتحت لي الباب ووجدت أن بيتها يموج بالنساء، وكان معظمهم من أقاربنا، عندما دخلت توقف الجميع عن الكلام. أين ألڤيرا.. سألت بسرعة؟ لم أسمع إلا الصمت ظننت أنهم لم يسمعوني فكررت سؤالي وساد الصمت مرة أخرى، أخيراً أقبلت نحوي والدة جارتنا وهي امرأة كبيرة وقالت: يا رامز قتلت ألڤيرا.

لم أدرك في البداية، لم أستطع أن أفهم في البداية ما قالته ولكنني أخذت أبكي عندها، أخذ كل شخص يقبلني أو يحتضنني أو يتمتم بشيء، لم أذكر شيئاً مما قالوه، إنما كل ما أذكره أنني شعرت بشعور غريب في معدتي وكأنما قد جاء أحد وفتح معدتي بضربة قاسية.

في هذه الزحمة جاءت مدينة لا أدري من أين ظهرت ولكني أذكر أنها ضمتني إليها بقوة، وكان سؤالها لماذا يبكي هؤلاء الناس يا أبي؟ قلت لها: إننا خائفون يا بنتي، وكنت أحتضنها بقوة وكأنما سوف يأتي شخص ما ويختطفها من بين يدي. أين أمي؟... كان هذا سؤالها الثاني لم أعرف ماذا سأرد عليها. لم يكن لدي جواب لسؤالها، كنت فقط أسأل نفسي لماذا؟. سوف يبقى ذلك السؤال في وجداني إلى أن ألاقي ربي. أنا أعرف أنني لن أجد الجواب، أعرف أيضاً أنني لن أجد السعادة بعد الآن إلى أن يضمني قبر واحد مع ألڤيرا. إنما قبل أن يحدث ذلك علي أن أنشئ ابنتيَّ وأعتني بهما، كان عليَّ أن أصبح لهما أماً أيضاً كما أنا أب لهما.

أتذكر أنه جاءني أحدهم بحبة مهدئة، كان حزني شديداً من اللحظة التي عرفت فيها مقتل زوجتي، ليس على نفسي فقط أو ليس حزني شخصياً لفقدها، ولكن كنت حزيناً أكثر من أجل الطفلتين تركتهما.

أخبرني فيما بعد بعض من شاهدوا الفاجعة أن ألڤيرا وجارتنا بيرا أخذا الأطفال إلى مركز الصليب الأحمر للحصول على بعض

الطعام، وفي أثناء عودتهم وبينما هم يعبرون الحديقة المقابلة لبنايتنا سقطت فجأة قنبلة خلفهما بحوالي سبعة أو ثمانية أمتار، كانت بيرا تمسك بيد أيرما بينما كانت ألڤيرا تمسك بيد ابنتنا مدينة.

قتل الانفجار بيرا وألڤيرا حالاً، وجرح أيرما وطفلين آخرين. بيرا وألڤيرا زوجتي أصبحتا صديقتين منذ بداية الحرب عندما تقابلتا على الرغم من أن بيرا من أصل صربي بينما ألڤيرا زوجتي مسلمة. عندما أفكر في الأمر الآن أجد أن صداقتهما تفسر الحرب البوسنية كلها. كان قدرهما أن يقتلا معاً بسلاح المجرمين نفسه، قيل لي: إن ألڤيرا وهي تسقط أرضاً جذبت إليها مدينة وحمتها بجسمها. لن أعرف طبعاً تلك الحماية هل هي جاءت بغريزة الأمومة أو أنه حدث أن سقطت فوق ابنتها عندما ضربت، وطبقاً لرواية الأشخاص الذين شاهدوا الحادثة كانت مدينة تصرخ أمي أمي أرجوك انهضي من فوقي إنك تؤلميني، وكل ما استطاعت ألڤيرا أن تقوم به هو أنها حركت يدها، أخذهم المارون بسيارة وأوصلوهم إلى المستشفى، بينما أخذت أيرما إلى المستشفى العسكري، وفي المستشفى الأخرى كشفوا على مدينة وسمحوا لها بالذهاب إلى البيت. أخبرتني مدينة أن أحد الأطباء أعطاها قطعة شوكولاته؛ لأنها كانت فتاة شجاعة، والغريب أن قطعة الشوكولاته تلك كانت الشيء الوحيد الذي ذكرته مدينة أو أخبرتني به.

ناقشت مع أقربائي إجراءات دفن الزوجة، قررنا أنه يجب أن نقوم بذلك بسرعة وفي أثناء الليل، كان إخوان ألڤيرا في الجبهة، وكان علينا أن نرسل أحداً لإخبارهم.

ذهبت إلى مكتب جريدة أوسلوبوجنجي وأعطيتهم صورة ألفيرا وشيئاً عنها لينشروه في القسم الذي كان يتضخم كل يوم، وهو القسم الخاص بنشر أسماء وأخبار المتوفين، ولم أنس أن أذهب إلى المستشفى لأسترجع بعض حاجاتها وأحصل على إذن منهم للدفن. سألتهم إن كان بإمكاني أن أراها فأجابوني بالموافقة.

كانت الثلاجة التي تحفظ فيها الجثث في البدروم الخاص بالمستشفى، وعندما نزلت اعتادت عيناي على الظلام، رأيت زوجتي كانت مستلقية على جنبها وقد وضع أحدهم بطانية فوقها، أخذت أبكي، وأردت أن أحتضنها وسمح لي أن ألمسها فقط. كان الجانب الأمامي من قميصها ملوثاً بالدماء. لقد ضربتها الشظية في صدرها، وكان عزائي الوحيد أنها لم تتألم كثيراً حيث إنها لابد وأن ماتت بسرعة.

لمسني المشرف بكتفي وطلب مني أن نغادر المكان، تبعته للمكتب حيث أعطاني متعلقات زوجتي الشخصية، وكانت خاتمين وحلق وساعة ومفاتيح البيت، كان علينا أن ننتظر إلى هبوط الليل لكي نستطيع أن نحفر قبراً لألفيرا؛ لأن ذلك كان خطراً جداً خلال النهار، كانت التربة قاسية وصعبة الحفر، وكان علينا أن نزيل قطعة من الصخر من مكان القبر، عندما عدت من المقبرة وجدت إخوان ألفيرا في المنزل، كل ما استطعنا أن نعمله هو أن تعانقنا وبكينا. كانت ألفيرا أصغر إخوانها وكانوا يحبونها. كما هي العادة في البوسنة أن

الأصدقاء والأقرباء يكونون في منزل الميت أو الميتة طوال الوقت، كانوا يأتون ليتكلموا ويعزوني، وكنت أستمع لكلماتهم ولكنني كنت مدركاً أن الكلمات لن تخفف من آلامي، وكنت أعرف أن الشيء الوحيد الذي سيعينني على مواصلة الحياة هو وجود ابنتيَّ. نحن في حالة حرب والطفلتان صغيرتان وعليَّ أن أكون معهما جسميًا على الأقل، حيث إن نصف كياني الروحي أو أكثر قد مات مع زوجتي. كنت أقول لنفسي: إنني لا يجوز أن أكره الأشخاص الذين كانوا سبباً في نشوب الحرب ولكنني في الوقت نفسه لم أستطع أن أسامحهم، وكان من واجبي أن أخبر طفلتيَّ كأب عمن قتل أمهما.

عند الدفن أنزلت أنا وأخوا ألفيرا جثتها إلى القبر، كان ذلك آخر واجب لها نحوي، وكنت طيلة الوقت أعد وأقرر بنفسي أنني لن أنساها أبداً. لم يكن هناك كثير منا وكانت القنابل تتساقط بصفة دائمة على سراييفو، وفي الوقت نفسه لم نكن نجرأ على البقاء طويلاً خارج البيت، ولكن عندما عدنا إلى المنزل في ذلك المساء الحزين لم يشعر أحد منا بالرغبة في النوم خاصة أنا، لم يكن بإمكاني رؤية سريرنا الكبير وقد خلا من زوجتي.

في اليوم التالي ذهبنا إلى جنازة بيرا، ثم من بعدها زرنا أيرما في المستشفى. كان وضعها يتدهور بسرعة، وهذا ما كان واضحاً لي، كان الأطباء والممرضات يعملون كل ما في أيديهم لإنقاذها غير أنه لم تكن هناك كهرباء ولا ماء ولا غاز، وعليه فلم يتمكنوا حتى من تصوير جسمها بأشعة إكس.

كنت بصفة خاصة مأخوذاً بالعناية التي أولاها لابنتي دكتور شاب يدعى أيدو جادن جاش الذي كان يعطي لابنتي كل عناية، إنما حيث لم تكن هناك أشياء كثيرة يمكن أن يقوم بها خاصة بعد انقطاع الكهرباء والماء والغاز فقد اقترح أن الفرصة الوحيدة هي أن نقوم بإخلائها طبياً إلى مكان ما، ليس مهماً أي مكان طالما أن نقوم بذلك بسرعة. في ذلك الوقت كانت صلتنا بالعالم الخارجي هي عن طريق الصحفيين الأجانب فقط؛ ولهذا فقد رتب أو هيأ الأطباء مع محطات (ال آي بي سي) و(ال بي بي سي) لتصوير أيرما في المستشفى، لم أكن أعتقد أن ذلك التصوير يمكن أن يأتي بأية نتيجة، ولكن كنت مستعداً للقبول بأي اقتراح أو أي شيء. كان قرار الأطباء أنه في حالة إخلاء أيرما طبياً فإنني سوف أرافقها، لم يكن لدي جواز سفر فعَّال، كما أنني كنت أحتاج لصور ومن أين لي أن أحصل على ذلك، ونتيجة لذلك سرت قشعريرة في جسمي. ذهبت إلى مكتب الجوازات وملأت بعض البيانات وسألت إن كانت لديهم أية فكرة متى يكون جوازي جاهزاً، وكانت إجابتهم أنه إذا عادت الكهرباء والغاز سوف يكون الجواز جاهزاً في الساعة الثانية بعد الظهر، وكانو يحاولون أن يبدون متفائلين أمامي، وحيث إنه لم يكن لدي شيء أعمله في تلك الأثناء فقد قررت أن أفاجئ أيرما بزيارة للمستشفى، وحالما وصلت فوجئت أن كل واحد في المستشفى كان يروح ويجيء بسرعة. جاءني الدكتور جاجنجيك وقال: إنه ربما سوف نتمكن من إخلاء أيرما طبياً اليوم. ولكن جوازاتنا لم تجهز بعد، فليس لديهم كهرباء، وأجاب دع عنك

الجوازات يارامز لا تفكر في ذلك، ثم اختفى الدكتور بعد ذلك وظهر بعد دقيقتين ومعه صحفي من محطة سكاي التلفزيونية، الذي أبدى استعداداً أن يعطي بعض البنزين لمكتب الجوازات لكي يساعد مكائنهم على العمل.

كانت السماء تمطر وكان المطر ينهمر وكانت السماء ملبدة بالغيوم وسوداء مثل ليلة ظلماء.

حالما شاهدتنا السيدة المسؤولة عن الجوازات بادرتنا قائلة: آسفة يا سيد حاجي مورزوفيتش، ولم تكمل كلامها حيث قاطعها الصحفي من محطة سكاي قائلاً: ماذا تحتاجين لتنهي له عمله؟ أجابت: نحتاج إلى ثلاثة ليترات من الوقود. رد الصحفي حسناً. نعطيك بعض الوقود. لسوء الحظ لم أسأل حتى عن اسمه لأنني أود جداً أن يعرف كم أنا مقدر وممتن له لما عمله من أجلي في ذلك اليوم، وبينما كنا ننتظر كنت قلقاً على حياة أيرما.

من العجيب أن نتذكر أننا كنا نترقب مصير طفلة تعيش في سراييفو وهي بلد في وسط أوروبا، حيث ولدت ابنتي في تلك البلد العاصمة في نهاية القرن العشرين، وأن حياتها كلها كانت تتوقف على الحصول على ليترين أو ثلاثة ليترات من الوقود. اقترب مني شخص مسؤول آخر وطلب مني أن أوقع له على بعض الأوراق. قالت المرأة: إن أيرما سوف تتمكن من السفر في هذا اليوم، في الساعة الثانية سوف تأخذك عربة مصفحة إلى المطار، وإن الطائرة التي ستنقلك إلى

خارج البلاد ستكون في انتظاركم. وأجبتها وماذا عن ابنتي مدينة؟ فلن أستطيع تركها هنا. فأجابت المرأة طبعاً طبعاً لا يمكنك تركها هنا. في تلك الأثناء دخلت ابنة عم ألفيرا وطلبت منها أن تذهب وتحضر مدينة إلى المستشفى بسرعة، وأضفت يجب أن تكوني مع مدينة هنا في الساعة الثانية؛ لأنني لن أستطيع ترك مدينة وفي الوقت نفسه، إذا أضعنا هذه الفرصة.. ولم أكمل، فقد نظرت إلى ساعتي ووجدت أنها الواحدة وخمس وأربعون دقيقة تماماً. ففكرت دون أتكلم أنه لن يمكننا على الإطلاق أن نكون مستعدين للإقلاع وأن نكون في المطار في الساعة الثانية ظهراً.

عندما وصلت المستشفى وجدت بيتر كاتلر وهو ممثل الأمم المتحدة ينتظرني، ولكنني لم أجد مدينة هناك . عرض كاتلر أن يأخذني بسيارته إلى الشقة إلى بيتي لإحضار مدينة، وبينما كنت أغادر مع كاتلر نظرت إلى الخلف ورأيت أيرما وهم ينقلونها بسرير المستشفى، كانوا يضعونها في العربة المصفحة، ونظر بيتر كاتلر وقال: لدينا عشر دقائق فقط. وبلمح البصر كنا أمام بيتي ونهبت الدرج نهباً، وفي ثواني كنت في الدور الرابع، ولمفاجأتي وجدت الباب مغلقاً ولم أجد مدينة. أسرعنا إلى المطار وقلبي يحترق من الألم، ولم أكن أعرف أين مدينة، وفي الوقت نفسه كنت حريصاً على إبقاء حياة ابنتي الأخرى بمرافقتها للعلاج خارج البوسنة. ولسعادتي وجدت مدينة قد سبقتني بها ابنة عم زوجتي إلى المطار.

أيرما .. أب يتذكر
(٢-٢)[١]

كتبها: رامز حاجي مورتوفيتش، جريدة الصنداي تايمز ٢٢ يونيه ١٩٩٧م.

كانت مدينة تبكي وأسرعت إلي عندما رأتني واحتضنتني بقوة، ولم أتمكن أن أشرح لها ماذا يحدث. رفعتها بين يدي وقبلتها وأكدت لها أن كل شيء سيكون على ما يرام على الرغم من أنني أنا بنفسي لم أكن أعلم إلى أين نحن ذاهبون، ولكن لم يكن ذلك مهماً طالما أننا سنغادر هذا الجحيم الذي عشنا فيه طوال الأشهر الماضية.

في المطار كانت هناك طائرة هيركليز تنتظر، وسألت مرة أخرى إلى أين نحن ذاهبون؟ وأجبت: إننا ذاهبون إلى أنكونا أولاً ومن ثم إلى لندن. في داخل الطائرة وضعوا أيرما في أحد الأركان بينما مدينة لا تزل تبكي وقد بللت ملابسها الداخلية مرتين، قضينا ساعتين في أنكونا كان خلالها الأطباء يغيرون ضمادات جروح أيرما ويكشفون عليها. أخيراً وضعوا سريرها في مؤخرة الطائرة، بدت لي طائرة صغيرة، بينما مدينة والمصور الصحفي وأنا جلسنا في المقدمة جلس المصور الصحفي أمامي، ويبدو أنه لم يكن لديه شيء يقوله لي. أخيراً قدم لي ساندويتش، وعلى الرغم من أنني لم أكن قد أكلت هذا اليوم فلم أكن أشعر بالرغبة في الأكل، بينما كانت مدينة مستمرة في بكائها وتردد باستمرار دادي أنا أريد أن أذهب إلى البيت.

(١) نشرت في جريدة عكاظ.

أخيراً قال الصحفي: إننا نطير الآن فوق لندن وكان هذا كل ما عرفته. هبطنا في لندن وحيث إنني أنا ومدينة كنا في مقدمة الطائرة هبطنا قبل الآخرين، وما إن نزلنا في أرض المطار حتى بدأت الكاميرات تضيء أنوارها في وجوهنا. دهشت طبعاً حيث لم أكن أعرف أن ذلك يحدث حقيقة، كنت أعرف أن ذلك يحدث في الأفلام فقط. أما مدينة فقد خافت أكثر مما كانت خائفة من قبل ودفنت وجهها في جسمي. كان الوقت في السابعة مساء، وكان اليوم هو ٩ أغسطس ١٩٩٣، وأخذنا جميعاً إلى سيارة إسعاف، سارت أمامنا سيارة بوليس وهي تطلق صفاراتها. وصلنا إلى المستشفى بسرعة ولو أن بدا لي أن الوقت كان يمر بطيئاً، حتى ابنتي مدينة أصيبت بالغثيان في الطريق، وتذكرت أنني لم أحضر لها ملابس. أخذنا بسرعة إلى وحدة العناية المركزة في مستشفى شارع أورموند، وأعطيت أنا ومدينة غرفة قريبة من وحدة العناية المركزة. بعد الكشف بالأشعة أخبرني الدكتور أنهم قرروا إجراء عملية في رأس ابنتي وفي ظهرها وفي معدتها. قال أيضاً: إن شظيه قد اخترقت الجهاز العصبي وأنهم يخشون من حدوث شلل، وأضاف أن أطباء سراييفو قاموا بعملهم على خير ما يرام في ظل الظروف التي يعيشونها.

في صباح اليوم التالي جاءت المترجمة وأحضرت معها عدداً من الصحف، وجدت أن قضية أيرما كانت الموضوع الرئيس في معظم الصحف، وأنها أيضاً قد ظهرت على شاشات التلفزيون.

كان كل ذلك يمر كأنه خيال، وهو الأمل نفسه الذي كان يراودني ببقائها على قيد الحياة. بعد ذلك استيقظت مدينة، قمت بإلباسها وسألتها إن كانت تحب أيرما، وعندما خرجت من غرفتي تذكرت فجأة أنني لا أعرف الطريق إلى جناح أيرما، كما أنني لا أتكلم اللغة الإنجليزية. وأسقط في يدي. فرأيت ممرضة تمر بجانبي وابتسمت لي، وكل ما استطعت أن أقوله أيرما وقمت بإعطاء بعض الإشارات بيدي، حاولت أن تتكلم وعندما لم أفهم قادتني حيث ترقد أيرما. لقد كانت ممرضة عظيمة.

في العنبر قابلت دكتور دينو جاديس الذي قدم من سراييفو نفسها. كان وجوده شيئاً كبيراً بالنسبة لي، واقترب مني طبيب أيرما قائلاً: لقد أجرينا عملية الرأس والظهر والمعدة ونعتقد أن العمليات كانت ناجحة، ولكن علينا أن ننتظر. وأضاف دكتور دينو دعنا نتمشى قليلاً لأن الهواء النقي سيكون مفيداً لك، وأضاف سوف أريك الباب الخلفي للمستشفى وهناك ستجد منتزهاً صغيراً قريباً؛ لا تستخدم المدخل الأمامي للمستشفى حيث لا يزال هنا بعض المراسلين الصحفيين. خرجنا من حيث قال، ووجدت أن الحشيش الأخضر جميل معتناً به، سبق لي أن رأيت بعض المروج الخضراء الإنجليزية على التلفزيون في سراييفو، ربما كانت تلك بعض ملاعب كرة القدم، لا أتذكر جيداً.

بعد ستة أيام من إجراء العملية كنت في المستشفى جالساً بجانب أيرما، دخلت علينا ممرضة، بادرتني بالقول: رامز لدينا الآن أطفال روضة ينتظرون في الطابق الأرضي من المستشفى. قالت ذلك ونظرت نحو مدينة، وسألتني مدينة: ما هي روضة الأطفال وأجبتها إنها غرفة

كبيرة توجد فيها كثير من الألعاب، كما يوجد سيدات يعنين بالأطفال ويعلمونهم، وصاحت مدينة من الفرح، وطلبت أن تذهب إليها. بعد أن مضى بعض الوقت عدنا إلى غرفة أيرما، قلت لها: إنني أخذت مدينة إلى غرفة الأطفال ووصفت لها جمال المكان حيث قلت لها: إنه توجد ألعاب كثيرة. لم تجب أيرما ولكنها حركت عينيها وكان ذلك قمة السعادة لي وقفزت من الفرح. بعد ذلك عندما ابتسمت أيرما لأول مرة بعد الحادث كانت مدينة أول من لاحظها، انظر يا أبي إن أيرما تبتسم، ونظرت إلى أيرما ابتسمت لي مرة أخرى. كنت فرحاً لدرجة أنني بدأت أتكلم كلاماً غير مفهوم، يبدو أن مع فرحتي قلت لمدينة: إنه حالما تشفى أيرما سوف نعود إلى بلدنا، وسوف يكون بإمكاننا أيضاً أن نرى ماما، ولكنني شعرت في اللحظة التي قلت ذلك أنني أخطأت. غالبتني العاطفة وبدأت أبكي وأدرت وجهي بعيداً لكي لا تراني مدينة وأنا على ذلك الحال.

بعد أيام قرر الأطباء أن يجعلوا تنفس أيرما عن طريق حلقها، وعندما سألتهم لماذا يلجؤون إلى هذه الطريقة. لم أكن أعلم في ذلك الوقت أن الأطباء كانوا يعملون كل جهدهم ليجعلوها تتنفس بطريقة أسهل حتى تشفى، ولكنهم لم يجيبوني على سؤالي. لا شك أنهم وجدوا أنها الطريقة الأصح في علاج ابنتي.

عندما عدت إلى غرفتي في ذلك اليوم وجدت حقيبة على سريري، كانت هي الحقيبة التي أحضرتها معي وكنت فقدتها مع السرعة التي غادرنا فيها سراييفو. فتحتها ووجدت بعض الصور،

كانت هناك بعض الصور لألفيرا والأطفال، صور لي أيضاً في أوقاتنا السعيدة. صور لنا أنا وألفيرا قبل أن نتزوج، كما كانت هناك صور لأيرما وهي طفلة صغيرة، صور لها وهي تستحم، وهي أيضاً مع أمها تبتسم وتأتي بحركات من وجهها للكاميرا، وصور أيضاً لأيرما ومدينة وهما يرتديان الملابس نفسها، وأيضاً صور لألفيرا وصور لنا نحن الأربعة في غرفة جلوسنا في بيتنا. كان قد سبب ذلك لي من الآلام ما لم أعد أستطيع معه التنفس. رأت ذلك مدينة وقفزت إلى حضني وقبلتني وقالت: لا تبك يا أبي.

في نهاية شهر أغسطس استطاعت أيرما أن تشرب بعض الحليب وأن تهمس لي ببضع كلمات، ولكنها لم تكن قد بدأت تحرك أطرافها بعد. في أول سبتمبر تلقينا في البريد إرسالية عبارة عن حزمة ملفوفة. في داخلها وجدنا لعبة أيرما المفضلة وكتبها التي كانت تقرأ فيها. جئت إلى أيرما وقلت لها: إن معي شيئاً لك. نظرت وابتسمت فقط. عندما شاهدت لعبتها المفضلة أضاء وجهها بابتسامة كبيرة، أضفت أن عندي لك أشياء أخرى وأخرجت كتبها. بدأت أستعرض الكتب أمامها هذا السنو وايت وهذا كتاب الأقزام السبعة، وهذا كتاب الجميلة النائمة، وهذا أخيراً كتاب الحمَّرة الصغيرة، طلبت مني أيرما أن أقرأ تلك الكتب لها، وعندما انتهيت من القراءة قالت: اقرأهم مرة أخرى وأخرى، إلى ذلك الحين لم أقرر أن أطلعها على الصور.

في ٣ سبتمبر اجتمعت مع المستشار الطبي الرئيسي لأيرما. كان المترجم موجوداً وبدأ الأستشاري كلامه قائلاً: كما تعرف يا سيد

حاجي موراتوفيتش كنا نأمل أن يتحسن وضع أيرما، وكما تعرف منذ شهر وهي هنا ونحن نظن أننا متأكدون من أن ابنتك سوف تكون مشلولة من رقبتها إلى باقي جسمها طيلة حياتها. كان المترجم يتكلم بسرعة أما أنا لم أنطق بكلمة، وقال الاستشاري أيضاً شيئاً آخر نقله المترجم بهدوء أكثر من المرة السابقة: إن أيرما لن تتمكن من التنفس بمفردها على الإطلاق.

طبعاً لم أجب بشيء كانت الدموع تنساب من عيني وكان الدكتور والمترجم يحاولان تعزيتي. ذهبت إلى الحمام وأخذت أرش بعض الماء البارد على وجهي، لكنني استمريت في رش الماء البارد على وجهي، وكأن تلك العملية ستذهب الحزن والألم عني. كنت آمل على الأقل أن أيرما حتى لو كانت مشلولة من نصفها الأسفل فسوف أستطيع أنا ومدينة أن نعتني بها. نستطيع أن نعيش معاً لو كانت على تلك الحال. ولكن الآن كان علي أن أتقبل حقائق أخرى جديدة، من تلك الحقائق أن أيرما يجب أن تبقى في المستشفى إلى الأبد. وأدركت في تلك اللحظة أن الحياة والموت بعيدان جداً عن بعضهما ولكنهما في الوقت نفسه قريبان جداً، وأن ابنتي العزيزة أيرما انتهى بها الحال إلى أن تكون على آخر درجة من درجات سلم الحياة.

زرتها في صباح اليوم التالي وقرأت لها حكايات من الكتب التي وصلتها وكنت أمزح معها. بدت وكأنها قانعة وراضية بما هي فيه. أخذت يدها وضغطت عليها، كنت أفكر أنها لن تستطيع أبداً أن تستخدم يديها. عندما خطر لي ذلك الخاطر امتلأت عيناي فجأة

بالدموع، لاحظت خلال ذلك أن ممرضة كانت تقف خارج الباب، وأعتقد أنها كانت في تلك اللحظة تقرأ أفكاري لأنها اقتربت مني ووضعت يدها على كتفي. لاشك أن اللمسات الأنسانية والعوطف الإنسانية هي نفسها في كل مكان في العالم وكذلك الشعور الإنساني وخاصة الشعور الإنساني.

قد لا أكون محايداً عندما أصف ابنتي ولكنني أستطيع أن أقول: إن أيرما كانت قريبة من قلوب الناس، وإن لديها بعض القوة الجاذبة المحببة التي تقربها من الناس كلهم، وعلى الرغم من أنها كما قالوا الآن مشلولة من رقبتها فما دون: فإن أيرما كان بإمكانها أن تتكلم ولو بعيونها. كانت نظراتها توحي بالعفرته أو الشيطنة كما يمكن أن نطلق عليها. قبل أن يدرك المشرفون عليها ماذا عملت بهم كانت قد لفتهم جميعاً حول أصبعها تماماً كما عملت معي من قبل. لم تكن أيرما أبداً إنسانة وضيعة، كانت الطيبة تملأ عينيها؛ ولهذا كما أعتقد أحبها كل المشرفين عليها وكل ممرضاتها؛ لأنها كانت تعرف كيف تتحدث معهم وعنهم، كما أن أيرما نفسها أحبتهم ووثقت بهم، وكانوا جميعاً يمثلون لها الأم التي فقدتها. كانوا يعنون بها ويرعونها ويبدلون ملابسها ويطعمونها ويعلمونها اللغة الإنجليزية. في البداية كانوا يعرضون عليها الصور وينطقون الكلمات الإنجليزية، كانت في البداية تقول: «دا و ني، ولكنها سرعان ما استبدلتهما بـ YES / No وهي تعني نعم ولا».

في ١٥ سبتمبر اكتشف الأطباء أن هناك بكتيريا غريبة نادرة في جسم أيرما، لاحظوا أن ركبتها اليمني بدأت تتورم. وأن سائلاً قد بدأ

يتكون في رأسها، وقرر الأطباء أن عليهم أن يجروا لها عمليتين أخرتين، كما أن أمعاءها لم تكن تعمل، قرروا أن يعملوا عميلة أخرى في معدتها، وبينما كانت أيرما ممدة على طاولة العمليات أخذت مدينة لنزهة في المنتزه القريب من المستشفى. كان الطقس خريفياً والأوراق بدأت تتساقط من الأشجار وتأخذ اللون البني، وبدأ الجو الطبيعي عموماً جميلاً، كان الحشيش رطباً نوعاً ما وكأن شخصاً قد رشه بالماء، كانت السماء ملبدة بغيوم بأشكال وأحجام مختلفة. عموماً فقد أحببت الجو الإنجليزي. وسرعان ما أتى أكتوبر وكان قد بقي على عيد ميلاد أيرما أربعة أيام فقط، تذكرت اليوم الذي ولدت فيه، وكان ذلك أسعد يوماً في حياتي. تذكرت ألڤيرا على سريرها في المستشفى وكيف اكتسى وجهها ذلك الشكل الباهت قليلاً ولكنه كان أجمل شيء لدي. إن النساء عموماً يبدين أكثر جمالاً عندما يصبحن أمهات، وعندها تبرق عيونهن أكثر ويبدين وكأنهن قديسات، والآن أجلس هنا مع ابنتي وهي على سريرها وتستطيع فقط أن تتكلم بعض كلمات وبصعوبة. كنت حزيناً لدرجة أنه لم يكن هناك مجال للاحتفال بعيد ميلاد ابنتي، ولكنني على الرغم من ذلك قررت أن أي شكل من الاحتفال بعيد ميلاد أيرما سيكون له أثر طيب عليها، وفعلاً كان ذلك ما حصل. حضر الاحتفال صديقان؛ لأنني لم أكن أعرف أناساً كثيرين في لندن، وبطبيعة الحال كان هناك بعض المسؤولين والأطباء من المستشفى نفسه. لاحظت أن الشيء الوحيد الذي كان يتحسن في حالة أيرما هو ذاكرتها، فقد بدأت تتذكر كل شيء في حياتها، خاصة

اليوم الذي أصيبت فيه مع والدتها. بعد ذلك لم تذكر شيئاً. لقد كنت أدرك أنه كان عليَّ أن أخبر ابنتيَّ بمصير والدتهما، ولكنني لم أجرؤ أن أقوم بذلك بنفسي، وقررت أن أتكلم مع اثنين من علماء النفس، قلت لهما: إن ذاكرة أيرما بدأت تعود لها، وإنها تتذكر الآن تقريباً كل شيء إلى وقت حدوث الانفجار، وأضفت: إنها مسألة أيام قبل أن تدرك هي بنفسها حقيقة ما حدث لأمها. فماذا علي أن أقوله أنا لها؟ وأجابوني بسؤال آخر: وماذا عن مدينة؟ وأجبت مدينة لا تزال صغيرة، ولكن ربما تستطيع هي الأخرى أن تقول شيئاً. دعوني أضع المسألة كما يلي: إن أيرما تتكلم عن ذلك اليوم، تتذكر الانفجار وتتذكر أن جسمها كان مغطى بالدم، وتتذكر أيضاً أنها أخذت للمستشفى، وأن الطبيب أعطاها قطعة شوكولاته. وكان جوابهم أنه علي أن أهيئ البنتين لإخبارهما بالحقيقة. وأجبت أعرف ذلك وأوافق عليه كلياً ولكنني لا أستطيع القيام به، ولو كانت أمهم حية لكانت هي عرفت ماذا ستفعل وغلبني البكاء فبكيت. ولكن هناك شيئاً لا أستطيع تفسيره ولا أدري كيف ستفسرونه أنتم.

في اليوم التالي وفي أثناء زيارتي أنا ومدينة لأيرما التفتت أيرما نحوي فجأة وقالت: «لقد ماتت أمي. ثم استمرت في لعبها». عندما قلت ذلك للطبيبين النفسيين لم أجد لديهما أي جواب. وفي ذات مساء بينما كنت مسترخياً على سريري أفكر، جاء نقر على الباب، كانت إحدى الممرضات التي قالت رامز: إن أيرما تبكي. وذهبت ورحت وراءها مسرعاً إلى غرفة أيرما لأعرف سبب بكائها، فاجأتني أيرما

بقولها: إن رأسي ومعدتي تؤلماني، قالت ذلك من خلال إجهاشها بالبكاء، لم يكن بإمكاني أن أعمل شيئاً سوى أن أربت على رأسها وأهدهدها إلى أن استسلمت للنوم. عندما استيقظت في اليوم الثاني ورأتني بجانبها ابتسمت لي. قرأت لها القصص التي كانت تحبها وكانت سعيدة، عند ذلك وجدت أنه قد حان الوقت لأتكلم معها. بادرتها بالسؤال: هل تتذكرين يا أيرما ماذا حدث لك؟ وأجابت: لقد ألبستني أمي وجاءت معنا خالتي بيرا ذهبنا إلى الصليب الأحمر، كانت أمي تمسك بيد مدينة بينما تمسك خالتي بيرا بيدي، وعندما وصلنا إلى الحديقة وهناك توقفت عن الكلام. وسألت ماذا حدث بعد ذلك ولكنها بقيت صامتة وأدركت أنها كانت تحاول جاهدة أن تتذكر. بعد ذلك سألتني هي نفسها: ماذا حدث بعد ذلك يا أبي؟. وقررت وقتها أنه ربما كان الوقت مناسباً أن أخبرها ببعض الحقائق. قلت: لقد انفجرت قنبلة خلفكم وجرحت أمك وخالتك بيرا وجرحتك أنت أيضاً، وأضفت أن أمك ليست على ما يرام على الإطلاق. أدركت عندها أنها ربما كانت تعرف الحقيقة. ولكنها لم تزد عن أن نظرت إليّ ولم تقل شيئاً. عند ذلك اقترحت أن نشاهد معاً بعض الصور التي جاءتنا من سراييفو. وافقت وأعجبتها واحدة من الصور التي تظهر فيها مع بابا نويل الرجل ذي الذقن البيضاء الطويلة، الذي يلبس ذلك اللباس وتلك الذقن والهيئة التي يظهر فيها للأطفال قبل أعياد الميلاد المسيحية، كما كانت هناك صورة لها وهي بالحمام وبجانبها أمها، وكلاهما كانتا تنظران إلى الكاميرا وتبتسمان. قلت لها عند

ذلك: إننا سنشتري ألبوماً للصور ونضع فيها تلك الصور، ويمكنك بعد ذلك أن تشاهديها وقتما تشائين. كانت سعيدة، وغنت بعض أغنيات الأطفال. كانت واحدة منهما مما تعلمته في سراييفو في أثناء الحرب. وسألتها: ماذا تحبين أن تسمعين؟ وقالت: من هؤلاء الذين يغنون هنا. وقلت: إنهم أبطال الحرب. وكانت الأغنية التي غنتها عن الحرب في سراييفو تقول: ماذا تسمعون.. من الذي يغني هناك...؟ إنهم الأبطال يا حبيبتي يا أمي إنهم المدافعون عن سراييفو. كانت تلك الأغنية.

وفي اليوم التالي قرأت أنا وأيرما كتبها وشاهدنا الصور مرة أخرى، وطلبت مني أيرما أن أريها صورة أمها مرة أخرى. وكانت تطلب دائماً باستمرار صورة أمها مرات ومرات.

اليوم عندما دخلت إلى الغرفة كانت تبكي. سألتها ما الأمر يا أيرما؟ وأجابت: إنني حزينة، قلت: لماذا أنت حزينة؟ أجابت لأنه لا يوجد أحد هنا، وعدت أسأل ماذا تعني لا يوجد أحد هنا؟ أجابت حسناً: جين ليست هنا، وليسا ليست هنا، وكاثي ليست هنا، وكاثي الأخرى أيضاً ليست هنا، وبيلي ليست هنا، وحتى كاترين ليست هنا. كانت بذلك تذكر أسماء كل ممرضاتها، وفعلاً في ذلك الصباح لم تكن أي من أولئك الممرضات موجودة. ولكن يا أيرما إن أولئك الممرضات تعبات، إنهن يعملن بجهد كبير ويجب أن يسترحن قليلاً.

كانت هناك مجموعة أخرى من الممرضات كن أحسن ما وجدته أيرما في إنجلترا، أتمنى لو كان باستطاعة القارئ أن يرى أولئك

المرضات وهن عندما تطلب أيرما شيئاً أو عندما يرينها وهي تبكي كان المكان ينقلب إلى طوارئ في العنبر. ولمساعدتها على بعض الحركة جلبوا كرسياً طبياً يساعد أيرما على الإتيان ببعض الحركات، كان الأمر يحتاج إلى أربعة أشخاص لوضعها في ذلك الكرسي. كانت تبكي في بعض الأحيان ولكن كانت ترشدهم كيف يمسكون بها أو كيف يرفعونها ويضعونها في الكرسي، كانت تصر في بعض الأحيان أن يقوم بذلك العمل المرضات اللائي يعنين بها، وكان أولئك المرضات أنفسهن يأخذن أيرما إلى رحلة للتسويق وإلى المدرسة. تلك الأشياء لم تكن معروفة للعالم الخارجي ولكنها كانت مهمة بالنسبة لي وبالنسبة لأيرما. ولاحظت بعض الأحيان أن أيرما كانت تثق في ممرضاتها أكثر مما تثق بي أنا نفسي. كنت أسأل أحياناً: هل تريدين أن أحرك مخدتك؟ وكانت تجيب: لا. ادع كاثي فقط؛ لأنها تعرف كيف تحركها أحسن منك. لم يكن باستطاعة أيرما أن تتحكم بحركات رأسها، ولذا فقد كانت تحتاج أحياناً إلى المختص بذلك الشأن. كانت تطلب مني أحياناً وبسرعة «دادي ادع ليسا بسرعة لأني لا أستطيع التنفس». كان ذلك يحزنني ولكني كنت أسرع بالنداء على ليسا التي كانت تحضر بسرعة وتساعد أيرما على التنفس بتحريك وتغيير بعض الأنابيب.

مضت أربعة أشهر منذ قدومنا إلى لندن وفي تلك الأثناء نقلت أنا ومدينة إلى شقة قريبة من المستشفى وكنا نزور أيرما كل يوم.

في ديسمبر تلقينا كثيراً من الكروت والتهنئة وأيضاً كثيراً من الهدايا. كنت شرحت للمرضات بأننا لا نحتفل بعيد الميلاد ولكننا نحتفل برأس السنة ونفتح هدايانا في ذلك الوقت. قمنا جميعاً بعمل الزينات اللازمة في غرفة أيرما، وقمت أنا بكتابة أغنيتها المفضلة بمناسبة رأس السنة على قطعة من الورق وألصقتها على الجدار. كانت تلك الأغنية تقول: «جاء الثلج.. جاء الثلج... وحط الجليد على الشبابيك.. السنة الجديدة قادمة وعلى السنة القديمة الرحيل». وحاولت الممرضات أن يتعلمن تلك الأغنية بلغتنا، وأسعد ذلك أيرما ولو أنها رأت أن نطقهن لكلماتها كان مضحكاً. كانت تطلب منهن مرات ومرات أن يغنينها وكانت تضحك لذلك، وعلى ذلك كانت السنة الجديدة مناسبة سعيدة لنا جميعاً.

في يناير حاولت أن أجد مدرسة لألحق بها مدينة، وجدت واحدة قريبة من المستشفى، وكانت كل مرة عندما تعود من المدرسة تخبر أيرما ماذا حصل وماذا فعلت. وفي عام ١٩٩٤ زرت مستشفى تشيلي هارتج للأطفال، وكانت هناك مدرسة أيضاً ملحقة بالمستشفى، كان ذلك في شرق ساسكس، وكانت الزيارات دائماً بصحبة أيرما والممرضات، كانت مهمتنا الرئيسة هي أن نعلم أيرما كيف تستخدم كرسيها. أصبحت على درجة من المقدرة بحيث إنها أصبحت تستطيع أن تديره بنفسها دون مساعدة أحد. وكانت سعيدة بالذهاب والعودة إلى المستشفى، ولكنها حيث إنها لم تكن قد تعودت على الحركة بسرعة كانت تحدث أحياناً بعض الحوادث البسيطة، وإنما كانت تنظر لها بمرح. ولقد أخذنا لها بعض الصور وكانت مبتسمة في معظمها.

في واحدة من زيارتنا ذهبنا إلى مدينة قريبة وسرنا في الشوارع ننظر في واجهات المحلات التجارية واشترينا بعض الأشياء. كانت أيرما هادئة وأيضاً كانت سعيدة وتمتعت بكل لحظة في أثناء تلك الزيارة، وظننت أنها في ذلك الوقت أنها تعيش مثل أي فتاة عادية. بعد ذلك بدأت أيرما تذهب إلى المدرسة وأيضاً كان يزورها بعض الأشخاص المختصين في مثل حالتها، كما كانت أيضاً بين فترة وأخرى تذهب إلى المتنزهات القريبة وإلى الأسواق. في مناسبة أخرى رحنا إلى حديقة حيوانات لندن وتمشينا واشترينا بعض الأشياء، قابلت بعض اختصاصيي علم النفس وأجمعوا كلهم على أن البنات يجب أن يعرفن الحقيقة عن أمهما. كنت أعتقد أنني لن أستطيع أن أتحدث في موضوع فقدان والدة الطفلتين، ولكن في النهاية كان لابد مما ليس منه بد.

بدأت المحادثة بالكلام عن اليوم الذي حدث فيه الانفجار كانت أيرما تنظر إلي صامتة لدرجة أنني أعتقد حتى إنها لم تكن تتنفس. أين أمي الآن؟ هكذا سألتني. وأجبتها: إن أمك في التراب في سراييفو. شعرت أن العرق بدأ يتكون على جبهتي وعلى وجهي ولكن أيرما لم تبك بقيت تنظر إلي فقط. أخذت بعد ذلك أطلعها على بعض الصور وكانت إحداها من المقبرة. ثم سألتني هل بإمكاننا أن نزور قبرها؟ وأجبت: نعم، عندما تصبحين أحسن. كنت أفكر فقط في الهروب من الغرفة التي جمعتني مع ابنتي في تلك اللحظة، خاصة أيرما في نظراتها المستمرة على وجهي، لم تقل شيئاً على الإطلاق ولم تبك فقد كانت تنظر إلي.

مكثت أنا فترة أهدئ من روع نفسي، وأخيراً شعرت أنني ربما تخلصت من حمل ثقيل بإخباري البنتين عن حقيقة موت أمهما. كانت المسألة أسهل كثيراً بالنسبة لمدينة؛ لأنها كانت صغيرة ولا أعتقد أنها فهمت ما حكيت، كل ما قالته هو سنذهب عندما تصبح أيرما أحسن إلى سراييفو، وسوف نرى أمي سوف تخرج لنا من الأرض وسنعود سوياً كما كنا.

احتفلنا بعيد ميلاد أيرما السابع في شهر أكتوبر، وكان ذلك أيضاً العيد الثاني لها في المستشفى، حضر أصدقائي وبعض الممرضات من المستشفى وغنينا لها أغنية عيد الميلاد، أحضرت الممرضات كعكة كبيرة وكانت هناك طفلتان أخرتان معنا، وساعد الجميع في إطفاء الشمعات. أخذ الأطفال ينفخون لإطفاء الشمعات، ولكن ما لم نكن نعرفه هو أن تلك الشمعات من النوع الذي يشتعل مرة أخرى عند انطفائه، ولكن أخيراً استطاع الأطفال أن يطفئوا الشمعات وبدأنا نتقاسم كعكة عيد الميلاد ثم نفتح هدايا أيرما.

من عيد ميلاد أيرما من شهر أكتوبر إلى بداية السنة الجديدة لم يكن هناك تغيير يذكر في حالتها، إلا أنني لاحظت أنها أميل إلى الهدوء وأحياناً إلى الكآبة. حاولت أن أقترب منها أو أن أساعدها في شيء، ولكنها كانت ترفض ذلك، وكانت أحياناً ترفض الحديث مع أي شخص.

وفي يناير من عام ١٩٩٥م بدأت تعود إليها آلام معدتها، اضطر الأطباء إلى إدخال أنابيب في المعدة لإخراج المياه التي بدأت تتكون بها

حيث أصبحت المعدة كبيرة وقاسية، وكانت تألمها بصفة دائمة، بالإضافة إلى ذلك أيضاً ضاعفوا من كمية الأدوية التي تأخذها، ومع إعطائها تلك الأدوية المتعددة فقدت أيرما شعرها الطويل الجميل، كان شعرها طويلاً وغزيراً لكن لم يعد لها شعر بعد مضاعفة الأدوية التي تأخذها. كل ما في الأمر أن هناك إحدى الممرضات كانت تغسل لها رأسها وتغطيه بمنديل.

في أول يوم من شهر مارس أتيت كالعادة لزيارة أيرما، وقبل أن أدخل إلى غرفتها قابلتني الممرضة كاثي وطلبت أن تتحدث إلي، وعندما جلست إليها سألتني عن حالي وأجبتها الحمد لله ولكني لم أزد على ذلك. بدأت ممرضتها شرحاً لي أن معدة أيرما لم تستجب للعلاج وسكتت. وعلى الرغم من أن كلينا لم يقل شيئاً إلا أن وجه الممرضة كان يقول: إن النهاية قد اقتربت. قلت لها: إنكن جميعاً كنتن أمهات لأيرما. ذلك كل ما استطعت أن أقوله. أخذت الممرضة كاثي تبكي وبكيت معها. عندما هدأنا ذهبت إلى غرفة أيرما، كانت متعبة جداً وكانت عيناها مقفلتان ولكنها طلبت مني أن أمسك بيدها.

في يوم الجمعة وكان ذلك ٣١ مارس ذهبت إلى المستشفى كانت أيرما نائمة طوال الوقت، وأعتقد أن ذلك كان بتأثير الأدوية المسكنة للآلام التي تأخذها. فتحت عينيها قليلاً طلبت مني، أبي هل يمكن أن تحضر مدينة أريد أن أراها.. أجبتها: نعم، سوف أحضرها لك بعد رجوعها من المدرسة.. راحت في إغماءة أخرى. بعد ذلك أخذت

مدينة وأسرعت إلى المستشفى، لم أكن أنوي أن آخذ مدينة في ذلك اليوم لرؤية أيرما؛ لأن لديها موعداً مع صديقة لها في مثل سنها في المدرسة كانت ستزورها. وعندما وصلنا إلى المستشفى دخلنا إلى غرفة أيرما وابتسمت عندما رأت أختها التي حضنتها وقبلتها قبلة طويلة، بقيت الاثنتان ينظران إلى بعضهما دون أن تقولا شيئاً. قربت كرسياً إلى جانب السرير وجلست أنا ومدينة بجانب أيرما. بعد الزيارة عدت وأخذت مدينة إلى صديقتها وعدت إلى المستشفى مرة أخرى. جلست وأخذت بيد أيرما بين يديَّ، كانت تفتح عينيها بين آونة وأخرى ثم تقفلهما.

كانت الساعة العاشرة مساء عندما قلت للممرضة كاثي: إنني ذاهب إلى البيت، وعدت إلى شقتي الخالية، لم أكن أشعر بالتعب، كنت أدرك فقط أن أيرما لن تعيش مدة طويلة، ولكني لم أكن أعرف تماماً كم ستعيش، كنت سعيداً لأنها طلبت أن ترى أختها. ابنتيَّ كلتاهما ليس لهما في الدنيا إلا بعضهما، ولم أكن لأسامح نفسي لو لم أسرع وأحضر مدينة لترى أختها وتجلس معها بعض الوقت تحقيقاً لرغبة الأخت المريضة.

في الساعة الثانية صباحاً دق جرس التلفون. قفزت وأخذت السماعة كنت أعرف.. فعلاً جاءني صوت ممرضة أيرما على الطرف الآخر من الهاتف.. رامز أخشى أن لدي أخباراً سيئة، لقد ماتت أيرما.. إنني آسفة وأخذت تبكي. على الرغم من أنني كنت أتوقع ذلك

إلا أنني لم أجب بشيء في البداية، ثم بعد ذلك استطعت أن أقول: إنني قادم إليكم، ولكن جاءني صوت الممرضة مسرعاً لقد أرسلنا لك سيارة أجرة وسوف تكون عندك عما قريب. عندما وصلت إلى المستشفى وجدت ممرضتين كلتا الممرضتين اسمهما كاثي، كاثي بي وكاثي آر، وقابلاني عند أول الدرج، كانت الممرضتان تبكيان، واحتضناني ولكن لم يقل أحد شيئاً، ذهبنا إلى غرفة أيرما وكانت مسجاة على سريرها. بدت لي وكأنها نائمة، لقد تخلصت أخيراً من عذابها ومعاناتها. كانت كاثي قد ألبستها أجمل فساتينها، وقد بدت لي في تلك اللحظة صغيرة جداً، قبلتها ودعوت لها. قضيت تلك الليلة واليوم التالي معها. سألتني الممرضات إن كنت أود أن أحضر مدينة لترى أختها، لكنني لم أعتقد أن ذلك كان من الحكمة. أردت أن يكون آخر ذكرى لمدينة عن أختها أنها كانت حية تعيش، ثم إنه ليس من العادات في بلدنا أن يرى الأطفال ذويهم عندما يموتون.

لم أكن متأكداً من الوقت الذي سيستغرقه دفن أيرما، وكل همي أن نقوم بمراسم الدفن حسب الطقوس والعادات في البوسنة. كنت شبه ضائع ومنزعج، ولست متأكداً الآن أنني قمت بواجب الشكر لكل من ساعدوا في حالة أيرما. لقد هيأ السيد يوسف إسلام الذي كان يعرف باسم كات ستيفن كل شيء للجنازة. كان علي أن أدفنها في لندن؛ لأنه لم يكن من الحكمة أن نعود بها تحت هذه الظروف إلى سراييفو لدفنها؛ لأن الوضع هناك خطر. كان علي أن أفكر الآن في مدينة وسلامتها، لم يبق لدي الآن إلا مدينة.

لتحضير الجنازة كان علينا أن نحضر بعض ألواح الخشب ذات أطوال معينة. نحن في العادة نضع تلك الألواح في طرق وزوايا معينة حول النعش لكي لا يتسرب التراب مباشرة إلى داخل اللحد. ذهب صديقي مونجو لشرائها من الدكاكين التي تبيع مثل تلك الألواح. شرح لهم هناك ما نحتاجه وأجاب الرجل الذي سيشتري منه أنه لا يستطيع أن يمده بالألواح المطلوبة؛ لأن آلة القطع كانت تالفة. ولكن عندما أخبره صديقي لماذا يريد تلك الألواح، قام الرجل بسرعة واستخدم منشاراً يدوياً وقطع له من الألواح ما يزيد عن الحاجة، وعندما انتهى وسلمها له رفض أيضاً أن يأخذ ثمنها. لا أذكر اسم الدكان الآن ولكني سوف أدين بالعرفان دائماً لصاحبه ولن أنساه. اقترح علينا أن ندفن أيرما في «بلهم» ولكن قررنا في الأخير أن يكون الدفن في منطقة في شمال لندن. اجتمعنا كلنا في المسجد الإسلامي في منتزه ريجنت، كان هناك ممرضات أيرما ولاحظت أنهن لم ينسين أن يغطين رؤوسهن بمناديل احتراماً لعاداتنا الإسلامية والمناسبة الحزينة، لقد أثّر ذلك فيَّ. شيء صغير مثل هذا. ولكن عندما يلاحظ الناس الأشياء الصغيرة هذه ويراعون فيها شعور الآخرين يكون ذلك شيئاً عظيماً في الواقع.

بعد الدفن جلست إلى قبر أيرما وبكيت، من المنطقي أن يدفن الأبناء آباءهم وليس العكس. كنت أتمنى أن أكون أنا الميت وليس هي، ولكن أعتقد أن ذلك مقدر لي ولها، وآمل أن أستطيع أن أنقل رفاتها يوماً ما إلى سراييفو وأدفنها بجانب والدتها.

لا نعرف ماذا كان سيحصل لو لم تكن أيرما وأمها في ذلك الوقت في ذلك اليوم في تلك الساعة في المنتزه الذي سقطت فيه القنبلة التي قتلت زوجتي أيضاً وأتت على ابنتي الآن. لو لم تقتل ألفيرا ولو لم تجرح أيرما ثم تموت، لو كانت أيرما نقلت للمستشفى خارج سراييفو قبل الوقت الذي نقلت فيه كل ذلك لم يحصل، ولكن ما حصل، هو الذي فعلاً حصل، ومقابل كل أيرما هناك آلاف من الأطفال يقتلون بلا سبب، ومعظمهم لم تتح لهم حتى الفرصة مثل أيرما أن تؤخذ خارج سراييفو وتعالج في مستشفى في لندن، وطبقاً للإحصائيات الرسمية هناك سبعة عشر ألف إنسان قتلوا في البوسنة دون أن يشمل ذلك العدد الآلاف الآخرين الذين جرحوا أو شوهوا أو أصبحوا مقعدين من آثار تلك الحرب، وكل هؤلاء سوف يحملون معهم علامات الحرب التي كان من الممكن جداً أن تتجنب وأن تمنع، ولكنه للأسف لم يحصل. لم يهتم العالم بإيقاف تلك الحرب، كانوا يرسلون الطعام فقط، كانوا لا يهتمون إذا قتل أطفال سراييفو جوعى أو بعد أن يملؤوا معداتهم بالطعام، إن هؤلاء ليسوا أطفالهم، بل هم أطفال سراييفو، ولكن لم يعرفوا أن ما يحتاجه أطفال سراييفو ليس الطعام ولكنه السلام، كانوا يودون أن يتوقف إطلاق القنابل عليهم، الأطفال يحتاجون المدارس ويحتاجون المنتزهات ويحتاجون الألعاب ويحتاجون حدائق حيوانات يزورونها، يحتاجون أن يناموا بهناء وسلام. هناك جيل كامل من أطفال البوسنة لن يعرفوا النوم الهانئ بعد الآن أبداً. كل هؤلاء عبروا بسرعة، عبروا من الطفولة إلى هموم الشيخوخة وهموم الكبر دون أن يمروا بمرحلة الصغر.

لست سياسياً ولا أحسن الكلام كسياسي، ولكنني أعرف أن الأمم المتحدة والدول التي تمثلها لم يكن لها أن تتعامل مع الحكومات الشرعية ومع الكيانات العسكرية غير الشرعية بالطريقة نفسها. يجب أن لا يسمح العالم مرة أخرى بتكرار مأساة سراييفو البوسنة في أي مكان. يجب أن يكون هذا هو الدرس الذي قدمته البوسنة للإنسانية. أما بالنسبة لي شخصياً وبالرغم من كل المآسي التي مرت بي وكل العذاب والمعاناة فإنني غير قادر على الكراهية، ولكنني لن أنسى. ولا أتمنى لأعدى أعدائي أن يبتلى بمثل ما ابتليت به. لم يبق من عائلتنا كلها إلا مدينة وأنا. ونحن نعيش الآن حياة طبيعيه. بلغت ابنتي الآن الخامسة والنصف من عمرها والتحقت بمدرسة، وأصبحت تتقن الإنجليزية أحسن من إتقانها للغة البوسنية؛ إنها كل شيء بقي لي ومن أجلها سأستمر في خوض غمار الحياة ■

الكابوس المرعب... على أرض الواقع[1]

كتبها: فل ريفز، صحيفة الإندبندنت ١٦ أبريل ٢٠٠٢م

تحت عنوان (الدلائل الصارخة لجرائم الحرب تتضح من بين الدمار الكامل لمدينة جنين الفلسطينية) كتب فل ريفز، لفلسطين المحتلة والتي اجتاحها الجيش الصهيوني الغازي، تقريراً رأيت أن أترجمه لقراء العربية، كون المراسل ينتمي إلى الشعب الذي خطط ساستهم ونفذت جيوشهم على أحسن وجه جريمة اغتصاب فلسطين من قبل صهاينة العصر الحديث الذين لا زالوا يلقون كل العون والمساعدة والتأييد المقنَّع وغير المقنَّع، والذي لا يزيد عليه بوقاحته هذه الأيام إلا التأكيد والدعم الأمريكي حتى تبقى ذكرى المذابح الرهيبة التي اقترفها الغزاة الصهاينة منذ بداية تأسيس إسرائيل وحتى يومنا هذا في عقول وقلوب ووجدان أبناء هذا الشعب العربي؛ لعله يخرج من صلب واحد من مئات الملايين العرب الأحياء الأموات في مستقبل الأيام من يطلق الشرارة التي طال انتظارها، الشرارة التي تعيد لهم وعيهم وتوقظهم من سباتهم الذي طال، وتبعث في أوصالهم الميتة نبض الحياة من جديد. لعلهم يثأرون لكرامتهم المهدورة، وينفضون عن أنفسهم غبار الذل والعار الذي غطى على كل ملامحهم فلم يعودوا يعرفون هم أنفسهم أهم بشر يتنفسون الهواء ويأكلون الطعام أم أنهم مجرد أعجاز نخل خاوية تشبه البشر، وإلى المقال الذي نشر في ١٦ إبريل ٢٠٠٢م.

---

(١) نشرت في جريدة الجزيرة في ١٢ / ٢ / ١٤٢٣هـ، الموافق: ٢٥ / ٤ / ٢٠٠٢م.

إن الجريمة الشنيعة التي ارتكبتها إسرائيل وحاولت أن تخفيها عن العالم لمدة أسبوعين قد انكشفت أخيراً، إن القوات الإسرائيلية التي مسحت من الوجود وسط وجميع مباني وشوارع جنين حاولت لمدة أسبوعين منع الصحفيين من الوصول إلى المنطقة المنكوبة التي استطاع مندوب جريدة «الإندبندنت» أخيراً أن يصلها أمس حيث لا يزال الآلاف من سكانها يعيشون وسط الركام.

إن مساحة ما يزيد على مئة وستين ألف ياردة من المناطق السكنية قد سويت نهائياً بالأرض. وقد قامت القوات الإسرائيلية بتجريف المناطق المهدمة بالجرفات حيث بلغ ارتفاع أكوام الردم ما يزيد عن ثلاثين قدماً. كما أن روائح اللحم العفن تزكم الأنوف؛ مما يدل دلالة قاطعة أن تلك الأكوام من الردم كانت لإخفاء مئات الجثث من السكان الذين ذبحوا دون تمييز بين طفل وامرأة، ودفنوا في هذه القبور الجماعية على شكل تلال صغيرة كومت على عجل بالجرفات الإسرائيلية، إن السكان الذين لجؤوا إلى المخابئ وبقوا أحياء على الرغم من الحصار الشديد عليهم وبقاءهم أيام عديدة دون طعام أو شراب أكدوا لنا أن هناك المئات من الذين دفنوا أحياء تحت أنقاض بيوتهم التي داهمتها دبابات ومجنزرات الجيش الإسرائيلي والذين دفنوا بجرفهم مع أنقاض بيوتهم ثم هرسهم بالدبابات والمجنزرات ليتساووا مع الأرض. شاهدنا مبنى قريب تهدَّم نصفه، شاهدنا جثة رجل عارية إلا من بعض خرق جعلت فوقه وقد انتفخت الجثة وغطاها الذباب. وفي مبنى آخر شاهدنا بقايا رفات أشرف أبو هاجر

البالغ من العمر ثلاثة وعشرون عاماً وقد انهارت الغرفة فوقه بعد أن حولتها نيران المدافع الإسرائيلية إلى أحجار إسمنت محروق. لقد انكمش رأس الجثة وصار أسود كما رأينا في منزل آخر جثث خمسة رجال بدا أنه مضى على مصرعهم عدة أيام. وقد حاول بعض الأحياء ستر ما تبقى من جثثهم بإلقاء بعض البطانيات عليها. قادنا شاب حزين زائغ النظرات اسمه كمال أنيس عبر أرض أصبحت خواء تناثرت فيها بقايا ما كان منذ أيام قليلة أثاث ومحتويات منازل تنبض بالحياة، قطع إسفنج، ملابس ممزقة، أحذية، علب معدنية ولعب أطفال وغيرها، وفجأة توقف كمال وأشار بيده إلى مكان ظهرت فيه بوضوح آثار الجرفات وقال: إن هذا قبر جماعي، وأشار إلى كومة ركام اختلطت فيها بقايا أثاث محطم وملابس ممزقة، وقال: إن الإسرائيليين دفنوا هنا في النصف الذي كان قد تهدم من هذا المنزل ثلاثين جثة ثم هدموا النصف القائم وكوموه فوق الحطام السابق والجثث التي دفنت تحته. فعلوا كل ذلك ثم مروا بالدبابات فوق الركام لتسويته بالأرض. لم نر الجثث المدفونة لكننا كنا نشم رائحة الموت بوضوح. ربما لم نكن نصدق ما قاله كمال أنيس لو تحدثنا إليه قبل بضعة أيام. ولكن الوصف والحكايات التي سمعناها من لاجئين آخرين هربوا من جحيم النار التي كانت تصبها الدبابات والمدافع الإسرائيلية عليهم في جنين كانت أقل بكثير مما حدث بالفعل، وليست مبالغات وكذباً كما كنا نعتقد قبلاً، وكما أرادت الدعاية الإسرائيلية لنا أن نعتقد. لم تهيبني كل الحكايات التي سمعتها من اللاجئين لما رأيته

بالأمس. لكنني بعد أن شاهدت بعيني ما حدث فإنني أصدقهم الآن، قبل أسبوعين فقط كان هناك حي اسمه حارة الهواشم. كان حياً يحوي بعض مئات من المنازل تعج بالحياة بسكانها الساعين وراء رزقهم، لقد اختفى هذا الحي بأكمله من الوجود، شاهدنا في وسط المنطقة المدمرة عدة مئات من المنازل في حالات متفاوتة من التدمير، إن معظم ما بقي من المباني القائمة التي تعرضت جميعها للهدم والدمار، والتي يقطنها ما لا يقل عن خمسة عشر ألف فلسطيني من لاجئي ١٩٤٨، معظمها بدأ ينهار كلياً، إن كل جدار لا يزال قائماً تغطيه الندوب والشقوق والفتحات من أثر زخات الرصاص وطلقات المدافع وشلالات القنابل التي كانت تنطلق عشوائياً من طائرات الأباتشي والكوبرا الأمريكية التي كانت تحلق على مدار الساعة فوق تلك المباني، لقد كانت تلك المباني والمنازل تسقط واحدة بعد الأخرى بعد أن تمزقها القنابل المرسلة من فوهات المدافع الإسرائيلية، وكانت محتوياتها تتناثر في كل اتجاه، فأين صوبت نظرك كنت ترى مفروشات رخيصة مقلدة، مراتب نوم، كراسي بلاستيكية بيضاء وغيرها متناثره بين الأنقاض وعلى الشوارع الضيقة التي تفصل المباني عن بعضها، إن كل موقع لا تزال بعض أجزائه قائمة ترى في جدرانه الفتحات السوداء الرهيبة التي خلفتها صواريخ الهيلوكبترات الأمريكية، شاهدنا مساء أمس عدة عوائل لا تزال مختبئة تحت أنقاض منازلهم المنكوبة، وشاهدنا الأمهات يحاولن إسكات أطفالهن عن البكاء، كان الأطفال يبكون من الخوف ومن الجوع والعطش بعد

أن منع اليهود وصول أية إغاثة إلى أولئك البؤساء، ومما يدعو إلى الاستغراب الذي ينبئ عن جرائم أكثر بشاعة أننا لم نجد أناساً مصابين!! على الرغم من أننا سمعنا عن رجل جريح أخرِج قبل ساعة من وصولنا من تحت الأنقاض.

أما الذين لم يهربوا من منازلهم أو أولئك الذين لم تعتقلهم قوات الاحتلال فقد لجؤوا إلى المخابئ وهم في أسوأ حالات الرعب يتوقعون كل لحظة أن تسقط عليهم قذيفة من تلك التي كانت تصبها عليهم مدافع الدبابات، لقد أجبر بعضهم إلى التجمع في غرف من قبل جنود الاحتلال الذين كانوا يقتحمون البيوت في دباباتهم التي تشق طريقها عبر جدران المنازل، تقول مصادر الأمم المتحدة: إن نصف سكان المخيم البالغ عددهم خمسة عشر ألف نسمة هم أقل من ١٨ سنة، وما إن سكتت أصوات المدافع حتى بدأنا نسمع أصوات الأطفال، أما المساجد التي كانت في السابق تعج بالمصلين فقد أصبحت الآن صامتة، كانت إسرائيل لا تزال تحاول حتى يوم أمس إخفاء حقيقة ما حدث، لقد رفضت السماح لسيارات إسعاف الصليب الأحمر الدخول إلى المخيم لمدة أسبوع كامل، وهذا كما هو معروف يخالف معاهدة جنيف، وكانت إلى يوم أمس لا تزال تحاول منعنا من دخول المخيم. ولا تزال جنين، وهي تقع شمال الضفة الغربية المحتلة، منطقة عسكرية مقفلة تحوط بها دبابات «مركافا» ومركبات الأفراد المدرعة والحراسة العسكرية المسلحة بكل أشكالها. وكل صحفي يشاهد متسللاً إلى داخل المخيم يعاد من حيث أتي. ولكن القوات

الإسرائيلية اختارت بالرغم من ذلك بعض المراسلين الذين اختارتهم بعناية، واقتادتهم إلى بعض مناطق معينة جرى تنظيفها بسرعة لإرسال تقارير متفق عليها مع قوات الاحتلال إلى الجهات التي أوفدتهم. أما نحن فما كان علينا إلا أن أخذنا طريقنا عبر الحقول وأشجار الزيتون، التي تراقبها هي أيضاً دبابات إسرائيل، ودخلنا إلى المخيم، وكنا نرى الأيدي من خلف النوافذ وهي تشير لنا بالتقدم، كان الذعر يسيطر على من بقي حياً من السكان وهم يشيرون لنا ويهمسون أحياناً مشيرين إلى الاتجاه الذي نسلكه والذي يظنون أنه آمن، وعندما كانوا يرون جندياً إسرائيلياً كانوا يشيرون لنا بالصمت أو يطلبون منا العودة إلى الوراء، شاهدنا الترحيب الحار بنا من خلال نظرات الأحياء من السكان الذين لم يكونوا يتوقعون إلى لحظة دخولنا إلى مخيمهم أنهم سيرون أناساً لا يسعون إلى قلتهم وحرقهم، وكان حرصهم كبيراً على إطلاعنا على ما حل بهم من ويلات، أخبرونا عن إعدامات تنفذ، وعن جرافات أتت على المنازل وسكانها بداخلها.

قال لنا جميل صالح البالغ الثالثة والأربعين من العمر: «إن ما حدث جريمة قتل جماعية اقترفها شارون، إننا نشعر الآن بكراهية أكبر بكثير من قبل تجاه إسرائيل، انظر إلى هذا الغلام، ووضع يده على رأس صبي صغير أشعث الشعر اسمه محمد يبلغ من العمر ثمانية سنوات وهو ابن صديق له، وأضاف: «إنه رأى كل ما حدث من شر وسوف يتذكره كله» ولا شك أن كل من عاش مأساة مخيم جنين لن ينسى أبداً ما شاهده، لقد عقدت الصدمة الرهيبة ألسنة

الفلسطينيين الذين عادوا إلى المخيم بعد ذلك الاجتياح الإسرائيلي الرهيب.

وصل السيد رجب أحمد وهو من هيئة الطاقة الفلسطينية، لإصلاح الأعطال في التيار الكهربائي، كان ينتفض من الصدمة والغضب، «هذه جريمة جماعية شنيعة، لقد جئت إلى هناك للمساعدة إلا أنني وجدت خراباً كاملاً، انظر بنفسك إلى ما حدث». لقد كان لدى جميع الفلسطينيين الذين قابلهم طلب واحدٌ: أخبروا العالم بما حدث ■

تحت الحذاء[1]

(ظهرت هذه المقالة في مجلة نيوز ويك في شهر أكتوبر ٢٠٠٢م).

إنها نوع من الحكايات التي يعرفها الشيشانيون جيداً:

لا أظن أنني بحاجة إلى الاعتذار عما ورد في هذه المقالة المترجمة من أخبار ووصف لجرائم شديدة القسوة والوحشية ارتكبت ولا تزال ترتكب منذ سنوات ضد شعب كامل سواء من هب منه يكافح ليخرج بلده من ربقة الاستعمار أو من هو مجرد مواطن يعيش مسالماً. ولا أجد داعياً أن أغلف الكلمات التي تصف الأفعال الوحشية التي تحكي كل أصناف التعذيب والإذلال والاضطهاد الذي ألحقه ولا زال يلحقه الاحتلال الروسي للشيشان. أقول: لا داعي لأن أعتذر عن شيء مما سيرد في هذه المقالة التي ترجمتها عن مجلة نيوز ويك الأمريكية؛ لأنها موجهة إلى أناس هم أجلاف غلاظ قساة متبلدو الشعور، لا تؤثر فيهم تلك الأفعال ولا تستطيع اختراق جلودهم السميكة لتصل إلى ضمائرهم النائمة. نعم هكذا أصبح العالم الآخر، العالم المتمدن، الراقي، العالم الغربي، ذي الحضارة المتطورة، هكذا صار ينظر إلينا نحن المسلمين والعرب. كل الفظائع التي ارتكبت وترتكب ضد شعب الشيشان الذي يطالب بحقوق شرعية اقترفها ضده فريق من أصحاب المدنية الراقية ذوي القلوب الرقيقة والأحاسيس المرهفة التي تكاد تدميها نسمة خفيفة تلامس بشرتها البيضاء. ترتكب هذه الأعمال الوحشية التي لم يحدث ربما على

(١) لم تنشر في صحافتنا المحلية.

مدى تاريخ استعباد الشعوب شبيهاً لها في القسوة والشراسة، ترتكب من قبل جماعة ينتمون للحضارة الغربية المتقدمة.

إنهم أولئك الذين ينفرون النفير ويعلنون الطوارئ عندما يصاب كلب لديهم بوعكة! عندها تهتز الأبدان وتختلج الصدور وتدمع الأعين. إنهم يجرون العمليات الجراحية حتى لسمكة! أما القضاء على مئتي إنسان من شعب الشيشان من رجال ونساء وأطفال وتفجيرهم بلحظة واحدة وعملية واحدة، أما الاعتداء الجنسي على فتاة لم تبلغ الخامسة عشرة من عمرها، وقد قتلوها للتو، فكل هذا لا يحرك في قلوبهم «الرحيمة» خلجة واحدة. والآن أترك القارئ مع ترجمة للمقالة التي نقلتها إلى العربية عن مجلة نيوز ويك الأمريكية:

«في منتصف الليل والظلام دامس تسلل الجنود وهم في عدة الحرب الكاملة إلى قرية كراسنوست بوفسكوي وأحاطوها من كل جانب. وبعد تفتيش قاس وبربري لبيوت القرويين استاقوا أمامهم ستة رجال تتراوح أعمارهم بين ٣٢ و٤٤ سنة. وبعد أن غمموا عيونهم اقتادوهم إلى سيارة من حاملات الجنود. ظهر الرجال المفقودون بعد ذلك بأربعة أشهر في أوائل شهر سبتمبر ولكن في قبر جماعي على الحدود مع أنجوشيا المجاورة لجمهورية الشيشان. لقد قام الجنود أنفسهم الذين اغتالوهم بإخبار أهاليهم عن النهاية التي لقيها أولئك الضحايا الذين لم يقترفوا ذنباً. لم يقم الجنود الروس بإخبار أهالي المغدورين من قبيل شعور إنساني نبيل تسلل فجأة إلى قلوبهم القاسية، أو

حتى شعور بتأنيب ضمائر غير موجودة، ولكن ليتقاضوا من القرويين الذين فقدوا ذويهم ثمن إخبارهم عن المكان الذي دفن فيه ضحاياهم.

إن هذه الحادثة وأمثالها - والتي يؤكد صدقها المنظمة الإنسانية الروسية لحقوق الإنسان - تشهد على وحشية ومأساوية الحرب الشيشانية. إن الغرب يرى أن من مسؤوليته الأدبية أن يرى نهاية لهذه الحرب، كما يرغب في ذلك أيضاً الرئيس بوتين الذي أعلن منذ وقت بعيد أن حرب السنوات الثلاث هذه قد انتهت. لكنها لم تنته. وإن حدث شيء جديد في الحرب الدائرة فهي قد ازدادت ضراوة وازدادت معها وحشية الجيش الروسي الذي يقوم بعمليات ما يسمى (التنظيف) كما يشهد على ذلك ما حدث في قرية كراسنوست بوفسكوى، والذي جعل المقاومة الشيشانية أشد ضراوة.. إن آخر هجمات الثوار الشيشانيين التي حدثت أواخر الصيف الماضي تدل على أن المقاومة أبعد ما تكون عن الاستسلام. ومما يثير المخاوف حقاً أن الحرب الدائرة بين الروس والشيشان يبدو كأنها ستستمر لتشمل الدول المجاورة للشيشان وتهدد بإشعال جبهات أخرى مجاورة.

لقد قامت القوات الروسية مؤخراً بقصف مواقع في جورجيا تدعي أن بها تجمعات للثوار الشيشان، كما أن الثوار هاجموا القوات الروسية المعسكرة في أنجوشيا، وهذا يعد خروجاً على السياسة التي التزم بها الثوار الشيشان من عدم التعرض للأنجوش، وهم شعب يشترك في أصوله وتاريخه مع شعب الشيشان. لقد علمت نيوز ويك

أن الروس سوف ينقلون قوات بالطائرات عبر الحدود الجورجية حتى يتمكنوا من زحزحة الثوار الشيشانيين الذين التجؤوا إلى سفوح جبال بانكيسي الوعرة. وقد تحصل المواجهة في شهر أكتوبر الحالي.

وإذا حدثت المواجهة فسيكون على واشنطن وحلفائها أن تتخذ خيارات صعبة. إن آخر شيء تتمناه واشنطن وحلفاؤها هو أزمة صعبة في القوقاز بعد الذي حدث ويحدث في أفغانستان والعراق. ولم تتردد حكومة بوش في أن تعلن لبوتن أنها لن تعطيه الضوء الأخضر ليعمل ما يشاء في الشيشان مقابل أن يسكت هو عما تنوى عمله في العراق. لكن أمريكا في الوقت نفسه ألمحت لبوتن أنها ستتغاضى إلى حد ما عما يقترفه الروس من جرائم ضد الثوار الشيشانيين، وخاصة وأنها - أمريكا - تعتقد أن بعض أولئك الثوار لهم علاقات مع القاعدة وغير القاعدة من المسلمين المتطرفين، وأن هجوماً روسياً على جورجيا سيكون سابقة لتدخل الروس في شؤون جمهوريات الاتحاد السوفيتي السابق، وسوف يخل بتوازن الوضع الحساس القائم مما ينذر بوضع غير مستقر في المنطقة بأسرها.

في الوقت نفسه تستمر وتيرة القتل بين الجانبين في الارتفاع. وهناك في جمهورية الشيشان ما يقرب من مئة ألف جندي روسي، وحسب الإحصائيات الرسمية تقول السلطات الروسية: إنها فقدت إلى الآن أربعة آلاف وخمس مئة قتيل، بينما تؤكد جمعية أمهات الجنود أن العدد الحقيقي للقتلى يقرب من أحد عشر ألف جندي.

وفي أغسطس أسقط الثوار الشيشانيون بواسطة مدفع يحمل على الكتف طائرة هيلوكبتر على متنها مئة وأحد عشر جندياً روسياً. وكانت الطائرة تحمل أكثر من حمولتها العادية؛ لأن معظم الجنود كانوا خائفين من التحرك على الطرق البرية داخل الشيشان. وكثيرا ما تسقط دوريات الجنود الروس في حقول الألغام التي يزرعها الشيشانيون ويفجرونها بالتحكم عن بعد. ويؤكد ألكساندر بتروف وهو من هيئة حقوق الإنسان أن حوالي عشرة أشخاص يموتون يومياً في الشيشان، ثلاثة أو أربعة جنود روس مقابل سبعة أو ثمانية من الشيشانيين ما بين مدنيين وعسكريين.

ولا يعرف أحد كم مات من الشيشانيين منذ اندلاع العنف. التقديرات تشير إلى أن ما بين ثمانين ألفاً ومئة ألف قضوا في بداية الثورة التي اندلعت في عام ١٩٩٤ واستمرت إلى عام ١٩٩٦. ومنذ استئناف العنف من ثلاث سنوات (هذا المقال ظهر في مجلة نيوز ويك في أكتوبر عام ٢٠٠٢م) قضى ما بين عشرين ألفاً إلى أربعين ألف شيشاني نحبهم في عمليات حربية لم تفرق بين ثائر يحمل السلاح ومدني لا شأن له بالعنف. ولكن الأكثر وحشية في أعمال القمع الروسية هي ما يطلقون عليه في روسيا عملية التنظيف أو «التكنيس الأمني»، كما حصل في بلدات وقرى عديدة والتي أثارت أكثر من أي شيء آخر غضب وحنق الشيشانيين. إن تلك العمليات والتي ترتكب ضد أعداء لا وجود لهم إلا في مخيلة الجنود الروس، هي من أشرس عمليات الإبادة التي يقوم بها الجيش الروسي. إن عمليات التنظيف

التي يقوم بها الجنود الروس والتي تصاحبها عادة أعمال عنف وضرب وسرقة واغتصاب للنساء، هذه الأعمال تزيد من تعاطف بقية الناس مع الثوار بدلاً من الابتعاد عنهم. وطبقاً لتقديرات منظمات حقوق الإنسان فإن أعمال الكنس هذه تسببت في اختفاء أكثر من ألفي رجل من الشيشانيين معظمهم في السنة الماضية وحدها.

كريستيانا كرجاب - ردلينخ، وهي محررة بولندية زارت مؤخراً الشيشان لتقدم تقريراً عن الإستراتيجية الروسية في الشيشان إلى مجلة نيوز ويك الطبعة البولندية - وهذا تقريرها:

في الساعة الخامسة صباحاً من يوم ١٤ إبريل ٢٠٠٢م تحركت شاحنة عسكرية روسية ببطء في شارع السوفييت.. كان يقف على ظهرها شاب شيشاني غطت جسمه الدماء ووضعت القيود الحديدية في يديه ورجليه. وقفت السيارة عند حاجز حديدي ودفع الجنود الشاب الشيشاني من فوق ظهر السيارة إلى قرب الحاجز. لم تكد السيارة تغادر حتى سمع صوت انفجار مدو. كان الانفجار من القوة بحيث أرسل رأس الشاب طائراً إلى الشارع المجاور والمسمى وصايا لينين!!.

«كان من الصعب التقاط صور للحظة الانفجار - على الرغم من أنني أصبحت معتادة على مثل ذلك» هكذا قالت المرأة الشيشانية ذات الشعر الأشهب، والتي أمضت سنين تسجل مع الروس ما يطلقون عليه (حملتهم ضد الإرهاب)؛ ولأسباب مفهومة لم ترغب المرأة في ذكر اسمها:

إن تفجير الناس أحياء أو أمواتًا كان آخر مبتكرات الجيش الفيدرالي الروسي في الصراع القائم. ولقد تم استخدام هذه الطريقة بفاعلية ممتازة في يوم ٥ يوليه الماضي في قرية مسكر يورت عندما ربط الجنود الروس واحداً وعشرين إنساناً ما بين رجل وامرأة وطفل ثم فجروهم دفعة واحدة ورموا أوصالهم الممزقة في حفرة واحدة!..

إن مثل هذه الوسائل من وجهة نظر الجناة تجعل من الصعب معرفة عدد المقتولين أو هي في الحقيقة تؤدي إلى تلاشيهم نهائياً. لكن حتى هذه الوسائل لم تنجح نهائياً في إخفاء الجرائم، حيث وجد أن الكلاب صارت مؤخراً تحفر الأرض لتحصل على قطع أجسام آدمية في أجزاء متفرقة من الشيشان وكل يوم تقريباً.

في الوقت نفسه لا تزال الطرق التقليدية فعالة، ففي يوم ٩ سبتمبر وجدت جثث تسعة رجال من إحدى القرى وكانت الجثث عارية وقد كممت رؤوس أصحابها بأكياس بلاستيكية. وفي يونيه وجدت جثث خمسين إنساناً مقطعة ومرمية في حفرة واحدة بالقرب من أحد معسكرات الجنود الروس. كانت بعض الجثث تنقصها العيون أو الآذان أو الأطراف أو الأعضاء التناسلية. ولقد وجدت منذ فبراير الماضي قبوراً جماعية في كل من جروزني، يورت الشيشانية، الخان - كالا، وارجون.

لا تزال تلك المرأة الصغيرة ذات الشعر الأشهب - منذ بداية الصراع في الشيشان منذ العام ١٩٩٤م - لا تزال تدور بكامرتها أرجاء

الشيشان؛ إنها تنشر صورها عن الفظائع التي ترتكب في هذا البلد على طاولة في منزلها وكأنها صور عائلية أو صور آثار نادرة. تمر بيدها فوق الكسور الموجودة على إحدى الجماجم، وهي واحدة من حوالي ١٢جمجمة وجدت بين معسكري - يورت وشيشان - يورت. تقول: إن الجثث استخرجت بعد فترة قصيرة من قتل أصحابها؛ ولذا فإن نسيجها لا زال واضحاً. وتضيف أن قطع اللحم المفقودة من الجثث تدل على أن الكلاب الضارية أطلقت على أصحاب تلك الجثث قبل أن يقتلوا. وتضيف المرأة قائلة: «إن من الصعب معرفة كل الحقيقة والناس لا يودون الحديث في هذه المواضيع. إنهم يخافون أن يصبحوا هم الضحايا القادمة».

تقول جمعية العلاقة الروسية - الشيشانية بالتعاون مع منظمة حقوق الإنسان: إنه في خلال شهر واحد من ١٥ يوليو إلى ١٥ أغسطس من هذا العام قتل ٥٩ شخصاً بإطلاق النار عليهم، وخطف في الفترة نفسها ٦٤ شخصاً، وجرح ١٦٨ شخصاً جروحاً بليغة وعذب ٢٩٨ أنساناً. ولقد اختفى رجال كثيرون بعد توقيفهم من قبل الجنود الروس، كما أن كثيرين تطلق عليهم النار مباشرة ثم ترمى جثثهم. وفي عملية عسكرية واحدة قتل من الشيشانيين ٢٢ رجلاً، وكان سن أغلبهم ما بين العشرين والستة وعشرين عاماً - واثنان منهم لم يتعد عمرهما الخمسة عشر ربيعاً. وحيث إن ما يسمى (أول الشيشانية) تعتبر منطقة عداء لروسيا فقد جرت فيها عشرون عملية (تنظيف) هذا العام فقط. وعادة ما يقوم بعمليات المداهمة هذه القوات

الفدرالية وخاصة الـ (اومون) وهي القوات البوليسية الخاصة وما يقابلها من قوات الجيش أيضاً. وهي تحدث عادة في أي ساعة من ساعات الليل أو النهار.. وعادة ما تحاط القرية المطلوب تنظيفها بالدبابات والعربات العسكرية ولواري الجيش التي تخصص واحدة منها لما يسمى عملية (التطهير) وهذه مخصصة للتعذيب. وحسب ما ورد من مصادر هيئة حقوق الإنسان في نيويورك فإن التعذيب يعتبر وسيلة فعالة في الحصول عن المعلومات المطلوبة. ولما كان الجنود الروس معزولين وبعيدين عن بلدهم فإن الوسيلة الفعالة لديهم للحصول على معلومات عن الثوار الشيشانيين هي في تعذيب المواطنين المسالمين؛ لإجبارهم كيفما اتفق على الإدلاء بمعلومات عن الثوار.

إن أكثر وسائل الجنود الروس رحمة في تعاملهم مع المواطنين الشيشانيين هي عندما تقتصر غزواتهم على السرقة! نعم، فهم يسرقون كل شيء من السكان المسالمين. إنهم يسرقون كل ما تصل إليه أيدهم من سيارات وثلاجات وتلفزيونات ومجوهرات وملابس وأواني منزلية وطبعاً نقود!! إلا أنهم غالباً ما يعودون إلى المعاملة الشرسة التي ألفوها. تقول زهرة من أنكالوي: لقد وصلوا في ٢٣ أغسطس الساعة ٥ صباحاً. كانت هناك مئة عربة عسكرية مليئة بالجنود. أسرعنا لمقابلتهم بأوراقنا الثبوتية. وأسأل الله أن لا يقابلك جندي فدرالي عصبي؛ لأنه في هذه الحالة إما أن يعذبك أو يطلق النار عليك ويرديك قتيلاً بكل بساطة. وفي احتمال سيئ آخر يأخذونك

بعيداً عن أهلك وبيتك. في هذه المرة وصل منهم حوالي عشرين جندياً مدججين بالسلاح. هبطوا في فناء المنزل. وكما هم دائماً فقد كانوا قذرين، لم يحلقوا ذقونهم وتفوح من أفواههم رائحة الفودكا. كانوا يشتموننا بأقذع الشتائم ويتفوهون بأقذر الكلمات. أخذوا يطلقون النار بين أقدامنا. أخذوا أوراقي الشخصية وقطعوها إرباً. لقد كلفتني تلك الأوراق خمس مئة روبل، وكان ذلك كل ما أملك، ثم ذهبوا إلى منزل جارنا عائلة ماجوم دوفا. سمعنا طلقات نار وصراخ أمينة ذات الخمسة عشر عاماً وشقيقة أحمد وأصلان. (اتركوها) صرخ واحد من الأخوين. (اقتلونا بدلاً منها) ثم سمعنا طلقات رصاص أخرى. شاهدنا من خلال شق في سور الحديقة قائداً من فرقة الـ «اومون» نصف عار يجثم فوق أمينه. كانت الدماء تغطيها من جراء إطلاق النار عليها والجرح المميت الذي أصيبت به. ثم سمعنا جندياً آخر يصيح: «أسرع ياكوليا مادامت لا تزال ساخنة».!!!

أحياناً يتمنى الذين بقوا أحياء أن يكونوا قد لاقوا حتفهم كما حصل في زرنوفوسك هذا الصيف عندما اقتيد الناس إلى حقل قريب من البلدة وأجبروا على مشاهدة الجنود الروس وهم يغتصبون الفتيات الشيشانيات. وعندما حاول ذويهم من الرجال أن يدافعوا عن نسائهم اقتيد ٨٦ رجلاً منهم وقيدت أطرافهم إلى العربات العسكرية ثم اغتصبوا هم أيضاً. انضم ٤٥ من هؤلاء فيما بعد إلى المجاهدين. نوردي داييف وهو رجل أعمى تقريباً دقوا مسامير في يديه ورجليه لأنهم اتهموه بأنه على اتصال بالمجاهدين. وعندما استرجع ذووه بقايا

جثمانه كانت إحدى يديه مفقودة، كما أن أقارب رجل آخر هو الدان منابيف وجدوه جسماً دون رأس. ولقد اضطر أقرباء الرجلين أن يوقعوا على إقرارين بأن الاثنين فجرا نفسيهما!.

أحياناً تختفي مجموعة من الناس دون أثر. وتبدأ عائلاتهم البحث المضني عن ذويهم في المراكز العسكرية ونقاط المراقبة. وإذا ما حصل ووجدوا مفقوداً لهم فإن عليهم أن يشتروه أو يشتروها من مختطفيهم. إن ثمن المفقود إذا كان حياً يقدر بآلاف الدولارات - وحتى الميت لا يقل ثمنه كثيراً عن ثمن الحي. أما إذا لم تجد العائلات مفقوديها فإنها تكتب إلى بوتن وإلى منظمات حقوق الإنسان المختلفة. يعرضون أيضاً صور المفقودين وينتظرون لعل وعسى. إن معظم المختطفين لا يظهرون ثانية، والقائمة تكبر يوماً بعد يوم. أما الذين يعودون فهم غالباً كسيحون معاقون ويعانون غالباً من فشل كلوي أو رئوي، ويكونوا قد فقدوا أسماعهم أو أنظارهم. كما أن غالبيتهم قد كسرت أضلاعهم أو أطرافهم. ويكاد يكون من المؤكد أنهم لن يستطيعوا الإنجاب بعدما تعرضوا له من عذاب رهيب ■

قصص قصيرة

مقدمة:

وجدت لدي من كتابات قديمة قصتين قصيرتين إحداهما مترجمة والثانية من تأليفي. قررت أن أضمهما لمجموعة المقالات والدراسات لكتابي هذا.

أرجو أن لا يجدها القارئ نشازاً، فهي مجرد ذكرى لسنين خلت، سنين زادت عن الأربعين عاماً، وربما من حسن حظ القارئ أن ما كتبته من قصصي القصيرة في ذلك الزمن البعيد فقدت ولم أعثر إلا على هاتين القصتين.

الحرب(١)

كان على المسافرين الذين غادروا روما بقطار نصف الليل أن يقضوا ليلتهم حتى الفجر في محطة فابيانون الصغيرة كي يستمروا برحلتهم بواسطة عربة صغيرة قديمة تربطهم بالخط الرئيس في سلمونا.

وفي عربة قاتمة خانقة من عربات الدرجة الثانية كان يوجد خمسة أشخاص قضوا ليلتهم هناك، وعند الفجر طالعتهم امرأة سمينة عليها طابع الحزن العميق، وقد بدت وكأنها ربطة ضخمة

(١) نشرت في جريدة حراء في ٦ / ٤ / ١٣٧٨هـ، الموافق: ٢٠ / ١٠ / ١٩٥٨م.

فقدت طابعها الأساسي، وتبعها زوجها يئن لاهثاً، رجل دقيق رفيق تبدو عليه مظاهر الإعياء؛ فقد كان وجهه في صفرة وجوه الأموات، بينما بدت عيناه الصغيرتان براقتين؛ يطالع الناظر إليهما أنهما خجلتان. وقد أطلق منهما نظرة غير مستقرة. واتخذ مقعده في العربة بهدوء بينما اتجه إلى المسافرين شاكراً لهم حسن مساعدتهم لزوجته وإيجاد لها مكان بينهم. واتجه بعد ذلك إلى زوجته محاولاً إصلاح ياقة معطفها، بينما سألها بأدب: هل أنت بخير يا عزيزتي؟ وبدلاً من أن تجيب عن سؤاله بادرت برفع ياقتها ثانية إلى عينيها كأنما تحاول أن تخفي وجهها.

... يا له من عالم قذر هكذا تمتم الزوج، وقد رسم على شفتيه ابتسامة حزينة؛ وشعر بعد ذلك أن واجبه أن يشرح لرفاقه المسافرين أن المرأة المسكينة تستحق الشفقة؛ لأن الحرب قد سلبتها ابنها الوحيد الشاب الذي يبلغ العشرين من عمره، لقد جعل هو وزوجته حياتهما وقفاً عليه وحده، حتى إنهما هجرا منزلهما في سلمونا ليتبعاه إلى روما حيث كان عليه أن يذهب إلى هناك للدراسة. ثم سمحا له أن يتطوع للحرب على بشرط أن لا يلقى به في الجبهة، على الأقل في الستة الأشهر الأولى، ولكن فجأة وعلى حين غرة وردت لهما إشارة برقية تقول: إنه سيترك روما في غضون ثلاثة أيام وتدعوهما إلى الذهاب إليه وتوديعه:

كانت المرأة تململ وتتألم في معطفها الكبير، وفي بعض الأوقات كانت تدمدم كحيوان هائج؛ شاعرة بكل تأكيد أن جميع هذه المعلومات

التي كان زوجها يشرحها لن تثير حتى ظلاً من الشفقة في هؤلاء الناس الذين - على أغلب الظن - كانوا في المأزق نفسه مثلها تماماً. وقد قال واحد منهم، وكان منتبهاً بصفة خاصة: يجب أن تشكروا الله على أن ابنكم يذهب الآن فقط إلى الجبهة. إن ابني قد أرسل إلى هناك في أول يوم من أيام الحرب، ولقد عاد مرتين جريحاً ثم أعيد ثانية إلى المعركة.

ورد عليه مسافر آخر بقوله: «وماذا عني أنا؟ أنا لي ولدان وثلاثة من أبناء أخي في الجبهة». ولكن الزوج رد قائلاً: «ربما ولكن بالنسبة لنا إنه ولدنا الوحيد» وأجاب الآخر: «وأي فرق في ذلك؟ إنك ربما تفقد ولدك بالعناية الزائدة، ولكنك حتماً لا تستطيع أن تحبه أكثر مما تحب كل أولادك الآخرين إذا قدر وكان لك أولاد آخرون. إن الحب الأبوي ليس كرغيف الخبز تقسمه إلى قطع وشرائح بين أولادك بالتساوي. إن الوالد يعطي كل حبه لكل واحد من أولاده بلا تفريق، سواء كانوا ولداً واحداً أو عشرة أولاد. وإذا كنت الآن أعاني بعد أولادي الاثنين فإنني لا أعاني نصف ما أجده عن كل واحد منهما بل مضاعفاً. وأجاب الزوج المضطرب «حقاً، حقاً، ولكن افرض - ونحن نأمل طبعاً أن لا تكون هذه حالتك - أن أباً له ولدان في الجبهة وفقد واحداً منهما فإنه لا يزال هناك الثاني وهذا مدعاة لعزائه.. بينما. وقاطعه الثاني قائلاً: «نعم؛ هناك الثاني يعزيه ولكن هذا الثاني أيضاً يحتم على والده أن يعيش لأجله بينما في حالة ما إذا كان للأب ولد

واحد ومات فإن الأب أيضاً يستطيع أن يموت ويضع حداً لمأساته، أي وضع من الاثنين أسوأ؟ ألا ترى أن مشكلتي أسوأ من مشكلتك؟

وهنا قاطعه أحد المسافرين بقوله: «هراء» كان هذا المسافر بديناً ذا وجه أحمر وعينين ملتهبتين يميل لونهما إلى الأزرق الباهت. كان الرجل يلهث؛ ومن خلال عينيه المتورمتين كانت تظهر قوة داخلية ذات حيوية مسيطرة، كان من الصعب على جسمه الضعيف أن يحتويها، وأعاد الرجل قوله «هراء» محاولاً أن يخفي فمه بيده ليستر بذلك مكمن سنين سقطتا من فمه: «هراء» هل نحن نعطي الحياة لأولادنا لأجل صالحنا الخاص.

وحاجه المسافرون الآخرون بنظرة استنكار، وتنهد الرجل الذي ذهب ابنه إلى الجبهة في اليوم الأول من ابتداء الحرب قائلاً: «إنك على حق؛ إن أولادنا ليسوا ملكاً لنا بل إنهم ملك لوطنهم.

وبحماسة استأنف المسافر البدين حديثه: «كلام فارغ. هل نفكر في الوطن عندما نربي أولادنا؟ إن أطفالنا يولدون لأنهم حسناً لأنهم يجب أن يولدوا؛ وعند قدومهم إلى الحياة تصبح حياتنا نحن جزءاً من حياتهم، هذه هي الحقيقة، إن سعادتنا متعلقة بحياتهم، بينما سعادتهم لا تتعلق بنا أبداً. وعندما يبلغون العشرين من العمر يصبحون في الموقف نفسه الذي كنا فيه عندما كنا أيضاً في العشرين من عمرنا، نحن أيضاً كان لنا والد ووالدة، ولكن كانت هناك أشياء كثيرة أخرى.. سجائر وربطات عنق جديدة، وطبعاً كان هناك الوطن

الذي كنا نلبي نداءه عندما كنا في سن العشرين حتى ولو رفض الوالدان. والآن وفي سننا هذا لا يزال حب الوطن عظيماً، ولكن حبنا لأطفالنا أعظم. هل يوجد واحد منا لا يرحب بأخذ مكان ولده في الجبهة إذا استطاع ذلك؟ وتبع ذلك فترة سكون أومأ فيها الجميع كعلامة على موافقتهم على ما قيل.

واستطرد الرجل البدين قائلاً: «لماذا إذن لا نقدر شعور أبنائنا عندما يكونون في سن العشرين؟

أليس طبيعياً أنهم في هذه السن يعتبرون حبهم لوطنهم أكبر من حبهم لنا؟ - إنني أتكلم طبعاً عن الأولاد المؤدبين - أليس طبيعياً أن الحالة يجب أن تكون هكذا حيث إنهم على العموم ينظرون إلينا كشيوخ هدهم الكبر لا يستطيعون الحراك ويجب بقاؤهم بالبيت؟ فإذا وجد الوطن وإذا كان الوطن ضرورة طبيعية - كالخبز مثلاً حيث ينبغي على كل واحد منا أن يأكل حتى لا يموت جوعاً - إذا كان الوطن وطنهم ينبغي على بعضهم أن يدافع عنه. وهكذا يذهب أبناؤنا عندما يكونون في العشرين.

ولكنهم لا يريدون أن يشيعوا بالدموع؛ لأنهم إذا ماتوا فإنهم يموتون سعداء مشتعلين حماسة - إنني أتكلم طبعاً عن الأولاد المؤدبين-. والآن عندما يموت أحدهم صغيراً وسعيداً دون أن يرى جوانب الحياة القبيحة.. ثقل أعبائها وتفاهتها ثم مرارة الوقوف على حقيقتها.

هل نطمع بالمزيد له؟ ينبغي على الجميع أن يكفوا عن البكاء، يجب عليهم أن يضحكوا كما أفعل أنا أو على الأقل يجب أن يشكروا الله كما أفعل أنا أيضاً؛ لأن ابني قبل وفاته أرسل يخبرني أنه يموت مطمئن الخاطر؛ لأنه أنهى حياته كأحسن ما كان يتوقع. وهكذا تروني لا أرتدي حتى ملابس الحداد. وهذا معطفه الأصفر الخفيف كأنما ليباهي به. كانت شفته الرطبة ترتعش فوق أسنانه التي تركت مكانها، وكانت عيناه دامعتين وقد شملتا حجريهما، وقد أنهى كلامه بضحكة عالية كانت إلى النحيب أقرب منها إلى الضحك. ووافق الجميع على كلامه قائلين: إن ذلك هو عين الحقيقة.

أما المرأة فقد تكورت تحت معطفها الثقيل في ركن من العربة، وكانت تستمع إلى ما يقال، لقد حاولت في الأشهر الثلاثة الماضية أن تجد شيئاً من العزاء في كلمات زوجها وفي كلمات الأصدقاء، شيئاً يريها كيف تستطيع امرأة أن ترسل ولدها في موت محقق بل إلى حياة فيها شيء من الخطورة. ولكنها لم تجد في كل ما قيل شيئاً من ذلك، فكان حزنها أعظم عندما خيل إليها أن لا أحد يستطيع أن يشاركها آلامها.

ولكن الآن. لقد أدهشها حديث ذلك المسافر، لقد تأكدت في تلك اللحظة أن الخطأ ليس خطأ الآخرين الذين ظنت يوماً أنهم لن يستطيعوا فهم نفسيتها، بل إنها هي التي ضلت الطريق ، إنها هي التي لم تستطع أن ترتفع إلى مستوى تفكير هؤلاء الآباء والأمهات

الذين وطنوا أنفهسم، وبلا نواح أو عويل ليس فقط على رحيل أبنائهم بل حتى على موتهم.

رفعت المرأة رأسها واتجهت بسمعها وحواسها نحو الرجل البدين لتسمع التفاصيل التي كان يعطيها لزملائه المسافرين عن الطريقة التي سقط ابنه بها بطلاً من أجل مليكه ووطنه، وكيف أنه مات سعيداً وبلا إخوان. لقد خيل إليها في تلك اللحظة أنها استيقظت فجأة فوجدت نفسها في عالم لم تكن تحلم بمثله، عالم لم يكن معروفاً لديها من قبل، ووجدت سروراً لا مزيد عليه وهي تسمع كل واحد من المسافرين يقدم التهنئة لذلك الوالد الشجاع الذي كان يتكلم عن موت ابنه بهذه الشجاعة. وفجأة وكأنها استيقظت من حلم حيث لم تسمع مما قيل من قبل شيئاً، التفتت إلى الرجل العجوز سائلة: «إذاً» هل مات ابنك حقاً؟ ويحلق الجميع بها. والتفت أيضاً الرجل العجوز وقد حدق بها بعينيه المنتفختين، وقد بدتا كبيرتين بلونهما الأزرق الباهت وبالدموع التي سالت من أطرافهما. لقد حاول أن يجيب عن سؤالها ولكن الكلمات فاتته. ونظر إليها مرة ومرة وبدا كأنه تحقق الآن فقط، وبعد سؤالها السخيف، أن ابنه مات حقاً. ذهب ولن يعود. إلى الأبد:

وتقلصت عضلات وجهه وبدا كأنه يعاني ألماً لا يحتمل.. ثم ... ولدهشة كل واحد من المسافرين التقط منديله من جيبه وانفجر بنحيب متصل يكاد يقطع نياط قلبه.■

بعد تسعة أشهر[1]

بدت الشمس بأشعتها الذهبية فغطت الكون وملأته بهاء وضياء، وتسابقت خيوط الأشعة كأنها سبائك من الذهب صبت من عل، وسقط شعاع منها على نافذة مغلقة ظل حائراً فوقها إلى أن وجد منفذاً تسلل منه إلى داخل غرفة أنيقة، كل شيء فيها يشهد أنه حديث العهد بالتأثيث، كان الأثاث كاملاً، وأبرز ما فيها تلك التسريحة الحديثة التي غصت بأدوات الزينة مما لا يوجد إلا في غرفة تقطنها امرأة. وتحركت (عايدة) في فراشها وقد أحست بحرارة الشمس تداعب وجهها؛ كان الشعاع المتسلل من النافذة قد اختار جانب وجهها الأيمن فبدا وكأنه لوحة زيتية يشع منها الضياء، قد أبدعتها ريشة رسام ماهر.

وشيئاً فشيئاً فتحت عينيها ثم أقفلتها ثانية عندما قابلتها أشعة الشمس، ومكثت قليلاً ثم فتحتها ثانية، فقابلتها الشمس في هذه المرة أيضاً فغطت عينيها بيديها الصغيرتين وابتسمت لنفسها وكأنها تغلبت على مكر هذا الإشعاع من النور الذي اقتحم عليها مخدعها.

ومدت «عايدة» يدها وأخذت تمس بها رأس زوجها الذي قاسمها السرير مسّاً رقيقاً، وتحرك (ماهر) ثم مد يده وسحب الغطاء على

(١) نشرت في جريدة حراء في ٢٨ / ٥ / ١٣٧٨هـ. الموافق: ١٠ / ١٢ / ١٩٥٨م.

وجهه ورأسه من جديد وهو يرسل تنهيدة تدل على ارتياحه التام. ولم تتركه (عايدة) فقد راحت تعبث بشعره ويديه وتدلك وجهه حتى فتح عينيه ونظر إليها، وأشرق بابتسامة حلوة دلت على سعادته وسروره، ثم عاد وأغمض عينيه.

وسمعا في الردهة صوت أقدام ثم نقر على الباب، فانفلتت من بين ذراعيه وأسرعت تفتح الباب، وجاءت الخادمة تحمل صينية وضعت عليها أكواب الحليب، وجلس الزوجان جنباً إلى جنب على السرير، وتكلم ماهر «يا سلام يا عايدة، والله ما كنت مصدق أني أتجوزك.. وإلا أقولك - أخاف أن يكون ده برضه حلم لأني حلمت ألف مرة أننا تجوزنا».

وأجابته (عايدة) بابتسامتها: «أبداً يا ماهر، إحنا والحمد لله تجوزنا من صحيح، وإن ما كنت مصدق مستعدة أشد لك أذنك علشان تصدق». وقرصته في أذنه قرصة خفيفة - وأطلقا ضحكة قطرت منها السعادة بأحلى معانيها.

وتبع ذلك لحظة صمت فيها الاثنان، كانت عايدة خلالها ترشف من فنجانها وهي ترمق زوجها بنظرة كلها حب ووجد؛ واستسلم ماهر إلى سحابة أفكار لم تلبث أن انقشعت عندما فاجأته زوجته بقولها: «إيه اللي حصل؟ اللي أخذ عقلك ما يتهنى به» ولكنه وضع يده بسرعة على فمها وهو يقول: «لا سمح الله يا حبيبتي، أنت اللي أخذت عقلي

ولا حد غيرك» وأرادت أن تستدرجه فقالت بدلال: «قوللي كيف أخذت عقلك عشان أشوف التهمة صحيحة».

وأجاب العريس وكل جارحة فيه تتكلم: «كنت بفكر في الأيام والأشهر والسنين اللي جلست فيها أنتظر هذا اليوم:- ما كنت أعتقد أبداً أن اليوم ده رح يجي.. كانت أحياناً تنتابني حالات من اليأس وأشوف الأيام الطويلة اللي مرت واللي لسه بتمر، وأسأل نفسي يا ترى صحيح راح يجي يوم وأشوف فيه عايدة الحلوة الجميلة صارت لي وحدي».

كان (ماهر) يتكلم بينما أغمضت (عايدة) عينيها تستمع إلى كلامه وقد خيل إليها أنها تسمع لحناً موسيقياً عذباً لا يستطيع عزفه إلا هو.

وشعرت برعشة طفيفة تسري بجسدها فأسندت رأسها إلى كتف زوجها وراحت في شبه غيبوبة.. وراحت تتكلم وكأنها تحلم.. سمعها تقول: «الحمد لله اللي إحنا أخيراً اجتمعنا - ولن يفرقنا إلا الموت..» واقشعر جسد (ماهر) من ذكر الموت وتمنى لو لم تذكره!

وراحت تتكلم وتتكلم، كانت تريد أن تحدثه باستمرار لتنتقم من الأيام الماضية التي تمنت خلالها لو تراه فقط، كانت لا تشبع من الحديث إليه.. كانت كل جارحة فيها تخاطبه، كان قلبها يتكلم..

وعيناها كانت تكلمانه.. ومع كل ذلك كانت تظن أن هناك أشياء كثيرة لا تستطيع التعبير عنها.. لا تستطيع أن تجعله يفهمها. قالت له:

إن حبها له لم يكن من حين رؤيتها له فقط.. لا! إنها تحبه منذ زمن بعيد، بعيد جداً!! إن حبها له ولد عام تفتحت أنوثتها وأعلنت عن نفسها.. إنها قد صورته بخيالها الخصب وعقلها الساذج عندما كانت تتخبط في سني مراهقتها.. لقد صورته بخيالها قبل أن تصوره بها عيناها..! قالت له: إن كل فتاة تصور فارس أحلامها، وإن صورة فارسها قد انطبقت عليه تماماً، كانت تحلم به دائماً وتراه كل يوم. تراه في الروايات والقصص التي تقرؤها.. تراه بطلاً لكل قصة تقرؤها وترى نفسها بطلة أمامه، وقصت عليه كيف أنها لم تفاجأ عندما رأته لأول مرة؛ فهو في قلبها منذ بدأ قلبها يبتسم للحياة.. تخيلت عندما واجهته لأول مرة أنها إنما تراه بعد غياب طويل.

وقصت عليه بعد ذلك كيف انتابها اليأس القاتل عندما أرسل إلى أبيها من يطلبها له، وكيف تردد والدها في إجابة طلبه، وكيف غامت الدنيا بعينيها واستسلمت لوحدة مريرة وهي لا تملك غير هذا. وقد دعت الله وقتها كثيراً أن لا يتقدم لها أحد غيره. دعت الله بقلب عذراء طاهرة.

وصمتت (عايدة) قليلاً ثم انفجرت ضاحكة..! ضحكت طويلاً، وتطلع (ماهر) إليها وقد اندهش لها والموقف لا يدعو إلى الضحك. ومع ذلك فقد شاركها الضحك دون أن يفهم لم تضحك.

وأخبرته أنها ضحكت لأنها تذكرت يوم أن جاء إلى بيتهم بنفسه عندما لم يقتنع بما قاله الناس الذين أرسلهم إلى والدها. كانت يومها

تقف وراء الباب في حجرة مجاورة، وسمعته عندما بدأ يتحدث مع أبيها. كان يتلعثم ويتكلم بصوت منخفض حتى خشيت أن يفشل، ثم انتابه الحماس فجأة فراح يؤكد أن المستقبل حليفه، وأنا يا عم واثق من المستقبل إن شاء الله، راتبي خمس مئة ريال، وفيه كمان زيادة في الميزانية الجديدة وبأخذ كمان..» ولم يمهله الوالد ليتم كلامه بل ضحك ضحكة وقورة وهو يقول: «ما في داعي يا بني تعد لي اللي بتاخذه وربنا يزيدك ويفتح عليك.. أنت ولد طيب وابن ناس طيبين ولو كنت عرفت أنك كده من الأول ما كنت ترددت أبداً، ولكن الآن ما فات شيء وأنا بكل سرور أقبلك زوجاً لابنتي وأسأل الله أن يكتب لكما السعادة ومبروك مقدماً».

وقصت (عايدة) على (ماهر) كيف غلبتها السعادة وأعلنت الفرحة من نفسها عندما سمعت كلام والدها، فراحت تجري في البيت وتقبِّل أمها وأخواتها - ولم تستطع أن تكتم فرحتها فقد أعلنتها بعينيها عندما لم تتكلم بشفتيها.

مرت الأيام والأشهر والزوجان السعيدان يشهلان أكواب الهنا. مترعة ولم يكدر صفوهما مكدر. واستيقظ (ماهر) ذات صباح فوجد زوجته قد سبقته إلى ذلك. كانت جالسة على السرير وقد أسندت ظهرها إليه. نظر (ماهر) إلى وجهها فابتسمت ابتسامتها الرقيقة، ولكنه لحظ أن ابتسامتها اليوم أرق بكثير مما عهدها. كان وجهها يحمل سراً وضحته ملامحها. وأسرت إليه بالنبأ العظيم، وقد نكست

رأسها وأرخت أهدابها الطويلة وراحت أصابعها تعبث بلا شيء.. إن هناك حادثاً سعيداً ينتظرها.

كان الوقت في المكتب في ذلك اليوم يمر بطيئاً. بدت الساعة وكأنها جمدت عن الحركة. كان (ماهر) ينتظر الساعات لتمر فيسرع إلى زوجته ليقبلها من جديد على هذه البشرى العظيمة. كان ينظر إلى الناس بعين الرثاء؛ لأنه لا يوجد بينهم من يتمتع بمثل سعادته..! وكان يعجب لجهلهم..! يعجب لم يكدون ويكدحون ما دام واحد منهم لا يتمرغ بمثل هذا الهناء الذي يتقلب هو به!

وأسرع إلى المنزل قبل أن ينتهي وقت الدوام، وقصد في وصوله إلى غرفته، فوجد زوجته وقد أكبت على كتاب يبحث في طرق تربية الأطفال.

جلس بجانبها وأخذ يقرأ معها. ومضت دقائق لم يستطع أن يتتبع القراءة التي أنهكت بها زوجته بكل حواسها. ورفع أخيراً رأسه ونظر إلى زوجته وقال: « يا سلام. أمتى بس راح تمضي السبع أشهر الباقية؟» ولم تجبه زوجته. وعاد بعد برهة يقول: «نبغي إن شاء الله نسميه سمير. ولم يفلح أيضاً في أن يحول زوجته عن القراءة فعاد يقول وقد رفع من صوته: «هيه.. قلت نبغي نسميه سمير إن شاء الله» ورفعت (عايدة) رأسها عن الكتاب ونظرت إليه نظرة حملت معاني العتاب وقالت: «ما نبغي نسميه سمير».

- كيف ما تبغي تسميه سمير.
- بس كده ما أبغي بالاسم ده.

- ليه هو أنت اللي تبغي تسمي وألا أنا.
- أنت ولا أنا كله واحد.
- طيب خلاص إذن إحنا كلنا نبغي نسميه سمير.

وقالت وقد ارتفع صوتها: «مين قلك أنا موافقة على كده: يعني أنا ما لي شور ولا كلمة؟ هذا ابني وأنا ما أحب اسميه الاسم ده».

وأجاب (ماهر) وقد استبد به الحنق: «أنا أبوه والولد يتسمى على كيفي وكفاية كلام فاضي».

وسكتت.. ثم بعد فترة قالت بصوت خفيض وكأنها تحدث نفسها: «إن شاء الله تجي بنت وبعدين سميها سمير زي ما تحب».

وضحك (ماهر) بالرغم من أنه كان غاضباً. وراح يلاطفها حتى هدأت، وتطلع إلى عينيها الجميلتين وقد انحدرت منهما دمعتان بدتا على وجنتيها كحبتي لؤلؤ. فضمها إلى صدره برقة وهو يقول معتذراً: «آسف يا حبيبتي اللي زعلتك.. وأنت طبعاً عارفه إن سلامتك أهم من أطفال الدنيا كلها فرح في فرح».

وابتسمت فكانت الشمس عندما تشرق والرذاذ يتساقط.

ومرت الأيام. وصارت أشهراً؛ وحان اليوم الموعود.. وأحضر (ماهر) سيارة ذهبت بزوجته إلى مستشفى الولادة.

ووقف (ماهر) أمام باب غرفة الولادة. دخل الطبيب وحاول أن يدخل معه فمنعوه. قرب أذنه من ثقب الباب ليسمع شيئاً فلم يستطع.

أخذ يذرع الردهة جيئة وذهاباً! كان قلبه يرجف كلما رأى واحداً من الأطباء ومساعديهم بملابسهم البيضاء يدخلون ويخرجون.

ومرت الدقائق وكأنها دهور. كانت أصابعة تعبث ببعضها فيسيل العرق من بينهما فيخرج منديله لينشف يديه ثم يمسح وجهه أيضاً، كان يسرع إلى كل ممرض أو ممرضة تدخل أو تخرج عل أحداً يطمئنه. ولكن لا يجد جواباً شافياً. كان كل ما يقولونه لن لا يخرج عن كلمتين: «خير إن شاء الله».

ورفع (ماهر) يديه إلى السماء واتجه بقلبه إلى الله تعالى داعياً: «اللهم فرج كربتها وخفف عذابها. رحماك اللهم، لي» وسمع صريخاً داخل الغرفة طار له صوابه فاندفع إلى الباب فوجده مقفلاً فوقف مستنداً على الحائط تكاد الأرض تميد تحت قدميه.

وفتح الباب. وخرج الأطباء بادي الإجهاد وقد سالت قطرات العرق على جباههم، وتقدم الطبيب المختص من (ماهر) وقال بصوت لا يكاد يسمع به: «مبروك، جالك ولد». واندفع (ماهر) إلى داخل الغرفة وانحنى على السرير يقبل يدي زوجته ووجهها دون وعي. وحاولت الممرضات أن يرفعنه عن المرأة ولكن بلا جدوى!

وتطلع أخيراً إلى وجهها وقد ذبل وكسته صفرة غريبة اقشعر بها بدنه، كان وجهها يسبح بعرق بارد، كانت تعالج سكرات الموت، وقد أخذ نفسها يعلو ويهبط بصعوبة، حاولت أن تبتسم له فانفرجت شفتاها عن شيء لم يكن ابتسامة!.

ومـدت يدها العـارية وأشـارت إلى المولود الذي أخـذ يحـاول أن يفـتح فمه بـالبكاء لأول مـرة، وقـالت بصـوت واهـن: «سـميـه سـميـر يا ماهـر» وانطفأت الشعلة التي كانت تنير له طريق الحياة.■